كلية الآداب _ الدراسات العليا

برنامج الماجستير في اللغة العربية وآدابها

تحليل الخطاب في كتاب الكامل: الخُطب أنموذجًا
(دراسة نصيّة تداوليّة)

Discourse Analysis in AL-KAMEL: Orations as a Model, a Textual- Pragmatic Study

إعداد

مروة خليل سعيد المشني

إشراف

أ.د. مهدي أسعد عرار

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في برنامج اللغة العربية وآدابها
من كلية الآداب في جامعة بيرزيت _ فلسطين

٢٠٢٠-٢٠٢١

كلية الآداب _ الدراسات العليا

برنامج الماجستير في اللغة العربية وآدابها

تحليل الخطاب في كتاب الكامل: الخُطب أنموذجًا

(دراسة نصيّة تداوليّة)

Discourse Analysis in AL-KAMEL: Orations as a Model, a Textual- Pragmatic Study

إعداد

مروة خليل سعيد المشني

لجنة المناقشة

أ.د. مهدي أسعد عرار

أ.د. إبراهيم السعافين

د. نصر الله الشاعر

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في برنامج اللغة العربية وآدابها

من كلية الآداب في جامعة بيرزيت _ فلسطين

٢٠٢٠-٢٠٢١

جامعة بيرزيت
BIRZEIT UNIVERSITY

كلية الآداب _ الدراسات العليا

برنامج الماجستير في اللغة العربية وآدابها

تحليل الخطاب في كتاب الكامل: الخُطب أنموذجًا

(دراسة نصيّة تداوليّة)

Discourse Analysis in AL-KAMEL: Orations as a Model, a Textual- Pragmatic Study

رسالة ماجستير مقدمة من الطالبة

مروة خليل سعيد المشني

إشراف: أ.د. مهدي أسعد عرار

تاريخ المناقشة: 2021/1/11

أعضاء لجنة النقاش

أ.د. مهدي أسعد عرار (مشرفًا ورئيسًا) .....

أ.د. إبراهيم السعافين (مناقشًا خارجيًا) .....

د. نصر الله الشاعر (مناقشًا داخليًا) .....

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في برنامج اللغة العربية وآدابها

من كلية الآداب في جامعة بيرزيت _ فلسطين

2021-2020

الإهداء

إلى والدي الأثير، برًّا وإحسانًا

إلى أمي المجاهدة، وفاءً وعرفانًا

إلى إخوتي وأخواتي، اعتزازًا وافتخارًا

إلى من ستبقى ذكراهما خالدة، تُخَطّ بمداد الجراح، تنمو في حنايا القلب يومًا بعد يوم لهفةً للقيا بهما في جنّة النّعيم: جدّي وجدتي رحمهما الله...

إليكم جميعًا أهدي هذا الجَهد، محبّة ودعاءً بالعمر المديد في طاعة الباري

مـــروة

الشكر والتقدير

لله العظيم الشكر والمنة، تقدّست أسماؤه، فنعمَ المولى الذي وفقني وأعانني على إتمام هذه الدراسة، ويطيب لي أن أزجي من الشكر أطيبه للمشرف عليها منذ أن كانت فكرة، العالم المبحر في خِضَم البيان "مهدي أسعد عرار"، طالما غمرتني بعلمك الغزير، ومناقشتك العلمية الثريّة التي تُعمِل العقل والفكر في أمور لغويّة وفكريّة، فلك أسمى آيات الشكر والتقدير.

كما وأتقدم بالشكر الجزيل لكل من أغنى الدراسة برأيه الصائب وفهمه الثاقب، وأخصّ بالذكر من تفضلا بقبول قراءتها، ومناقشتها، والتعليق عليها، العالم الجليل "أ.د. إبراهيم السعافين"، وأستاذي الفاضل "د. نصر الله الشاعر"، ولجميع أساتذتي في دائرة اللغة العربية على ما غمرونا به من نصح وإرشاد، أخصّ بالذكر "أ.د. إبراهيم نمر موسى"، و"د. ناصر الدين أبو خضير"، وسكرتيرة دائرة اللغة العربية وآدابها "إنعام داغر".

بارك الله فيكم وأزهرت أيامكم بالخير والعطاء

بَيانُ المُحتَوى

الإهداء ..... أ

الشكر والتقدير ..... ب

بَيانُ المُحتَوى..... ت

الملخّص باللغة العربية ..... د

الملخص بالإنجليزية..... ر

المُقدّمة: مُبْتَدَأُ القولِ ١

التمهيد..... ٩

المُبَرِّد..... ١٠

كتاب الكامل ١٢

الخطب ١٤

الفصل الأول: تحليل الخطاب لغة واصطلاحا ونشأة وفروعًا ١٦

تمهيد ١٧

المبحث الأول: مفهوم الخطاب (Discourse) ٢٠

مفهوم الخطاب عند العرب..... ٢٠

مفهوم الخطاب عند الغرب..... ٢٣

المبحث الثاني: تحليل الخطاب (Discourse Analysis) ٢٥

المبحث الثالث: مفهوم النص والنصية (Text – Textuality) ٢٨

المبحث الرابع: نَحْوُ النَّصِّ Text Grammar ٣٦

المبحث الخامس: التداولية Pragmatics..... ٤٣

1- التداولية نشأة ومفهومًا..... ٤٣

٢- الأبعاد التداولية ٥٤
أ-الإشاريات.....٥٤
ب-الافتراض المسبق.....٥٤
ج- الاستلزام الحواري Conversational Implicature.....٥٥
د- نظرية أفعال الكلام Speech Acts Theory ٥٧
الفصل الثاني: آليات التماسك النصي في خطب الكامل: دراسة تطبيقية نصيّة.....٦٧
١- خطبة الرسول محمد ﷺ: استشراف الاتساق النصي والانسجام النصي.....٦٨
تأسيس.....٦٩
المبحث الأول: وسائل الاتساق النصي ٧٠
تمهيد ٧٠
أ-الاتساق النحوي.....٧٠
١- الإحالة.....٧٠
٢-الوصل.....٧٤
٣-الحذف..... ٧٧
ب- الاتساق المعجمي ٧٨
١-التكرار.....٧٨
٢-المصاحبة المعجمية.....٨٠
المبحث الثاني: وسائل الانسجام النصي.....٨٢
تمهيد ٨٣
أولا: السياق وخصائصه ٨٣
١-طرفا الخطاب: المتكلم والمتلقي.....٨٣
٢-ثنائية الزمان والمكان.....٨٦

٣-نقطتا الابتداء والانتهاء..... ٨٩
ثانيا: البنية الكلية (موضوع الخطاب) ٩٠
ثالثا: البنى النصية الكبرى ٩١
رابعا: ترتيب الخطاب..... ٩٢
خامسا: البنى النصية الصغرى..... ٩٣
سادسًا: العلاقات الدلالية ٩٦
١-التفسير..... ٩٦
٢-السببية..... ٩٧
٣-التقابل..... ٩٧
٢- خطبة الحجاج: استشراف الاتساق النصي والانسجام النصي..... ٩٩
تأسيس..... ١٠٠
المبحث الأول: وسائل الاتساق النصي ١٠٤
تمهيد ١٠٤
وسائل الاتساق النحوي ١٠٤
١-الإحالة..... ١٠٤
٢- الوصل ١١١
٣- الحذف ١١٤
ب- الاتساق المعجمي ١١٦
١-التكرار..... ١١٦
٢- المصاحبة المعجمية..... ١٢٥
المبحث الثاني: وسائل الانسجام النصي..... ١٢٨
تمهيد ١٢٩

أولا: السياق (Context) وخصائصه..... ١٢٩
١-طرفا الخطاب: المتكلم والمتلقي..... ١٣٢
٢-ثنائية الزمان والمكان..... ١٣٨
٣-نقطتا الابتداء والانتهاء..... ١٤٢
ثانيا: البنية الكلية (موضوع الخطاب) ١٤٥
ثالثا: البنى النصية الكبرى ١٤٨
رابعا: ترتيب الخطاب..... ١٤٩
خامسا: البنى النصية الصغرى..... ١٥٠
سادسًا: العلاقات الدلالية ١٥٩
١-علاقة التعميم..... ١٥٩
٢-علاقة الصفة..... ١٦٠
٣-العلاقات المنطقية..... ١٦١
أ-علاقة السبب – النتيجة..... ١٦١
ب-علاقة الإضافة..... ١٦٢
الفصل الثالث: استشراف الأبعاد التداولية في خطب الكامل: دراسة تطبيقية تداوليّة.... ١٦٤
١-نظرية الأفعال الكلامية..... ١٦٥
تقديم..... ١٦٦
المبحث الأول: التصنيف الثلاثي للأفعال الكلامية الإنجازية ١٧١
المبحث الثاني: أنواع الأفعال الكلامية الإنجازية ومستوياتها ١٧٥
المبحث الثالث: مجالات الأفعال الكلامية الإنجازية..... ١٩٠
٢-الاستلزام الحواري..... ١٩٦
تقديمٌ..... ١٩٧

مظاهر خرق قواعد مبدأ التعاون..... ١٩٨
١-خطبة عمر بن الخطاب..... ١٩٨
٢- خطبة زياد بن أبيه ورد مرداس عليها ١٩٩
٣-خطبة عبد الله بن الزبير..... ٢٠١
٤- خطبة المهلب بن أبي صفرة..... ٢٠٤
٥- خطبة داود بن علي..... ٢٠٦
الخاتَمة: مُنْتَهَى القولِ..... ٢٠٩
المقولة الأولى: ارتداد..... ٢٠٩
المقولة الثانية: تأصيل..... ٢١١
المقولة الثالثة: تخلُّق..... ٢١٢
المقولة الرابعة: تفاوت ٢١٣
المقولة الخامسة: مطابقة..... ٢١٤
المقولة السادسة: تطواف..... ٢١٥
ملحق..... ٢٢٠
ثبت المصادر والمراجع..... ٢٢١

تحليلُ الخطاب في كتاب الكامل: الخُطب أنموذجًا

(دراسة نصيّة تداوليّة)

إعداد

مروة خليل سعيد المشني

إشراف

الأستاذ الدكتور مهدي أسعد عرار

ملخّص

إنّ مبحثَ تحليل الخطاب عامّة، والوقوف على نصيّته وتداوليّته خاصّة، لَمن الموضوعات اللسانيّة الحديثة التي تسبر غور النصّ، وتقف عند دِلالات ومفاصلَ مهمّةٍ في استنباط مقولات الخطاب ومقاصد رسومه.

والحقّ أن الباحثة لم تقف على دراسة سابقة أتت على هذا الموضوع "الكامل" تفصيلا أو تعميمًا، وهي إذ تعرّج على هذا المبحث اللساني فإنها تستعين بالأنظار اللسانيّة الحديثة في تحليل الخطاب، ومن ذلك النصّيّة وما اشتملت عليه من مقولات متعددة، وعناصرها المؤسسة، وكذلك الأنظار التداوليّة التي تعنى بدراسة الاستعمال الحقيقي للغة.

إذن إنما هي دراسة تجمعُ بين التنظير والتطبيق، وتحلّق بجناحين عريضين، أوّلهما تلمس العناصر النصيّة في مضمار قائم برأسه، ألا وهو الخطب الواردة في كتاب الكامل للمبرّد، وثانيهما تلمّس التحليل التداولي لهذه الخطب.

وترمي الباحثة إلى استشراف المقاصد المنطوقة والمسكوت عنها في الخُطبة معتمدة على منهج وصفي ابتداء، تحليلي انتهاء، لتظهر انسجام النص واتساقه من جهة، وتستشرف الملامح التداولية فيه، وتأسيسًا على ما تقدم ستنهض هذه الدراسة بتحليل الخطاب لغويًّا، ومعرفة الأبعاد التداولية والقصديّة، وسبر أغواره البرانيّة والجوانيّة في مقدمة هي مبتدأ القول في الدراسة، وقد قامتِ الباحثةُ بالتعريف بها، والحديث عن خطة البحث، وأهدافه، وأهميته،

والدراسات السابقة، وتفاصيل أخرى، ويتلوها تمهيدٌ يتحدث عن سيرة المبرِّد، وكتابه "الكامل"، وعن الخطب حديث مقتضِبٍ موجِز، ثم يأتي الحديثُ عن فصولِ البحث، وهي ثلاثة، ضمّ الأول منها شرحًا وإبانة عن مفاتيح الدراسة، وضم الثاني دراسة تطبيقية، استشرافًا لوسائل الاتساق والانسجام النصيّين في خطبتي الرسول محمد ﷺ، والحجّاج، اعتمادًا على معايير دي بوجراند ودريسلر، وأما الثالث فدراسة تطبيقيّة تداوليّة، تستشرف العَلاقة بين العلامات ومستعمليها، وتقوم على دراسة الأفعال الكلامية، والاستلزام الحواري، وبعد كل ذاك، يأتي منتهى القول في الدراسة متضمنا ستّ مقولات لأهم نتائجها، وما توصلت إليه من توصيات واقتراحات.

Discourse Analysis of Al-Kamel Book: Orations as a model

(A textual - pragmatic study)

By

Marwa Khalil Said Al-Mashni

Supervisor

Prof. Mahdi Asaad Arar

Abstract

The field of Discourse analysis, in general, as well as the observation of its textual pragmatically, in specific, is considered a modern linguistic topic that explores and comprehends what lies within the texts. It also points out important significations and pivots that contributes in deriving its quotes and purposes.

The researcher did not depend on a previous study that completely referred to this topic, whether generally or specifically. As a matter of fact, she used modern linguistic perspectives in analyzing oraions, such as textuality and its forming elements, as well as pragmatic perspective that tackle the actual real use of language.

Therefore, this is a study that combines theories with applications. It first separately discusses the textual elements, which are the orations in Al-Kamel Book by Al-Mubarrid. Then it proceeds towards the pragmatic analysis of those orations.

The aim of the researcher lies within seeking the spoken and unexpressed intentions of an oration. In order to do so, she used a qualitative research methodology in the beginning, and analytical one at the end. The purpose of using those methodologies is to show the cohesion and coherence of the text on one hand, and to observe its pragmatic features on the other hand. Accordingly, in the introduction of this study, the researcher will linguistically analyze this oration, cognize its pragmatic and intended dimensions, as well as comprehend its internal and external contexts. Furthermore, the researcher will define the oration, introduce the research plan, its objectives and importance, literature review as well as other details. In addition, she will provide an introduction about al-Mubarrid, his book “Al-Kamel”, as well as a brief summary about orations. After that, the research will be divided into three chapters: the first will discuss the key study. The second will include an applied study as an observation regarding the cohesion and coherence between the scripts of prophet Muhammad (SAAWS) and Al-Hajjaj orations, according to de Beaugrande and Dressler standards. The third is an applied pragmatic study that observes the relation between signs and those who use them. It also involves the study of speech act, as well as conversational implicature. Finally, the study concludes with six main points that include its main results, recommendations and suggestions.

المُقدّمة

مُبْتَدَأُ القولِ

"وبالله نستعين"

الحمدُ للهِ حمدًا يليق بصاحب النور الأسمى، والمسمى الأعظم، الذي بيده ملكوت كل شيء في الأرض والسماء، سبحانه وتعالى، عظيم السلطان، وعظيم المنن، وصلّ وسلم وبارك على خير البرية سيدنا محمد بن عبد الله صلاة ننال بها شفاعته يوم العرض عليك، وعلى آله وصحبه مطالع النور السّنيّ، والمزايا الحسنة، والألسن الصادقة المولعة بذكر الله ذكرا كثيرا.

وبعدُ، فإنَّ اللغة قد نَعمت بمنزلة سَمَت عند أرباب الفصاحة، وعلماء اللغة والباحثين مُذْ مَدْرجِها حتى الآنَ، فبذلوا الجهد في البحث والتنقيب عنها في بطون الكتب، مستخرجين جواهرها النفيسة المرفّلة في ثياب الجلال والجمال؛ ليشبعوا المكتبات مصادر ومراجع قيمة، ويزودوا القارئ بمعلومات وحقائق وأخبار قابلة للنقاش والتفكير، تضاف إلى الإرث اللغوي المتوارث عن الأولِ.

فثم اشتراك ماثل في كل اللغات، وجِمَاع على أن اللغة تشكل حلقة وصل واتصال بين أبناء البيئة الواحدة، فكان من أحدث الدراسات اللغوية التي لقيت العناية والاهتمام تحليل الخطاب الذي يُتبادل بين المتكلم والمتلقي، وتعود إرهاصاته الأولى بشكل غير واضح إلى الباحثة الأمريكية I.Nye في رسالتها الدكتوراه التي أشارت فيها إلى النص، ومدى حاجته إلى أبحاث تسد فيه الثغرات، وتخرجه من فوهة الجملة الضيقة إلى فوهة أوسع وأشمل بالنظر إلى السياق الكلي الذي يشمل مناحي النص.

وبقيت تلكم الإشارات في الأبحاث حتى رسم معالم تحليل الخطاب اللساني السلوكي الوصفي زيليغ هاريس[١] الذي قدم في إحدى دراساته البحثية تحليلا منهجيا كاملا لنصوص

---

[١] انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، ط١، الشركة المصرية العالمية للنشر–لونجمان، القاهرة، ١٩٩٧م، ١٩.

منطوقة وأخرى مكتوبة[١]، اقتصرها على دراسة العلاقات التوزيعية السابقة واللاحقة بين الجملة الواحدة، مع الجمع بين اللغة والموقف الاجتماعي[٢] حتى يصل إلى تحليل وصفي لبنية النص، لفت فيه أنظار اللغويين والباحثين، فتحولت اهتماماتهم من نحو الجملة إلى نحو النص، وتحليله بعدّه وحدة واحدة، فبدأ ينشأ ما يسمى باللسانيات النصية، أو نحو النص، أو لسانيات النص في منتصف الستينيات[٣].

تخلّقت اللسانيات النصية من النص ذاته، وولت اهتمامها شطره، واعتنت به أيّما اعتناء، ولما كان ذلك كذلك، ارتقت به إلى معارج الدراسات البحثيّة، فاختارت له الأفضل والأشمل لتحليل بنيته المتعالقة مع المستويات اللغوية، فشيِّدَ بناؤها؛ أعني اللسانيات النصية، بنحو النص ومعاييره، بما يلائم تعالق الألفاظ وإحسان صياغتها بجودة سبك وحسن ترتيب، وما إن تنبهت للنصية ذات المعايير الكاشفة والمبينة عن تشابك النص وتلاحمه، صرف اللسانيون وقتهم في البحث عنها، فوقفوا على خصائصها وميزاتها، ووصلوا إلى أهم معاييرها التي يتعالق فيه الكلم بعضه مع بعض، ومن أهم هذه المعايير النصية التي توصلوا إليها الاتساق والانسجام، اللذان ستوليهما الباحثة شطرا من هذه الدراسة التي تحلّق فيها بجناحين، أولهما النصية، وثانيهما التداولية، فالقطب الأول؛ أعني اللسانيات النصية، فقد جُلّي عنه النقاب آنفا، وهذا أوان الشروع بالحديث عن القطب الثاني لهذه الدراسة، وهو اللسانيات التداولية.

وأما اللسانيات التداولية ذات الصبغة البراجماتية فترتكز إلى مفاهيم أربعة: الإشاريات، والافتراض المسبق، والاستلزام الحواري، ونظرية أفعال الكلام، إضافة إلى اهتمامها بالسياق والقصدية وغيرها، فقد ظهرت معالمها حينما وجه اللغويون عنايتهم نحو قطبي الخطاب: المتكلم والمتلقي، أداتي تعريف الباحث والقارئ بمرامي الكلام ومسعاه الخطابي.

وبهذا السعي التي لجأت إليه التداولية تكون قد أوسعت مجرى البحث في اللسانيات، متجاوزة الدراسات البنيوية والتوليدية إلى دراسة اللغة حال استعمالها في سياق كلامي تواصلي، ودراسة كيفية إنجاز الأفعال الكلامية بتلمس مواضع القول المحكيّ، فضلا عن مواجهتها

---

[١] انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص،١٨-٢٠، وجميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م، ٦٥-٦٦.

[٢] انظر: جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ٦٦.

[٣] انظر الفصل الأول من البحث، وجميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية، واللسانيات النصية، ٦٦.

لمعضلات التواصل بحلول مباشرة وغير مباشرة تعالجها بأسسها ودعائمها المتأصلة فيها، فيستفيد منها المتكلم لتوصيل مقصده الخطابي والمتلقي في فهم الخطاب، ومحلل الخطاب في تحليله.

ويعد كتاب الكامل عينا من عيون التراث العربي التي لا يستغنى عنها كدرس للتراث العربي أخذا ودرسًا، تحليلا وتمثيلا، فالمبرد علامة عصره، وله مصنفات عدة، تشهد بثقافته وعلمه الغزير، وانتقائه الممتاز به عن غيره من انتقاءات لنصوص نثرية جمعها في كتابه، حتى غدا الكتاب قبلة لطلبة العلم يَرِدون عليه قرأةً وبحثةً ومنتفعين بما جاد عليهم المبرد من نفائس وعيونٍ قيلت على مرّ العصور.

والحق أن الخطب ما زالت الوسيلة الأساس في خطاب فئات عامة، وأخرى خاصة، وإثارة حماستهم، ومخاطبة إحساسهم، لما تحمله من خصائص وميزات أهمها الإقناع والتأثير، واسترعاء الانتباه بما يتوافق مع طبيعة المتلقي واحتياجاته، وهذا أمر جِدُّ عظيم أن يظفر به الخطيب، ويتمكن من معرفة طبائع الخلائق، فلا يكلمهم إلا فيما يعرفون، فيكون في أتم المعرفة بنواميسهم ومشاربهم التي تقوي عملية الاتصال والتواصل، وتصل بالخطيب إلى غايته، ليحقق النجاح، وإلا فلن يكون له ما يريد[1].

ولهذا كان عنوان البحث: (تحليل الخطاب في كتاب الكامل: الخُطب أنموذجًا _ دراسة نصيّة تداوليّة)، لتسليط الضوء على بعض الخطب المنتقاة وقائليها، ودراستها دراسة تطبيقية في ضوء المنهج اللساني الحديث، واستشراف الأنظار النصية والتداولية خاصة، فكانت الدراسة تجمع بين النظري والتطبيقي، حمّالة لنفائس الخطب التي اختارها المبرد من خيرة الخطب الفصيحة البليغة.

إن الخطب الواردة في "الكامل" عددها خمس وعشرون، وقع اختيار الباحثة على مقتطفات منها، بلغ اثنتي عشرة خطبة، أخذت منها النصية حقّها بخطبتين واحدة للرسول الأكرم صلوات الله عليه والأخرى للحجاج، والتداولية بمبحثها الأول "أفعال الكلام" كان لها خمس خطب، وبمبحثها الثاني الاستلزام الحواري فنصيبه خمس خطب أيضا، والخطب المختارة في هذه الدراسة متنوعة على اختلاف العصور؛ لأن الخطب الواردة في الكتاب مأخوذة من

---

[1] انظر: محمد أبو زهرة، الخَطَابة: أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العَرب، ط١، مكتبة العلوم، القاهرة، ١٩٣٤م، ٣-٦.

العصور الثلاثة: الإسلامي، والأموي، والعباسي، فأخذت الباحثة من كل عصر ما تيسر لها من خطب، والخطب الموجودة في النصية تختلف عن التداولية في معرض التحليل التطبيقي؛ لتسهل على المقبلين على مثل هذه الدراسات المقارنة بين النصية والتداولية والوقوف على أوجه الشبه والاختلاف، ولتكون لهذه الدراسة استمرارًا في الربط بين الدراستين، والنهوض بتحليل نصي تداولي يعالج الخطبة نفسها.

وقد صدرت تلكم الخطب عن فصحاء وبلغاء تملكوا ناصية اللغة، وشهد لهم وعليهم بأنهم من أرباب فن القول، صاغوا ما صاغوه والكلام ينثال عليهم انتثالا، فتارَة يكون مقصدهم معيّنا على وجه الإحكام، وتارة يكون حمالا لدلالات على وجه الإبهام.

ولم يكن من غرض الباحثة الخوض في صحة نسبة الخطب إلى قائلها، لأنها تتعامل مع النص وليس مع الشخص، فقد تكون بعض الخطب المنتسبة للمضمار التطبيقي مما يعاد النظر إلى قائله مثل خطبة أبي طالب في تزويج الرسول ﷺ، وغيرها من الخطب.

وللبحث أهمية تتجلى في كونه دراسةً لسانيةً تجمعُ بين التنظير والتطبيق، فمبتدؤه الوقوف على نظريات لسانية حديثة أهمّها النصيّة والتداولية، وختامه الدراسة التطبيقية القائمة على عينة لغوية من الخطب المختارة المجموعة في كتاب الكامل للمبرد.

والذي تؤمله الباحثة أن تضيف جديدًا في تحليل الخطاب لسانيًّا ومعرفيًّا؛ إذ إنها تبحث في ظواهر تركيبية ومعجمية لتقف من بعد على دلالات هذه الظواهر ومقاصد منشئ هذه الخطابات، وما تلاها من ردود ونزاع قد يكون الخطاب أداته وميدانه في آن واحد، فأن يكون الخطاب أداة للتعبير عن الخلاف والاختلاف هو المعروف من وجهة وظيفية، ولكن أن يكون الخطاب هو موضع الخلاف والاختلاف فذاك أنكى وأشد.

ولا ينسى أن في تحليل هذا الخطاب، في المضمار الذي ارتضته الباحثة، دراسةً اجتماعيةً لشبكة العلاقات بين فئات مجتمع هذا الخطاب، وللبحث بواعث أدت إلى اختياره، منها:

- قلة الأبحاث التي أتت على تحليل الخطاب في كتب التراث العربي من وجهةٍ نصية تداولية.
- تسليطُ الأضواءِ على ما اختاره المبرد من أفانين الخَطابة.

- معرفة مكامن اللَّبس التي تؤدي أحيانا إلى نجاح الوصول إلى مقصد المتكلم، أو فشل ذلك.
- تجلية التأثيرات التي تؤديها الخطابات في المتلقي.

وللبحث أهداف أجلاها: تحليل الخطاب في مختارات من خطب الكامل وَفقا لمقولات تحليل الخطاب في الدرس اللساني الحديث، والوقوف على ظاهرتي الاتساق والانسجام من وُجهة لغوية، وبيان عناصر الاتساق النصي والانسجام ومدى تجليهما في الخطبِ، والوقوف على طبيعة العلاقة بين صاحب الخطبة والمتلقي لخطاباتِه، ودراسة اللغة باعتبارها ظاهرة تواصلية اجتماعية، ودراسة استعمال اللغة في الخطاب في ضوء نظرية الأفعال الكلامية، وتحليل الخطاب في الخطب مكتوبا على محور المستويات اللغوية، وإبراز الأساليب الخطابية في نصوص الخطبِ، والإبانة عن الاستلزام الحواري والأفعال الكلامية التي تظهر في بنية النص، وتوضيح أبرز الآليات التداولية المستعملة في النص، والإبانة عن درجة الوضوح التركيبي والمعجمي في نصوص الخطب المختارة.

وللبحث فرضيات أولية وضعتها الباحثة للكشف عن مدى تحققها عند كتابة الخاتمة والفروع من البحث، وهي:

- تشترك مجالات تحليل الخطاب مع بعضها لتفسير النص وتأويله، ومنها: النصية والتداولية وعناصرهما.
- ثمة علاقة تجمع بين النصية والتداولية من منحى لساني بحت.
- تتوافر عناصر كافية في الخطب الواردة في كتاب الكامل يمكن دراستها دراسة نصية تداولية.
- تحليل الخطاب نصيّا أو تداوليّا يكشف عن المقاصد المنطوقة والمسكوت عنها في تلكم الخُطب.
- تُسهِم قوة الخطاب أو ضعفه في القدرة على إقناع المتلقي.
- توافر المعايير النصية في أنظار دي بوجراند ودريسلر في الخطب الواردة في الكامل.

ولم تقف الباحثة على مصادر أو مراجع تناولت مضمار هذا البحث تناولا مباشرا، وما كانت الأبحاث التي اطلعت عليها الباحثة من أبحاث عن المبرد سوى قراءات نقدية لمنهجه وأسلوبه وجهوده في تأليف الكتاب، ومسائل بلاغية تناولت جزيئات منه في الدراسة كالتشبيه

والمجاز اللغوي والكناية، وقضايا نحوية وصوتية وغيرها، وهناك رسالة ماجستير ذات نسبٍ حميم بدراسة الباحثة من بين تلكم البحوث التي كتبت في هذا المضمار، وهي لعثمان أبو زنيد عنوانها: (نحو النص: دراسة تطبيقية على خطب عمر بن الخطاب ووصاياه ورسائله للولاة)، كتبها سنة ألفين وأربع، في الجامعة الأردنية، وظف فيها تقنيات نحو النص ووسائله على خطب عمر بن الخطاب ووصاياه ورسائله للولاة، فبحثت فيما يحقق نصية النص، وأجملت الحديث عن آليات الاتساق والانسجام الواقعين في خطبه ووصاياه ورسائله، ولم تتناول الجانب التداولي فيها.

وهذه مجموعة من الكتب التي عرّجت على الخطاب والنصية والتداولية أفادت منها الباحثة بعد الكتاب الرئيس وهو "الكامل"، وهي:

- محمد خطابي، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١م.
- سعيد بحيري، علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، ط١، الشركة المصرية العالمية للنشر–لونجمان، القاهرة، ١٩٩٧م.
- محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ط١، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٢م.
- علي محمود الصراف، في البراجماتية: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، دراسة دلالية ومعجم سياقي، ط١، مكتبة الآداب، جامعة الكويت، ٢٠١٠م.
- سارة ميلز، الخطاب، ترجمة عبد الوهاب علوب، ط١، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٦م.

اقتضى مسار البحث الذي يدور عليه، وفي جَعبته محاور ومضمونات أن يقوم على تمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة تشتمل على أهم النتائج التي توصلت إليها الباحثة، ومن الجدير بالذكر أن الفصول الثلاثة متفاوتة في الطول بقدر ما تطلبته المادّة في كل مبحث، وما استدعته الضرورة أن يمد أوصاله أكثر من غيره من الفصول لتصبح الصورة أوضح وأقرب للإفهام.

وكان التقسيم على النحو الآتي:

- التمهيد: يقدم كلاما مقتضبا عن سيرة المبرد ونبذة عن كتاب الكامل ومنهجه المتبع فيه، وتعريفًا تقديميًّا بالخطب.
- الفصل الأول: تحليل الخطاب لغة واصطلاحًا ونشأة وفروعًا، ويتكون من خمسة مباحث: أولها الخطاب، وثانيها تحليل الخطاب، وثالثها النص والنصيّة، ورابعها نحو النص، وخامسها التداولية.
- الفصل الثاني: آليات التماسك النصي في خطب الكامل: دراسة تطبيقية نصية، ويجتمع فيه مبحثان، هما: خطبة الرسول محمد ﷺ، وخطبة الحجاج.
- الفصل الثالث: استشراف الأبعاد التداولية في خطب الكامل: دراسة تطبيقيّة تداوليّة، واشتمل على مبحثين، هما: نظرية الأفعال الكلامية، والاستلزام الحواري.

ويتردد هذا البحث بين منهجين: الوصفي والتحليلي؛ إذ تبدأ الباحثة بالوصف، وتعرِّج على مقولات تحليل الخطاب وعناصره والتداولية وأبعادها وعناصرها وما يتعلق بها، وكل هذا يعتمد على منهج وصفي سبقها فيه آخرون في شرق وغرب.

أما الثاني ففيه تعتمد الباحثة على منهج تحليلي آنَ دراسة هذه الخطب دراسة تحليلية قائمة على استشراف النصيَّة والتداوليَّة والإبانة عنهما.

وقبل أن تشرف المقدمة على وصول نقطة النّهاية في هذا المبتدأ، إخال أن الدراسة حققت الأهداف والغايات المرجو تحقيقها بعد هذا الجهد المبذول، بعد قطع هذا الشوط من البحث والتنقيب والتنقير في بطون الكتب لفهم الدراسة وما يحيطها من معالم وخصائص، وفي بادئ قطع الخطوات الأولى من هذا الشوط اعترض طريقَ الباحثةِ شيءٌ من الغموض وعدم الإيضاح حتى تجلى في ثوب من البياض بعد قطع مسافات من القراءة التأملية التدبرية، وتوجيه وشرح وإبانة وتبيين من المشرف على هذه الرسالة، ما كان ذلك كذلك إلا لأن مصادر البحث ومراجعه تلتقي مرة في دلالة مفهوم مفاتح الدراسة، وتفترق أخرى حسب تعريبها وإسقاط الباحث عليها شيئا من تخصصه كعلم نفس أو علم اجتماع أو غيرها من العلوم التي يقوم بإسقاطها على دلالة المفهوم، غير أنّ الباحثة لم تتطرق لتحليل الخطاب ولتينك المباحثتين التعريفيتين به خلال مسيرتها التعليمية، إلا بلمحات عاجلة وسريعة تلقى بعجالة من أمرها عن النصية ومعاييرها، ووقفات وجاه الخطاب وتحليله، نلت التعرف عليهما من محاضرات "البيان القرآني" مع أستاذي العالِم الجليل "مهدي أسعد عرار"، وكم تفتقت منها شذرات استرعت الانتباه،

ولاحت ومضات في الفكر لا تفتأ تلازم موضعها في الذهن، علّ الأيام كفيلة بالبحث عنها، وكانت منها هذه الدراسة عندما كنت أقرأ كتابا في التداولية، عاقدة العزم على التعرف عليها، عسى أن تكون دراستي التي لم تكن إلا محض فكرة حتى أوقفني أستاذي _ حفظه الله_ والكتاب بيدي وأشار علي بها، مشجعي على دراستها هي والنصية، وقد وضعني على عتباتهما، فأضاء لي الطريق، وأنار ببصيرته وجهتي، وبعدها وقع الاختيار على عين من عيون التراث العربي، على "الكامل"، بَلْ على باب نفيس منه، هو الخطب.

في الختام، أرجو العلي القدير، السميع العليم، ذا الطَّوْلِ، أني وفقت في وضع لمسة إضافية على الأبحاث السابقة، وقدمت شيئا يفيد القرأة والبحثة، ويكون بداية لتتمة عمل أوسع وأشمل في تحليل الخطاب في كتاب الكامل، وإن لم أصب فيما رجوته، فما أنا إلا بشر يخطئ ويصيب، فالحمد لله حمدًا كثيرًا يليق بجلال وجهه، وعظيم سلطانه، فبيده الحول والقوة، والفضل والمنة، وهو الكامل، والكمال له وحدَه، نعم المَولى ونعم المُعين.

الباحثة

ضحوة الخميس

{٨ محرّم سنة ١٤٤٢هـ}

{٢٧ آب سنة ٢٠٢٠}

التمهيد

قدّم الدارسون أبحاثا عن المبرد وكتابه الكامل[1] بما لا يستدعي من الباحثة إعادة ما قاموا به من البحث؛ فلو وددت الوقوف عليها كلها ما انتهيت، فالمبرد علامة عصره، ومعجم في اللغة والأدب يشار إليه بالبنان، وكتاب الكامل موسوعة ثقافية واسعة المعالم، تضمّ كنوزا أدبية ولغوية في بواطنها، تلفت الانتباه، وتتطلب الإصغاء، وتعود بالنفع الكثير على طالب العلم، فتستحق إضاءة السراج عليها وعلى مؤلفها.

ويتبعهما تعريف تقديمي عن فن الخطابة، هذه الخطب التي كانت محورًا من محاور الحكم على ثقافة الشخص قديما، وكان صاحبها يتباهى بطلاقة لسانه، وقدرته على نظم نص الخطبة وفقًا للهدف المراد في نفس صاحبه، ترتفع حدته وتنخفض حسب السياق[2] وما يقتضيه المقام من منشئ الخطاب، مراعيا فيه حالة المتلقي وما يحتاجه من مواضيع مختلفة بشتى أنواعها، الدينية والسياسية والاجتماعية وغيرها، تصب باهتمام المتلقي، وترمي للتأثير في نفسه تأثيرا يجد صداه عنده، مما يجعل الخطاب ناجحا في إيصال رسالته أثناء التواصل والاتصال بين طرفي الخطاب، بلغة بليغة قريبة من المتلقي وما ران عليه إلفهم في سماعه من تداولية الخطاب، وخطاب التداولية.

---

(1) من بين هذه الأبحاث والدراسات التي تناولت السيرة الذاتية للمبرد: إبراهيم علي أبو عيطة، المبرد، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المدينة، ع٣، ١٩٧٣م، ١٧١-١٩٠، وممن تناولوا الحديث عن الكتاب وتبويبه: إبراهيم الإبياري، الكامل للمبرد، تراث الإنسانية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مج٣، ع١، ١٩٦٥م، ١١-١٨.

(2) السياق مأخوذ من مادة (سوق)، كأن الإبل تسوق بعضها بعضًا؛ أي بمعنى المتابعة، انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "سوق"، وقد ذكرها القدماء بمعنى مقتضى الحال، والمقام وغيرها؛ انظر: السكّاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر (٦٢٦هـ)، مفتاح العلوم، ضبط وتعليق نعيم زرزور، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ١٦٨-١٦٩، ٢٥٦، ٢٧٦-٢٨٤.

المُبَرِّد[1]

محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثُّمالي[2]، أبو العباس، ولد في البصرة يوم الاثنين من ذي الحجة سنة ست ومئتين، وقيل عشر ومئتين، ونسبه يرجع لقبيلة أزد شنوءة، ونسله من ثمالة، ولقَبه المبرِّد، وعندما سئل عن لقبه قال: إن صاحب الشرطة طلبه للمنادمة والمذاكرة، وكره الذهاب إليه، فدخل عند أبي الحاتم السِّجِسْتاني[3] وخبأه في غلاف المُزَمَّلَة حتى ذهبوا، فنادى المبرد المبرد، وقد تسامعه الناس ولهجوا به، وقيل جاء الاسم من المازني عندما سأل المبرد عن سؤال استعصى عليه، فرد عليه بأدق جواب، فقال له: أنت المبرد، المثبت للحق،

---

(١) انظر: السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله (٣٦٨هـ)، أخبار النحويين البصريين، تحقيق طه الزيني ومحمد خفاجي، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٩٥٥م، ٧٢-٨١، الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (٤٦٣هـ)، تأريخ مدينة السلام، وأخبار مُحَدّثيها وذكر قُطّانِها العلماء من غير أهلِها وَوَارِدِيها، تحقيق وضبط وتعليق بشار معروف، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠١م، ٦٠٣/٤-٦١١، ابن الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد (٥٧٧هـ)، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق إبراهيم السامرائي، ط٣، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٩٨٥م، ١٦٤-١٧٣، ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (٥٩٧هـ)، كشف النقاب عن الأسماء والألقاب، تحقيق عبد العزيز الصاعدي، ط١، مكتبة دار السلام، القاهرة، ١٩٩٣م، ٣٩١/١-٣٩٢، القِفْطِيّ، أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف (٦٤٦هـ)، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٦م، ٢٤١/٣-٢٥٣، ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢م، ٣١٣/٤-٣٢٢، ابن كثير، أبو الفداء محمد بن إسماعيل (٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، تحقيق وإخراج وتعليق محمد حسان عبيد، مراجعة عبد القادر الأرناؤوط وبشار معروف، ط١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، ٢٠١٥م، ٩٢/١١، ابن تَغْرِي، أبو المحاسن جمال الدين (٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق فهيم شلتوت وآخرين، (د.ط)، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م، ١١٧/٣-١١٨، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ)، بُغيةُ الوُعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٥م، ٢٦٩/١-٢٧١.

(٢) نسبة إلى ثمالة واسمه عوف بن أسلم، وجاء اسمهم هذا بعد أن شهدوا حربا وأفني أكثرهم فيها، ولم يتبق إلا النزر القليل، فنعتوا بالثمالة؛ انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣٢٠/٤.

(٣) هو سهل بن محمد الجُشَميّ، ينسب إلى إحدى قبائل جُشَم، نحويّ لغوي، عالم أهل البصرة باللغة والشعر، مات سنة خمس وخمسين ومئتين في البصرة، ومن كتبه: "إعراب القرآن"، و"الأضداد"، و"الفصاحة"، وغيرها الكثير؛ انظر: السيرافي، أخبار النحويين، ٧٠-٧٢، وابن خلكان، وفيات الأعيان، ٤٣٠/٢-٤٣٣، والقفطي، إنباه الرواة، ٥٨/٢-٦٢.

ولقبه أستاذه بهذا اللقب لما رأى أن إجابته تشفي الصدر وتبرد على قلب صاحبها، وهناك روايات أخرى[١] وكانت تلك أشهرها، وقضية فتح راء اللقب أو كسرها أعيت العلماء رَدْحا من الزمن، يبحثون عن صحة نطقها السليم، وتعددت الروايات، ولم يثبتوا على إحداها، ولكن ورد عن المبرد أنه قالها بكسر الراء، فكان يقول: "بَرّد الله من برّدني"[٢] ، ويكره فتحها.

كان فصيح اللسان، ظاهر البيان، لطيف المجالسة، حلو المخاطبة، كثير النوادر، حاضر الذهن، حافظا متقنا، ثقة فيما ينقله، إماما في اللغة والنحو الذي حصّله من الجَرميّ[٣] والمازنيّ[٤] والسجستاني[٥] وغيرهم، وملجما الأفواهَ بالحُجّة الدامغة، والدليل الواضح الشافي للصدور، ومقدّما عند الوزراء والأمراء، "وكان المبرد يحب الاجتماع في المناظرة بثعلب[٦] والاستكثار منه، وكان ثعلب يكره ذلك ويمتنع منه، وحكى أبو القاسم جعفر بن محمد... وكان صديقهما، قال: قلت لأبي عبد الله الدينوري خِتن ثعلب: لِمَ يأبى ثعلب الاجتماع بالمبرد؟ فقال: لأن المبرد حسن العبارة، حلو الإشارة، فصيح اللسان، ظاهر البيان، وثعلب مذهبه مذهب

---

[١] انظر في الروايات الأخرى عن اللقب والنقد الذي وجهه الطاهر مكي عليها، وما ارتضاه من تفسيرات له: الطاهر أحمد مكي، دراسة في مصادر الأدب، ط٨، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩م، ٢١٦-٢١٧.

[٢] الزَّبيدِي، أبو الفيض محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد الستار فراج، (د.ط)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٦٥م، ٨٨/١.

[٣] هو صالح بن إسحاق أبو عُمَر، من قبائل جَرْم اليمنية، نحوي بصري، عالم باللغة والنحو، أخذ النحو عن الأخفش وغيره، كان ذا وَرَع وإخاء، يتصدق يوميا بدينار ويختم أسبوعيا القرآن، ومن مؤلفاته كتاب "الفرخ" ومعناه فرخ كتاب سيبويه، توفي سنة خمس وعشرين ومئتين، انظر: السيرافي، أخبار النحويين، ٥٥-٥٦، وابن خلكان، وفيات الأعيان، ٤٨٥/٢.

[٤] هو بكر بن محمد أبو عثمان، إمام أهل البصرة في النحو والآداب، ومن مصنفاته: كتاب "الألف واللام"، و"التصريف"، و"الديباج"، وقد اختلف في سنة وفاته فقيل إنه توفي في سنة تسع وأربعين ومئتين، وقيل: ثمان وأربعين ومئتين، وقيل: ست وثلاثين ومئتين بالبصرة؛ انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢٨٣/١-٢٨٦، ولمزيد بسط القول عنه انظر: السيرافي، أخبار النحويين، ٥٧-٦٥.

[٥] سبقت ترجمته.

[٦] هو أحمد بن يحيى بن زيد أبو العباس الشيباني، المعروف بثعلب، ولد سنة مئتين، ومات سنة إحدى وتسعين ومئتين في بغداد، إمام الكوفيين في اللغة والنحو، أتقنهم حفظا، وأرفعهم قدرا، وأوفرهم حظا من العلم؛ انظر: ابن الأنباري، نزهة الألباء، ١٧٣-١٧٦، والقفطي، إنباه الرواة، ١٧٣/١-١٧٩، ولمزيد بسط القول عنه انظر ترجمته في مقدمة كتاب: ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى (٢٩١هـ)، مجالس ثعلب، شرح وتحقيق عبد السلام هارون، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠م، ١/ ٩-٢١

المعلمين، فإذا اجتمعا في محفل حكم للمبرد على الظاهر إلى أن يعرف الباطن"[١]، فضلا عما ذكر عنه في مجالسته المجانين والمعالجين لأن لهم طرائف من الكلام، يحبّ سماعها منهم[٢].

وللمبرد مصنفات عديدة، انتشرت في الآفاق ذكرها، منها: كتاب "الكامل"، وكتاب "المقتضَب"، وكتاب "الروضة"، وكتاب "القوافي"، وكتاب "إعراب القرآن"، وكتاب "الرياض المونقة"، وكتاب "طبقات النحويين وأخبارهم"، وغيرها الكثير.

وقد دفن ببغداد في مقابر الكوفة يوم الاثنين سنة خمس وثمانين ومئتين من ذي الحجة، عن عمر يناهز التسع والسبعين.

كتاب الكامل

من أشهر الكتب التي ذاع صيتها للمبرد هي الكاملُ، الذي يعدّ من أمات كتب العربية المعوّل عليها في الكثير من القضايا اللغوية والأدبية، وبالإضافة إلى أنه مصدر تاريخي يوثق الخلاف الذي تأجج بين علي ومعاوية، بتضمينه الخطب والرسائل والمنافرات والقصص والشعر المعبّرة عن هذا الموقف، ويطنب في حديثه عن الخوارج لكثرة أخبارهم، ويخصهم بالذكر عن سائر الفرق الأخرى، فكان كتابه سجلا لأحداثهم ووقائعهم، ولم يقف عند هذه المواقف، بل عرّج في ثنْيِ كتابه على ألوان من اللغة، منها الاشتقاق والصرف والدلالة والنحو، فيعترض للكلام المختار، وينهض لتوضيح القضايا اللغوية فيه، وما أشكل على الفهم، مفسرا إياها، معربا كلماتها، محللا جملها، دون التعرض لمناحي الجمال فيها؛ لهذا كان حظ النقد من كتابه ذا نزر ومحدودية[٣]، وفي الكتاب إشارات موجزة إلى الشعراء العباسيين المحدَثين الذي عاصرهم، كشعر بشار بن برد، وأبي نواس، وغيرهما[٤].

واشتقتِ الباحثة نصوص الخطبة من كتاب الكامل الذي حققه وعلق عليه الدكتور محمد أحمد الدّالِي الواقع في ثلاثة أجزاء مع جزء رابع مخصص للفهارس، واعتمد جلّ اعتماده في

---

[١] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٣١٤/٤.

[٢] لمزيد بسط القول عن صفاته وشعره، انظر: القفطي، إنباه الرواة، ٢٤٩/٣، وابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣٢٠/٤-٣٢١.

[٣] انظر: الطاهر مكي، دراسة في مصادر الأدب، ٢٢١، ٢٢٤-٢٢٥، ٢٢٧، ٢٢٩.

[٤] انظر: الطاهر مكي، دراسة في مصادر الأدب، ٢٣١.

التحقيق على نسخة الشيخ أبي حيان الأندلسي[١]، وتوجهت الباحثة في شرح نصوص الخطب إلى عدد من كتب اللغة والأدب والأنساب وغيرها، استقت منها ما اقتضاه الشرح منها، وكشفت اللثام عن غميضات المعاني من خلالها، ومن هذه الكتب المعتمدة الكتاب المشهور "رغبة الآمل من كتاب الكامل"[٢].

وقد تعرض المبرد في كتابه لمسائل من البلاغة، ولقراءات قرآنية، مبديا الرأي فيها، مرجحا ما يستحق، ومضعفا ما يراه دون الاستحقاق، حتى غدا كتابه منبعا لطلاب العلم، لنصوصه التي اختارها اختيار المدقق المتأني، وهو الذي جمع فيه بين الدراسة النظرية والدراسة التطبيقية، فراوحت بينهما مجلية لذاكرته الحافظة، وعلمه الغزير[٣].

وفيه يقول أهل المغرب: "من لم يقرأ الكاملَ فليسَ بكاملٍ"[٤]، فكان أجلها كمالا، وأكثرها نفعا، أظهر ثقافة المبرد بعلوم اللغة، وأظهر منهجه الذي ارتضاه في مقدمة كتابه، يقول: "هذا كتابٌ ألَّفناه يَجمَعُ ضُرُوبًا من الآداب، ما بينَ كلامٍ منثورٍ، وشِعرٍ مرصوف، ومثلٍ سائرٍ، وموعظةٍ بالغةٍ، واختيارٍ من خُطبةٍ شريفةٍ، ورسالةٍ بليغةٍ"[٥]، و"يميل إلى الاستطراد، وينتقل من قضية إلى أخرى لأدنى ملابسة، وتجاوز دَوْرُه في النصوص الأدبية الجمع والاختيار، إلى الشرح اللغوي، والتصويب النحوي، وتتبع دلالات اللفظ الواحد في وجوهها المختلفة، عند جمهرة الأدباء والشعراء"[٦].

---

[١] انظر مقدمة الطبعة الثانية لكتاب الكامل: المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل، تحقيق محمد الدّالي، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م، ١/٥.

[٢] صاحب الكتاب هو سيد علي المرصفي، ألقى شرحه لكتاب الكامل على طلبة الأزهر حينما اختاره محمد عبده للتدريس فيها، ثم قام بجمعها وتصنيفها بثمانية أجزاء، طبع للمرة الأولى خلال عامي ١٩٢٧ و١٩٣٠؛ انظر: الطاهر مكي، دراسة في مصادر الأدب، ٢٣٢-٢٣٣.

[٣] انظر: الطاهر مكي، دراسة في مصادر الأدب، ٢٢٩.

[٤] تاج الدين اليماني، عبد الباقي بن عبد المجيد (٧٤٣هـ)، إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، تحقيق عبد المجيد دياب، ط١، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٩٨٦م، ٣٤٣.

[٥] المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (٢٨٦هـ)، الكامل، تحقيق محمد الدّالي، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م، ١/١-٢.

[٦] الطاهر مكي، دراسة في مصادر الأدب، ٢٢٣.

والخطب في كتاب الكامل موزعة على جميع أجزاء الكتاب، لم يبثّها في موضع معين، ولم يجعل لها بابا يحدها وتنتظم به، فكان يتنقل من فكرة إلى أخرى في الباب الواحد استراحة للقارئ، ودفعا للملل عنه[١]، ولهذا السبب كان انتقاء الباحثة لخطب هذه المباحثات ليس بالأمر اليسير، متنقلة بين أجزاء الكتاب، وأبوابه المختلفة، حتى اهتدت إلى مجموعة من الخطب، مراعية في اختيارها أمورًا ثلاثة: أولها أن تكون من كل عصر مذكور، وثانيها طول النص وقصره، وثالثها توافر المعايير النصية والتداولية فيها، فانتهى الانتقاء بأخذ تلكم الأمور مسلكا يعمل به.

الخطب

يشار إلى الخطبة بلفظة أخرى، هي الخَطابة، وجهان لعُملة واحدة، يحملان المعنى ذاته؛ الكلام المنثور المحلّى بالسجع[٢]، ومنها الذي يخلو من السَّجْع، وهي صوت الهداية، وقطع الفتن وإيقاف الثورات، وصوت الخير والشر، أداتها الأولى اللسان الناطق بلفظ سليم، الجالب الخير لقائله، فجاعله قائدا بين الجموع، له الهيبة والسلطة، تكون العيون له ناظرة، والأسماع له صاغية، والنفوس طائعة، والأرواح حاضرة.

إنّ الخطبة جنس من أجناس الكلام المنظوم[٣]، تحتاج إلى جودة رصْف لوضع اللفظة في موضعها المناسب، وتضمها إلى شَكْلها، وتضيفها إلى لِفْقِها، وبحاجة أيضا إلى سبْك وحُسْن تأليف، وأكثرها يطلق على ما يختص بالموعظة [٤]، "وذهب أبو إسحق إلى أن الخطبة عند العرب: الكلام المنثور المسجّع، ونحوهُ... والخطبة، مثلُ الرسالة، التي لها أول وآخر"[٥]، و"بالضم هي عبارة عن كلام مشتمل على البسملة والحمدلة والثناء على الله تعالى بما هو

---

[١] انظر: المبرد، الكامل،١٨/١، ٨٨٨/٢.

[٢] انظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (٧١١هـ)، لسان العرب، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م، مادة "خطب".

[٣] وهم ثلاثة أجناس: رسائل، وخطب، وشعر.

[٤] انظر: العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (٣٩٥هـ)، كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٢م، ١٣٦، ١٦١، والأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، مراجعة وتقديم وائل أحمد عبد الرحمن، ط٣، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ٢٠١٣م، ١٥٧، مادة "خطب".

[٥] ابن منظور، اللسان، مادة "خطب".

أهله، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتكون في أول الكلام"[١]، ويضيف قائلا: و"خطبة المنابر تشتمل على ما ذكرنا مع اشتمالها على الوصية بالتقوى والوعظ والتذكير ونحو ذلك"[٢]، فالخطبة متنوعة في أهدافها، وأكثرها للموعظة والنصح والإرشاد، وقد تصلنا مكتوبة كخطبة الحجاج، أو نسمعها منطوقة، ويظهر على قائلها لغة الجسد وتقاسيم الوجه[٣]، فأصبح بمكنتنا القول إن محلل الخطاب المنطوق يختص بالأقوال، ومحلل الخطاب المكتوب يختص بتحليل الجمل، وعليه "إن الأقوال محكية والجمل مكتوبة" [٤]، فخطابات الحجاج _مثلا_ وثيقة رسمية تترجم ما يحمله من فكر على شكل رموز صوتية تتجلى للعيان بخطاب نصي مكتوب، يقوم محلل الخطاب بتناول ما يريده من تحليل لخطبة أو مجموعة من الخطب من عدة أوجه دراسية، ومنها النصية والتداولية.

ومنذ بدْء عصر الخطابة في اليونان حتى اليوم يتجه أصحاب النفوذ لتعلم الخطابة، والتدرب على فنون القول، وقواعد الإلقاء، وأساليب التأثير في متلقيها، وغيرها من الأمور التي يتوجب على الخطيب أن يأخذها بعين الاعتبار ليصبح خطيبا متمرسا في فن الخطابة، متقنا لها ولخفاياها التي تغيب عن الخطيب العادي[٥].

وإن أوج الخطابة عند العرب بلغ ذروته في العصر الإسلامي، فكان الرسول الأكرم ﷺ يتميز بفصاحة لسان وحسن بيان، وفي العصر الأموي كانت غذاءً مِنَ الثوراتِ والفتن التي استفحلت، واشتد نيرانها بين السلطة والشعب، وبرز في العصر العباسي الأول تعليم فتيانهم الخطابة[٦]، وبذلك يكون لها وزنها وقيمتها ومقدارها عند العرب لأهميتها البالغة التي تؤديها من بين ميزات مختلفة، من أهمها التأثير في الجمهور، وتلبية ما يطلبه الخطيب.

---

[١] التهانوي، محمد علي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف ومراجعة رفيق العجم، تحقيق علي دحروج، ط١، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٦، ٧٢٥/١.

[٢] التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ٧٢٥/١.

[٣] لمزيد بسط القول في اللغة المكتوبة والمنطوقة، انظر: محمد العبد، اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة: بحث في النظرية، ط١، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠، ١٥ وما بعدها.

[٤] ج.ب.براون وج.يول، تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي، ط١، مكتبة الملك فهد الوطنية، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٧م، ٢٤.

[٥] انظر: محمد أبو زهرة، الخَطَابة، ٣-٦.

[٦] انظر: محمد أبو زهرة، الخطابة، ٧-٨.

الفصل الأول: تحليل الخطاب لغة واصطلاحا ونشأة وفروعًا

- تمهيد

المبحث الأول: الخطاب

المبحث الثاني: تحليل الخطاب

المبحث الثالث: النص والنصية

المبحث الرابع: نحو النص

المبحث الخامس: التداولية

– التداولية نشأة ومفهوما

– الأبعاد التداولية

تمهيد

يشكل المصطلح المفتاح الأساس لأي علم من العلوم، فمصطلحات العلوم ثمارها القصوى، وتتميز باختلاف أشكالها وألوانها، ولعلَّ الميزة الرئيسة للمصطلحات اختلاف دلالتها معنى ومبنى، مما يتعين من الباحثة تناول المفهوم المصطلحي الوارد في مباحث دراستها؛ فبدايةُ معرفةِ كل علم مفهوما ومضمونا عَتَبَتُهُ التي يرسو عليها، المجلِّيةُ عن دلالاته المعرفية، والكامنة في جوانيته وبرانيته[١].

ويبقى حقل العلوم الإنسانية عامة، وحقل اللسانيات خاصة، أقل حظا من الدقة والضبط من العلوم الأخرى في تحديد ماهية مصطلحاته تحديدا يتفق عليه العلماء واللغويون والمفكرون، فالإجماع على مفهوم واحد للمصطلح من الندرة ما نجده في الحقل ذاك، فاختلاف التعريف من اختلاف التخصص الذي ينطلقون منه، مما يؤدي في نهاية المطاف لتشعب السبل، وعدم الوقوف على مفهوم معين يختص به المصطلح ذاته[٢].

وتجد الباحثة هذا الاختلاف يكتنف المفاهيم الأساسية، ومفاتيح الدراسة الدائرة في فَلَكِ اللسانيات الحديثة، فتتعدّد معاني المصطلحات، وتتباين بين باحث وغيره باعتبارها مستقية من علوم متنوعة، ومن روافد متشعبة، لما كان ذلك كذلك، اقتضى من الباحثة أن تعرج على الأقوال كما تداولت عند العرب والغرب، وتخرج بمفهوم شامل يشملها كلها، ينطلق من الجذر اللغوي، مرورا بالنشأة التاريخية له، حتى الوصول لأهدافه ومجالاته، وطبيعة سيره في الوقت الحالي.

وتقف الباحثة أمام فضاء من الدلالات ينتجها النص بطوله وقصره، يتجلى من خلال القارئ الضمني، ليعيد إنتاج النص ويكشف عن جوهره الداخلي والخارجي، فكلما همت الباحثة لقراءة نصوص الخطب المختارة تنتج دلالات وتفسيرات جديدة مع تعدد كل قراءة، وينغلق النص على ذاته حينما يعجز القارئ عن النفاذ فيه، ويظل رهين البنية السطحية[٣]، فإن لم

---

[١] انظر: عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات: عربي فرنسي فرنسي عربي مع مقدمة في علم المصطلح، (د.ط)، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، ١٩٨٤م، ١١.

[٢] انظر: ليندة قياس، لسانيات النص: النظرية والتطبيق–مقامات الهمذاني أنموذجا، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٩م، ١٤.

[٣] انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ١٦٧–١٦٨، ولمزيد بسط من القول عن فهم النص وإنتاجه من الكاتب والقارئ وعن انغلاقه وانفتاحه انظر المرجع نفسه، ١٦٢–١٩٠.

تستدركه يقظته لذاك، فلن يتذوق حلاوة ما يخفيه النص في داخله، وسيكتفي بنكهة خارجية خفيفة المذاق لعدم تفاعله الجيد مع النص.

إن الخطاب جسر تواصل بين الإنسان ومجتمعه[١]، يكوّن علاقة اتصال بين المخاطِب والمخاطَب بلغة مشتركة، وليس الخطاب فقط مجموعة من العلامات التي نتعامل معها وقت تحليل النص والتفكير فيه بقدر ما هو أفعال وممارسات تصوغ المضمون وتشكله في القالب الذي تريد له أن يكون[٢]، ويأتي الخطاب ليتم ما بدأت به اللسانيات، ويبين كيف ترتبط جملة مفردة بجملة أخرى لتصنع نصا متماسكا ومنسجما ومقبولا[٣].

أما تحليل الخطاب فما لجأت إليه اللسانيات إلا لفرق يفرق بينهما وميزة لا توجد فيها؛ إذ إن علم اللسان يهتم بما يقال ويبين كيف يقع القول داخل نظام اللغة في مستوياتها، ويتخذ اللغة موضوعا له، ويقف عند هذا الحد غير متجاوز تلك المساحة.

وتبقى الإشارة حقا إلى أن محللي الخطاب لا يقفون وقفة التحيز في موكب النظرة المتجهة نحو اللسانيات فقط، بل يولّون وجوههم شطر العلوم الأخرى منتفعين وآخذين منها ما طلب التحليل منهم ذاك، فلا يمكن فصل الخطاب عن سياقه الذي حدث به، خاصة السياق الاجتماعي –الثقافي الذي يتعلق به أيما تعلق[٤]، فالمدرسة الفرنسية على سبيل المثال أولت عنايتها في دراستها للخطاب لجانبين اثنين: أحدهما الجانب اللساني، والآخر جانب فلسفي

---

[١] انظر: ذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل، ط١، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٥م، ١٣٦.

[٢] انظر: سارة ميلز، الخطاب، ترجمة عبد الوهاب علوب، ط١، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٦م، ٣٠، وسارة ميلز "تعمل أستاذ بحوث في مدرسة الدراسات الثقافية التابعة لجامعة شيفيلد هالام. نشرت أعمالا من النظرية اللغوية والأدبية النسوية والنظرية النسوية بعد الاستعمارية، وهي مؤلفة مجلد "مفكري روتلدج النقديين" عن ميشيل فوكو(٢٠٠٣)": سارة ميلز، الخطاب، ٢٠٣.

[٣] انظر: ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، ترجمة وتقديم عز الدين إسماعيل، ط١، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ٢٠٠١، ٣٠ –٣١، منقولا عن: Antony Easthope: Poetry as Discourse, Methuen,London and New York 1983, p.8. ، والنص/الخطاب المقبول هو الذي يتصف بصفة القبول من حيث الصياغة الجيدة تعبيرا، وأن يكون قابلا للتأويل. انظر: فان دايك، النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة عبد القادر قنيني، (د.ط)، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٠م، ١٩.

[٤] انظر: ذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل،١٠٥.

ونفسي تحليلي، وما كان لها ما كانَ دون أن تستطيع الدمج بين الحقل اللساني والتاريخي الاجتماعي[١].

ولتعيين النتاجات الكلامية، وإبراز الأثر الكلامي لها، لا بدّ من النظر، بجانب النظرة لمصطلح (الخطاب)، للملفوظ والنص، فكلاهما كالداعم بإظهار النتاج الكلامي، فالملفوظ هو القول الذي يتكون من متوالية كلامية قد تكون بضع كلمات أو كتابا بأكمله، تكون متكاملة من الناحية التركيبية، وحمالة لمعنى محدد؛ كقولنا: "واحسرتاه" وغير ذلك[٢].

أما النصّ وتلاصقه جنبا إلى جنبِ النصية لتحقيق التماسك والانسجام فبابُ القول وأحد مطالب البحثِ، يشكلان مع التداوليةِ مضمارَ البحثِ وميدانَه، وأما ما ورد من نصوص الخطب من كتاب الكامل فهي أمثلةُ البحثِ وأدواتُه المُجلّيّةُ، وقد وَلّيتُ وَجْهي فيها شطْرَ تمثّلِ اللسانيات الحديثة تنظيرا وتطبيقا من وُجهة تحليلية خطابية، فوقفتُ عند نصوصها متلمّسة الدلالة بين نصية الخطابات والخطابات النصية، وتلمس دلالة حركة النص غير المنطوق وهيئاته، ودلالات حركة المنشئ ومنشئ الحركة، وإيحاءات يحتملها السياق الذي وردت فيه، دون ليّ عنق النص، مما جاد به الإلف اللغوي، واستخراج مكنوناته المتخفية خلفه بين لغة الخطاب وخطاب اللغة.

ولتحليل النص لا بدّ من المرور من نحو الخطاب (المنحدر من النحو العام) إلى تحليل الخطاب لدراسة مكونات اللفظ، ومقام التلفظ، وعلاقة الخطاب بصاحبه والمتلقي له[٣]، ويبقى النص متشابك الأطراف لا يمنح نفسه بسهولة للمحلل والقارئ، ولا يفضي إلى ما يخفيه في عوالمه الداخلية بيسرٍ وسلاسة، معناه غامض، ومغزاه خفي عن الأنظار، فعلى من يريد استنفاد معانيه، ومعرفة تفاسيره القريبة لمقصدية الكاتب، إعادة القراءة، ففي كل مرة يتحاور فيها القارئ مع النص يتشكل المعنى بمدى قدرته على النفاذ في عوالمه وتفكيك أجزائه[٤].

---

[١] انظر: ذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل،٩٣-٩٤.

[٢] انظر: ذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل،١٠٢.

[٣] انظر: ذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل،٩٢-٩٣.

[٤] انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ١٨٠-١٨١.

المبحث الأول: مفهوم الخطاب (Discourse)

مفهوم الخطاب عند العرب

إنّ أولَ ما أستفتحُ بهِ مفهومَ الخطابِ الأصلُ الاشتقاقيُّ[١] الذي ينغلقُ على جذرٍ لغويٍّ واحدٍ دونَ لَبسٍ وتباينٍ[٢] فيما أنا خائضة فيهِ في الكشفِ عن معناها في المعجماتِ العربيّة، لأجدها تجلّت في مادّةِ "خطب"، وقد عرّج على معناها ابن فارس، فقال: " الخاء والطاء والباء أصلان: أحدهما الكلام بين اثنين، يقال خاطبه يُخاطبه خِطابا، والخُطبة من ذلك... والخطبة الكلام المخطوب به. ويقال اختطب القوم فلانا، إذا دعَوْه إلى تزوج صاحبتهم"[٣] ، أما ابن منظور فيميل لمعنى المراجعة في الكلام، فيقول: "والخِطاب والمُخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبَه بالكلامِ مخاطبة وخِطابا، وهما يتخاطبان... واسمُ الكلام: الخُطبة"[٤]، والزمخشري[٥] عرج في كتابه (أساس البلاغة) لمعنى خطب قائلا: "خاطبه أحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام... وكان يقوم الرجل في النادي في الجاهلية فيقول: خِطبٌ، فمن أراد إنكاحه قال: نِكحٌ. واختطب القوم فلانا: دعوه إلى أن يخطب إليهم...وتقول له: أنت الأخطب البين الخطبة، فتخيّل إليه أنه ذو البيان في خطبته"[٦].

---

[١] المسمّى بمادة الكلمة.

[٢] قد ترد كلمات يعوزها الكشف والتنقير، فيحدث فيها لبس وبون مرده في اختلاف الأصل الاشتقاقي الذي تنتسب إليه الكلمة، ولمزيد بسط القول في اختلاف الأصل الاشتقاقي انظر: مهدي أسعد عرار، ظاهرة اللبس في العربية: جدل التواصل والتفاصل، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ٢٠٠٨، ٩٨-١٠١.

[٣] انظر: ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس (٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٩م، مادة " خطب".

[٤] ابن منظور، اللسان، مادة "خطب"، وذهب لذات المعنى الأصفهاني انظر: الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مادة "خطب".

[٥] الزمخشري هو محمود بن عمر بن أحمد، وكنيته أبو القاسم، ولد بزمخشر عام ٤٦٧هـ، درس العلوم الدينية واللغوية، ولها مؤلفات عديدة، منها أساس البلاغة والكشاف، وتوفي في موطنه عام ٥٣٨هـ. انظر ما جاء في ترجمة المؤلف في كتاب: الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (٥٣٨هـ)، أساس البلاغة، تحقيق محمد السُّود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ٣/١.

[٦] الزمخشري، أساس البلاغة، ٢٥٥/١.

أما التهانوي[١] فيدخل مفهوم الخطاب حيز التواصل اللفظي بين المرسل والمستقبل، فيعرّفه على أنه كلام لفظي موجه نحو الغير للإفهام والإيضاح نحو أمر ما، بشرط أن يكون المستقبل متهيئا لفهمه، وبذلك يخرج من مفهوم الخطاب ما له علاقة بالحركات والإشارات، وأيضا ما له صلة بالمهمل من الكلام، أي الكلام غير الواضح، وكل شيء لا يقصد منه إفهام السامع، فيكون بذلك قد أخرج من تعريفه التواصل غير اللفظي كالحركة والإشارة وغيرها[٢].

ولم تكتف مادة (خطب) بالظهور في المعجمات وكتب علوم البلاغة وغيرها، بل تجلّت أيضًا في السياق الشريف، حيث ورد ذكرها في اثني عشر موضعًا في القرآن الكريم[٣]، ومنها قَولُه –تنزّهَ –:

- ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[٤]
- ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [٥]
- ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾[٦]
- ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[٧]
- ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾[٨]
- ﴿رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾[٩]

---

[١] باحث هندي لغوي، عالم في العلوم ومصطلحاتها، تعددت مشارب علومه لغة وفقها وحديثا وتاريخا وفلسفة وتصوفًا وغير ذلك. انظر لمزيد من القول عنه، سيرته في كتاب: التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، XXX–XXXIX.

[٢] انظر: التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ٧٤٩/١

[٣] انظر: محمد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (د.ط)، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٤٤م، ٢٣٥.

[٤] الآية (الفرقان، ٦٣).

[٥] الآية (المؤمنون، ٢٧).

[٦] الآية (القصص، ٢٣).

[٧] الآية (ص، ٢٠).

[٨] الآية (ص، ٢٣).

[٩] الآية (النبأ، ٣٧).

تظهر كلمة (خطب) في السياق الشريف حمالة لمعنى الكلام، ومصرحة لدلالتها المرادة، وجاءت معانيها في كتب التفسير منفتحة الدلالة، ومتسعة فيما تحمله من معنى، ولا نلحظ عليها انغلاقا دلاليا مقتصرا على وُجهة مَعنوية واحدةٍ[١] رغم مرجعها لمنبت واحد وهو الكلام، وأقف عند قول الحق: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[٢] أعرّج فيها على الإشارة إلى قول الماوردي[٣] في شرح فصل الخطاب إن فيها خمسة تأويلات[٤]، تعود بمعانيها إلى الفصل في الكلام[٥]، وأجمع "علماء البيان أنه أما بعد، لأن المتكلم يفتتح كلامه في كل أمر ذي شأن بذكر الله وتحميده، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرضَ المسوق إليه فصلَ بينه وبين ذكر الله تعالى بقوله: أما بعد"[٦] ونستشف من هذا القول أنها ترجع بمدلولها هذا إلى ما ذكر عند

---

[١] انظر ما قيل في معنى الانغلاق الدلالي وما جاء عليه من أمثلة: مهدي أسعد عرار، مباحثات لسانية في ظواهر قرآنية، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨، ٣٣-٣٦.

[٢] الآية (ص،٢٠)

[٣] الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد البصري، توفي سنة خمسين وأربعمائة في بغداد، وعمره ستة وثمانون عاما، وهو أقضى القضاة، ولي القضاة ببلدان عدة، وله مصنفات منها: "النكت والعيون"، و"أدب الدنيا والدين"، و"الأحكام السلطانية" وغيرها، وهذه التصانيف ظهرت بعد وفاته عندما قال لأحد الثقات الذين يثق بهم: عندما أقع في النزع فاجعل يدك في يدي فإن قبضتها فألقها في دجلة فهي علامة عدم القبول من الله، وإن وجدتني بسطت يدي فانشرها، فهي علامة القبول، فلما احتضر بسط يده فأظهرت كتبه؛ انظر: الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين (٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومجموعة، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠١م، ٦٤/١٨.

[٤] لبسط من القول انظر: الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (٤٥٠هـ)، النكت والعيون: تفسير الماوردي، مراجعة وتعليق عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٢م، ٨٤/٥.

[٥] أشار إلى المعنى نفسه الذي ورد عند الماوردي ابن كثير بقوله هو الفصل في الكلام وفي الحكم انظر: ابن كثير، أبو الفداء محمد بن إسماعيل (٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، تحقيق حكمت بن بشير بن ياسين، ط١، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الدمام، ٢٠١٠م، ٤١٤/٦، وقد ذهب الأصفهاني في شرح الآية إلى أن معنى قوله تعالى: ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ ما ينفصل به الأمر من الخِطاب، انظر: الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ١٥٧، مادة "خطب".

[٦] ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين (٦٣٧هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وعلق عليه أحمد الحوفي وبدوي طبانة، (د.ط)، دار نهضة مَصْر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٥م،١٣٩/٣، وذكرها العسكري في كتابه انظر: أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ١٥٩.

المفسرين، ومما يلحق بركب ما تقدم آنفا جاء في بقية الآيات الإحدى عشرة التي تناولت مادة (خ.ط.ب) في سياقها الشريف.

وبإمعان النظر في كل ما ورد من معان اكتنفت مادة "خطب" أذهب إلى القول إن "للفظ الواحد والمصطلح الواحد أحيانا عدة مفاهيم وكثرة من المعاني، حتى تكاد اللفظة الواحدة تضج في تشعّب دلالاتها"[١]، ويظهرُ مما تقدم بجلاء ملحظان: أوّلُهما أن دلالة "خطاب" قديما لا تفارق المعنى المستخدم لها اليوم، والحقّ أن هذه دلالتها لا تفارق ما ران عليه إلفنا في استعمالنا اليوميّ، فلنا أن نقولها لمن نحادثه: (إني أخاطبك، أين سرّحت خيالك؟ أو بمُكنتنا القول: أخاطبكِ يا فتاة، ما خطبُكِ؟) وكلاهما بمعنى أحادثك وأكلمك، لتفيء بمعناها للكلام، وتقترن بالحديث الحاصل لتحقيق غرضٍ ما، وثانيهما أن دلالات الخطاب تعددت للجذر الواحد "خ.ط.ب" عند مَن تناولها شرحًا وتفسيرًا كما ورد سابقًا، وعدم اتفاقهم فيما بينهم على مفهومٍ واحد تتحد فيه روح الكلمة بجسد الدلالة، غير أنّ المفاهيمَ قد خرجت من أصل واحد، برغم ما حركت في الأذهان من المعاني الوافدة لها، حيث كشفت عن المعنى الرئيس لها، وهو الكلام الذي يتحقق باستخدام اللغة، يجرى بين منشئ الرسالة/الخطاب ومستقبلها، ويعد شكلا من أشكال الاتصال.

مفهوم الخطاب عند الغرب

بات مصطلح الخطاب عند الغرب من المسلمات في ستينيات القرن العشرين وسبعينياته[٢] لما شهدته هذه الحقبة من تحول جذري في المناخ الفكري في إنجلترا وفرنسا أدى للاهتمام بدراسة الخطاب، وبالأخص أثناء أحداث الثمانية والستين وفي أعقابها، حيث شهدت سجون فرنسا حركات تمرد على نظامها المتبع آنذاك، وشهدته أيضا من الطلبة على نظام الجامعات وعلى أهداف المناهج التي يتعرضون لها، وسيطرة الأفكار الأمريكية فيها خاصة في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ينادون بسيادة الخطاب بلسان العامة، الصوت المنخرط في الواقع العملي والمعيش، والدعوة إلى التحرر من الحكم الاستبدادي[٣]، حتى أصبحت ألوان

---

[١] التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، المقدمة التمهيدية XI.

[٢] انظر في مقدمة كتاب: سارة ميلز، الخطاب، ص١٣-١٤.

[٣] انظر: ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، ص١١-١٢، ٧٩-٨٢.

الخطاب شائعة "في عديد من أفرع المعرفة، منها النظرية النقدية، وعلم الاجتماع، وعلم اللغة، والفلسفة، وعلم النفس الاجتماعي، وغير ذلك"[١].

وأطلقوا على تعريف الخطاب (Discourse) مجموعة من المفردات، منها: تواصل شفاهي، حوار، نقاش، تحليل الظواهر اللغوية التي تشمل أكثر من جملة واحدة[٢]، ويبقى معنى الخطاب متعدد المفهوم، وربما نرجع السبب في تعدده إلى بروز مصطلح الخطاب في الدراسات الألسنية الحديثة، وتأثر النقاد، ونظريات الأدب مع ظهور البنيوية في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات[٣].

إن مصطلح الخطاب عند الألسنيين في الدراسات الغربية يعني "الوحدة اللغوية المكتملة التي تمتد فتشمل أكثر من جملة؛ ومن ثم كان تحليل الخطاب عندهم يعني دراسة العلاقات القائمة بين الوحدات اللغوية في أي لغة، كتابة أو شفاهية"[٤].

ونشأت عندهم مشكلة خلافية منذ بداية قيامهم بالتحليل اللغوي للخطاب، مشكلة تعلقت بحجم القول الذي نعده خطابا، فهل الجملة المفردة المكتملة نحويا ودلاليا تشكل خطابا، أم يجب أن يتجاوز الخطاب حدود الجملة لكي يطلق عليه تسمية الخطاب؟[٥]

إن علماء الألسنية اختلفوا في الإجابة، "ويُجْمِل "شابمان" هذا الموقف الخلافي حين يقول: إن جملة العناصر المشكلة لوحدة من الأداء اللغوي تقف مكتملة في ذاتها، تسمى في العموم خطابا، وليس لهذا الاسم أي دلالة على الحجم أو الأسلوب أو النوع؛ ففي الحد الأدنى يمكن أن تكون هذه الوحدة كلمة أمر مفردة: "قف"؛ وفي الحد الأعلى تكون هذه الوحدة مفتوحة بكل معاني الكلمة أمام التحليل، معتمدة على عناصر من التخطيط والثبات لا تمثل ظواهر لغوية"[٦].

---

[١] سارة ميلز، الخطاب، ١٣، ولبسط القول في تقاطع الخطاب مع حقول معرفية مختلفة انظر: ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب،٣٣.

[٢] انظر: سارة ميلز، الخطاب، ١٣، وانظر: فان دايك، النص والسياق، ١٤.

[٣] انظر: ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، ٢٧

[٤] ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، ٢٧.

[٥] انظر للمزيد من القول حول الإجابة عن السؤال: ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، ٢٩-٣١، وذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل، ٦٤-٦٦.

[٦] ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، ٢٩، وانظر: ذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل،٦٦.

وَمِن مِثلِ ما تَقدَّم قول فوكو إن كل نص أو كَلام له معنى وتأثير في المتلقي يعد خطابا[١]، ولا يعني قولهما إن أي جملة أو مجموعة من الجمل التي تتشكل تعد خطابا، فالجمل الاعتباطية التي لا يربط أجزاءَها حبلُ تماسك وتآزر بين تراكيبها أبعدُ من أن نقول عنها خطابا[٢].

ويظل الفكر الغربي، كما يتجلى من المفاهيم، حريصا على عدّ الخطاب نوعًا من التفاعل التبادلي بين فعل التفكير وفعل الكلام، فأصبح يرمي للكيفية التي تعمل بها النصوص وطرق إنتاج المعرفة، والأدوات المستخدمة في هذا الإنتاج الذي يحدده السياق الاجتماعي، ويواصل بها وجوده [٣].

المبحث الثاني: تحليل الخطاب (Discourse Analysis)

ابتكر زليج هاريسZ.Harris[٤] مصطلح "تحليل الخطاب" وعرفه بقوله: "إن تحليل الخطاب منهج في البحث في أيما مادة مشكلة من عناصر متميزة ومترابطة في امتداد طولي، سواء أكانت لغة أم شيئا شبيها باللغة، ومشتملة على أكثر من جملة أولية؛ أو لنقل إنها بنية شاملة تشخص الخطاب في جملته... أو أجزاء كبيرة منه"[٥]، وهذا التعريف يجعلنا نقف عند حد الجملة، وكيفية تجاوزها إلى الخطاب وصولا إلى تحليل الخطاب.

---

[١] انظر: ميشيل فوكو، نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا، ط٢، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٧م، ٢٦-٢٧، ولمزيد من القول والشرح عن مفهوم فوكو للخطاب، انظر: سارة ميلز، الخطاب، ١٨-١٩.

[٢] انظر: ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، ٣٠.

[٣] انظر: ميشيل فوكو، نظام الخطاب، ٢٥، وديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب،٦١، وسارة ميلز، الخطاب، ٢٣.

[٤] يعد عند أكثر المتحدثين عن تحليل الخطاب أنه الرائد في هذا المضمار من خلاله بحثه المعنون بـ " تحليل الخطاب"، وأنه أيضا أول لساني حاول توسيع البحث اللساني من دراسة الجملة لينتقل لدراسة النص/ الخطاب، وهو صاحب النظرية التوزيعية في اللسانيات البنيوية التي يرجع أصلها إلى "العلاقات بين أبنية الجمل والأبنية الصرفية"، ومن تلاميذه تشومسكي، انظر لمزيد بسط من القول: سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، (الزمن، السرد، التبئير)، ط٣، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٧م، ١٧-١٩، وسعيد بحيري، علم لغة النص، ١٨، ١٩، ٢٢٢.

[٥] انظر: ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، ٣٠، ومع أن هاريس دعا لدراسة العلاقات بين الجمل إلا أن إسهاماته في علم لغة النص كانت محدودة، انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ٢٢٢-٢٢٣.

وقف اللسانيون عند حد الجملة في التحليل، وبيان نوعها اسمية أو فعلية، والعلاقات فيما بينها، على اعتبار الجملة الوحدة الكبرى، فتكونت إشكالية في النظر إلى النص الأحادي الجملة وتمييزهم "بين الجملة باعتبارها وحدة نظامية، والأقوال أو الجمل المستعملة باعتبارها وحدات نصية"[١]، إلى أن جاء هاريس وتجاوزها إلى الخطاب تجاوزا ضئيلا، وعرفه على أنه "ملفوظ طويل، أو متتالية من الجمل تكون مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر، بواسطة المنهجية التوزيعية[٢] وبشكل يجعلنا نظل في مجال لساني محض"[٣]، وهذا التعريف خرج به هاريس انطلاقا من تعريف بلومفيلد للجملة الذي أكد أن الخطاب رهين وجود نظام متتالٍ من الجمل، أي أنّ الخطاب يقدم بعدّه متتالية من الجمل الفعلية والاسمية وبينهما علاقات ما[٤]، وبهذا يكون هاريس تجاهل التسلسل النصي بين الجمل بتركيز نظره على المتتاليات ونوعها اسمية أو فعلية، فيقف على عتبة الملفوظ ولا يتجاوزها.

أما بنفنست[٥] فيقدم تعريفا أعمق للخطاب وتحليله من هاريس، لأنه أدرك ضرورة الخروج من دائرة البنيوية التي ركزت اهتمامها على ما يعطي النصوص شكلها من نظم وعلاقات لغوية دون اتخاذ الخطاب موضوعا للدراسة، حيث بقيت في دائرة الأفق اللغوي ولم تتجاوزها[٦]. ويرى بنفنست الجملة أصغر وحدة[٧] في الخطاب، تتكون من علامات وليس علامة واحدة، ويعرف الخطاب "باعتباره الملفوظ منظورًا إليه من وجهة آليات وعمليات اشتغاله في

---

[١] محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية: تأسيس "نحو النص"، ط١، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس ٢٠٠١، ٩٩.

[٢] أي تتوزع العناصر بشكل منتظم بين متتاليات الجملة، وتكشف عن بنية النص. انظر: سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ١٧-١٨.

[٣] سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ١٧.

[٤] انظر: سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ١٨.

[٥] عالم لغوي فرنسي. انظر: سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ١٨، وانظر: ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، ٣٢.

[٦] انظر: ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، ٣٢.

[٧] الكثير من اللسانيين يقفون عند حد الجملة ولا يتجاوزونها، باعتبار الجملة هي الوحدة الكبرى، ويقابله المورفيم بعدّها وحدة صغرى. لمزيد من بسط القول في آراء اللسانيين انظر: سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ١٥-١٧، وانظر: فرانسوا راستيي، فنون النص وعلومه، ترجمة إدريس الخطاب، ط١، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ٢٠١٠م، ٨٩.

التواصل"[١]، فكل تلفظ عنده يفترض وجود طرفي الخطاب المرسل والمستقبل، وهدف الأول في التأثير على المستقبل/السامع[٢] بطريقة ما، ويعني التلفظ عنده الفعل الذاتي في استعمال اللغة، وإنتاج النص والموضوع الأساسي للدراسة، ويقابله بنفنست بمفهوم الملفوظ باعتباره الموضوع اللغوي المنجز والمستقل عن الذات التي قامت بإنجازه[٣]، وبناء على ما سبق من ذكره في الفرق بين الملفوظ والتلفظ، نجد أن الخطاب عنده يقع تحت التلفظ (أداءً وفعلاً) لا الملفوظ (اللغة/الكلام الناتج عن التلفظ)؛ لأنه الركيزة الأساسية للدراسة، فما التلفظ إلا حدث لغوي يتحول من كونه لغة إلى خطاب بفعل ممارسة الفرد لأفعال لغوية يطلق عليها الأفعال الإنجازية/الإنشائية التي يظهر معناها من خلال السياق التخاطبي[٤].

ويتخلَّق الخطابُ اللغويُّ أثناء عملية إدخاله حيز التحليل عن عَلاقة اتصال تام بين الدال والمدلول، تسمح للفرد بالتواصل وإنشاء عالمه الذي يرجع إليه، ومنه ما يكون حقيقيا أو وهميا (حديث الشخص مع ذاته) يتعلق بالسياق اللساني، وآخر يتعلق بالمقام التواصلي[٥].

وما جاء هذا الاهتمام من علماء اللسان بتحليل الخطاب إلا في الربع الأخير من القرن العشرين عندما أدركوا أن التحليل يجب أن يتجاوز معطيات اللغة في ذاتها إلى ما هو أعمق معنى ووصفا وفهما وتناولا لوظائفه وكيفية إنجازه[٦]، فانتقلوا من الاهتمام باللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها[٧] إلى البحث عن وظائفها والهدف من استعمالها[٨].

---

[١] سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ١٩، وجاء تعريفه في كتاب (مقدمة في نظريات الخطاب) بترجمة عز الدين إسماعيل على أنه: "كل قول يفترض متكلما ومستمعا، ويكون لدى المتكلم مقصد التأثير في الآخر على نحو ما" انظر: ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، ٣٧.

[٢] المستقبل هو متلقي الخطاب ومستهلكه من منشئ/منتج الخطاب، وهذا ما ذهب إليه ماركس في نظريته العامة عن الإنتاج" إن المجتمع كما ينتج السلعة التي يحتاج إليها كذلك تنتج كل سلعة مستهلكها (وهذا هو أساس المبدأ القائل إن الذات تنتج الموضوع كما أن الموضوع ينتج الذات)": ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب،٤٤.

[٣] انظر: سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ١٨-١٩

[٤] انظر: ذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل، ١٥٤-١٥٥.

[٥] انظر: ذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل،٧٣-٧٥.

[٦] انظر: ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، ٣٤، وفان دايك، النص والسياق، ١٩-٢٠.

[٧] هذا ما تقوم عليه النظرية السوسيرية اللسانية في دراستها للغة.

[٨] انظر: ذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل، ٦٨.

المبحث الثالث: مفهوم النص والنصية (Text – Textuality)

أُخِذت مادةُ النصّ من (نصص) ومن معانيها: نص الشيء إليه، ونص الحديث إليه بمعنى رفعُه[١]، ومنها أخذت المِنصة للعروس؛ ورفع الناقة في السير باستخراج أقصى ما تقدر عليه من السير، فقيل: نَصصتُ ناقتي[٢]، و"نصّتِ الظَّبْيَةُ جِيدها: رفعتْهُ"[٣]، وجيئ معنى الرفع في البيت القائل:

ونُصَّ الحديثَ إلى أهله فإن الوثيقةَ في نصِّهِ[٤]

وتشير كوامن النص إلى أصله الآتي من نهاية الشيء ومنتهاه[٥]، وإلى صيغة الكلام الواردة من المؤلف وجمعها نصوص[٦].

وملخص ما جاءت عليه مادة (نصص) من معنى هو الرفع والإظهار والاستواء، والنّصب، "والنَّص والنَّصيص: السيرُ الشديدُ والحَثُّ، ولهذا قيلَ: نَصَصْتُ الشيءَ رفعْتُهُ، ومنهُ مِنصَّةُ العروس"[٧]، فلم يخرج النص من مفهوم البروز والظهور ومعنى النسيج الذي تُغزل

---

[١] انظر: الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد (٣٧٠هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق أحمد البردوني، مراجعة علي البجاوي، ط١، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م، ١١٦/١٢، وانظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة " نصص"، والفيروزأبادي، أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب (٨١٧هـ)، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف محمد العرقسوسي، ط٦، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨م، ٦٣٢، مادة (نصص)، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط٤، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٤م، ٩٦٢، مادة (نصص).

[٢] انظر: الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (١٧٠هـ)، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، ط٢، مؤسسة دار الهجرة، الرياض، ١٩٨٩م، مادة (نصص)، وانظر: الأزهري، تهذيب اللغة، ١١٦/١٢، وابن منظور، اللسان، مادة "نصص"، والفيروزأبادي، القاموس المحيط، مادة (نصص).

[٣] ابن منظور، اللسان، مادة " نصص".

[٤] لم يذكر صاحب كتاب العين اسم قائل البيت عند استشهاده به، واكتفى بالقول: لم نهتد إلى القائل. انظر: مادة (نصص).

[٥] انظر: الفراهيدي، كتاب العين، ٨٧/٧، مادة (نصص)، والأزهري، تهذيب اللغة، ١١٦/١٢، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة (نصص)، وابن منظور، اللسان، مادة "نصص".

[٦] انظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة (نصص).

[٧] ابن منظور، اللسان، مادة "نصص".

خيوطه لتشكيل لوحة متكاملة منسجمة بمحتواها من الملفوظ[١]، ووجود هذه اللوحة النصية على حد تعبير هيلمسلف يفترض وجود نظام لغوي متدرج من السينتجمات أي التكوينات التركيبية الأفقية النحوية[٢]، وعرف هارتمان P.Hartmann النص أنه عبارة عن علامة لغوية أصلية وفي أثناء التحليل اللغوي للنص ننطلق من الوحدات الصغرى (الجمل وأجزاء الجمل) إلى الوحدات الكبرى[٣]، فالنص عبارة عن وحدة كلية كبرى تتشابك فيها المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية لتلمس مواضع التعالق بين تلكم المستويات، فتكون سهمتنا في النص لا تقل عن منتج النص[٤].

أما برينكر Brinker فيذهب في تعريفه للنص على أنه سلسلة من الجمل المتتالية، ومتى ما وضعت النقطة أو علامة الاستفهام أو التعجب بعد الجملة دلّ على وجود نص، ورمزت إليه، مما يدلل على أن الجملة جزء من النص، وهناك علاقة بين الجملة والنص من خلال وجود رمز بعد الجملة[٥].

تحدث درسلر Dressler عن الامتداد الموسع للنص، الذي يجعل النص متداخلا مع نصوص أخرى، بما يسمى بالتناص، بأخذ نصوص من نصوص أخرى، مما يجعل النص الرئيس يتقاطع مع أقوال النصوص الأخرى[٦]، ويجعل علماء لغة النص يصفونه بالنص المنتج لتفاعله مع نصوص خارجية وثقافات عديدة أولا، ولتركه المساحة الكافية للمحللين والمفسرين والقراء بتفكيك أبنيته اللغوية، وإعادة إخراج نص جديد من النص الحالي المتواجد أمامهم بربط جزيئاته القائمة على خبرة المحلل وثقافته وتوجهه، فيجعله مشاركا في عملية بناء النص، ويكون مساهما في التأليف لا مجرد مستهلك له، وبذلك تكتمل في النص عملية التعدد الدلالي[٧].

---

[١] انظر: ذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل،١٠٣-١٠٥.

[٢] انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ٢٨.

[٣] انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ٥٧.

[٤] انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ٩٨.

[٥] انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ١٠٣.

[٦] انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ١١٠-١١١.

[٧] انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ١١٢-١١٣.

وهناك من عرف النص على أنه "التسجيل اللفظي للحدث التواصلي" [١]، وقُصد بالتسجيل اللفظي المدونة الكلامية المؤتلفة من كلام، وبالحدث أن كل نص عبارة عن حدث له زمان ومكان، وأما التواصلي فهو يهدف إلى توصيل المعلومات ونقل التجارب إلى المتلقي، ويهدف لدراسة النص في أطر نظرية الاتصال القائمة على أسس اتصالية، ومن أهم ممثليها ف.كومر W.Kummer وغروسه K.Grosse[٢]، وأرى أنَّ الحدث التواصلي المرتبط بالوظيفة التواصلية التفاعلية التي تنشئ العلاقات الاجتماعية قد يكون منطوقا وغير منطوق بإشارات اتصالية غير لغوية.

والتعريف المذكور آنفا هو الأقرب لدراسة الباحثة، حيث اختلفت التعريفات بتعدد النظرات من منحى نظرة المدارس اللغوية، فالمدرسة البنيوية[٣] يرى أصحابها "بضرورة قطع النص عن مبدعه، وعن سياقاته التاريخية والاجتماعية والنفسية، ويركزون على البنية النصية نفسها ويتعاملون مع النص على أنه بنية مغلقة في مستوييه النحوي والدلالي"[٤]، وما تقوم عليه البنيوية الأمريكية هو أساس مقولة بلومفيلد: الجملة أكبر مقولة لغوية[٥]، أما السيميائية فقرنت النص بمفهوم التناص على أنه مجموعة من نصوص متداخلة[٦]، ولم تقف إلى هذا الحد، بل

---

[١] ج.ب.براون وج.يول، تحليل الخطاب، ١٥، وانظر عن مفهوم النص والإشكالية في تعدد تعاريفه ومفاهيمه بسبب اختلاف المدارس اللغوية: عثمان أبو زنيد، نحو النص: إطار نظري ودراسات تطبيقية، ط١، إربد، عالم الكتب الحديث، ٢٠١٠م، ١١-٣٠.

[٢] انظر: محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، ط٣، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٢م، ١٢٠، وسعيد بحيري، علم لغة النص، ١٥٩-١٦٠.

[٣] يركزون بدرجة أقل على المؤلف والمعنى، وبدرجة أعلى على بنية النص، أي أنه في النص لا يتكلم أحد غير القارئ، فيعيد إنتاجه بصورة مختلفة كما رآها من وجهة نظره، فهو قابل للتحقق -النص/الخطاب- بأشكال مختلفة، ورغم ذلك يبقى النص محتفظًا بتاريخيته زمنيا. انظر تعريف البنيوية وما اعتمدوا عليه من نظرة تجاه النص: ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، ٤١، وسارة ميلز، الخطاب، ١٧٩.

[٤] عثمان أبو زنيد، نحو النص، ١٣، ولمزيد بسط القول عن هذه المرحلة البنيوية الذي تمثلها ثلة من المفكرين كأمثال رولان بارت وفوكو، انظر: سارة ميلز، الخطاب، ٦٠-٨٨.

[٥] انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ١٣٧.

[٦] يطلق عليه مصطلح "التداخل النصي Intertextuality" عند جوليا كريستيفا. انظر: سارة ميلز، الخطاب،١٧١، ٢٠٠.

اهتمت بالنصوص غير المكتوبة التي توضع لمقصد مثل الرسومات وإشارات المرور وغيرها[١]، أما علماء اللغة الاجتماعيون فنظروا للنص على أنه يتشكل من خلال موقف يتفاعل فيه الأفراد والجماعات مع بعضهما، مما يستدعي بحث العلاقات الاجتماعية، وقضايا الاتصال المحيطة بالنص من المكان والزمان والسياق وغير ذلك[٢].

بقيت الإشارة على أن مصطلح "النص" استخدم مرادفا للخطاب والملفوظ عند جونديلو بمعنى المتوالية الآتية من مجموعة وحدات لسانية وناتجة من متلفظ واحد أو أكثر[٣]، وأطلق على هذا العلم مصطلحات عدة، منها: علم لغة النص، وعلم اللغة النصي، وعلم النص[٤]، ومهما اختلف الاسم فإنه تبقى أهميته الكامنة في اهتمامه "بتراكيب أشكال الاتصال النصية واستعمالاتها وتحليلها داخل إطار مدمج ومتداخل"[٥] أي أنه يهتم بتحديد السمة المشتركة بين النصوص، وكذلك أوجه الاختلاف بينها، فيقوم بوصفها وتحليلها وإبراز خصائصها استنادا إلى معايير خاصة[٦].

ومستصفى القول يكمن في أن وجود تعريف جامع مانع للنص غير موجود، ويعود ذلك لاختلاف المدارس اللغوية التي ينتمي إليها علماء اللغة[٧]، وهذا ما نلحظه آنفا على ما أحاط النص من تعريف، وقد ورد عند البحيري تعريف أراه أقرب إلى جميع الأقوال السابقة، وصفٌ جامع شامل، وهو: "النص كل تترابط أجزاؤه من جهتي التحديد والاستلزام، إذ يؤدي الفصل بين الأجزاء إلى عدم وضوح النص، كما يؤدي عزل أو إسقاط عنصر من عناصره إلى عدم تحقق الفهم، ويفسر هذا بوضوح من خلال مصطلحي "الوحدة الكلية" و"التماسك الدلالي" للنص"[٨]، ويضيف قائلا هو: "مجموعة من الأحداث الكلامية، التي تتكون من مرسل للفعل اللغوي ومتلق له، وقناة اتصال بينهما، وهدف يتغير بمضمون الرسالة، وموقف اتصال

---

[١] انظر: عثمان أبو زنيد، نحو النص، ١٥-١٧.

[٢] انظر: عثمان أبو زنيد، نحو النص، ١٧-١٩.

[٣] انظر: ذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل،١٠٤.

[٤] انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ٩٩.

[٥] سعيد بحيري، علم لغة النص، ٢٦.

[٦] انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ٧٣.

[٧] انظر: سعيد بحيري: علم لغة النص، ١٠٧.

[٨] سعيد بحيري، علم لغة النص، ١٠٨.

اجتماعي[١] يتحقق فيه التفاعل"[٢]، ويشكل النص وحدة كبرى تامة لا يوجد غيرها من الوحدات أكبر منها، كاملة بعناصرها التي تقع من الجانب النحوي على مستوى أفقي[٣]، بمكنتنا تتبعها على المستوى السطحي للنص(يشكل هذا المستوى وحدات صغرى من النص ترتبط فيما بينها بروابط نحوية)، ومن الجانب الدلالي على مستوى رأسي (يتشكل من تصورات كلية وشاملة تربط بينها علاقات من التماسك الدلالي[٤] تتمثل في بنية عميقة تظهر تماسك أجزاء النص أو انسلاخ نسيجها التركيبي)[٥]، وتعد هذه البنية خصوصية ممتازة بعلم اللغة النصي لتفردها في تعاملها مع بنية دلالية[٦] كبرى تشكلت من أبنية صغرى، تنظر إلى النص باعتبار كُلاً واحدًا، وليس كأجزاء متناثرة وكجمل منفصلة، بل كجمل تشكل سلسلة متراصة ومرتبطة بعضها مع بعض، تفسر من خلال ما يسمى بالوحدة الكلية للنص[٧].

ويمكن أن نضيف إضافة متممة للتعريف السابق: "على أنه آلة تحوي أجزاء مختلفة، تعمل في صورة متناغمة، أو على أنه حيوان له أعضاء مميزة، كل منها يعمل بشكل مختلف عن الآخر، لكنها تتكامل في النهاية فيما بينها"[٨]، وقد ورد في التعريفات السابقة أنّ ثمَّ خلافا

---

[١] يرى شميت أن الآراء الجديدة حول النص تنظر إليه أنه مجموعة من الرموز اللغوية، ووظيفتها الاتصال الاجتماعي لاعتمادها في نظرية النص على السياق الاتصالي، انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ١١٩.

[٢] سعيد بحيري، علم لغة النص، ١١٠.

[٣] أي مستوى خطي.

[٤] يذهب فان دايك بالقول عن التماسك النصي أنه يتحدد على مستوى الدلالات بما يتعلق بالجانب التصوري للعلاقات القائمة في متوالية نصية، كما أنه يتحدد على مستوى الإحالة بما تحيل إليه تلكم الوحدات في المتوالية النصية. انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ١٢٢.

[٥] انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ١١٩، ١٢٢.

[٦] هذه الخاصية الدلالية للنص يقدمها علماء النص بصورة "تعتمد على فهم كل جملة مكونة للنص في علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى، ويشرحون العوامل التي يعتمد عليها الترابط على المستوى السطحي للنص؛ ما يتمثل في مؤشرات لغوية، مثل علامات العطف والوصل والفصل..."، سعيد بحيري، علم لغة النص، ١٢٣.

[٧] انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ١٢١-١٢٢.

[٨] روجر فاولر، اللسانيات والرواية، ترجمة أحمد صبرة، ط١، مؤسسة حورس الدولية للنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٩، ٥١.

وعدمَ إجماع على مفهوم "النص"[١]، ولكنه يفهم ضمنا على أنه النسيج من نسج رواية أو رسالة ما أو غير ذلك[٢]، وأنه يشكل علم اللغة النصي مع علم اللغة الجملي علاقة تكاملية ينظر فيها إلى علم اللغة الجملي أنه تمهيد لعلم اللغة النصي الذي يتجاوز دراسة الجملة[٣]، ويتسع لدراسة النص وتماسكه بأكثر شمولية[٤]، وأرجح ما جاء في كتاب "أصول تحليل الخطاب" باعتبار الجملة والنص ثنائيتين يقابلان بعضهما بعضا، كما تقابل هذه الثنائيات بعضها بعضا[٥]، وهما من المتممات المساندة في تحليل الخطاب/النص، فكانتا ذات سُهْمة كبيرة في تشكيل كل نص من نصوص الخطبة وحبكها من مفتتحها إلى منتهاها، وهذا رسم يوضح ثنائيات نضيفها على ثنائيات سابقة ومعروفة في الدرس اللساني:

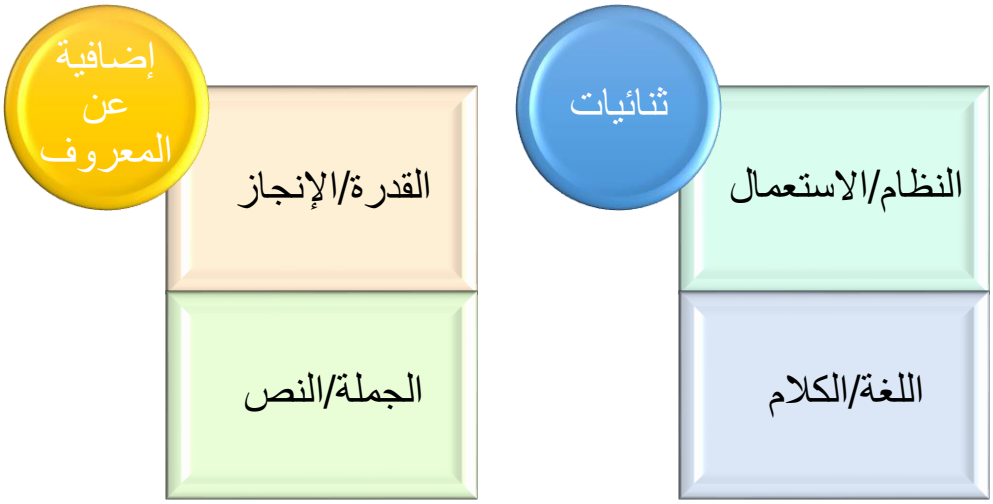

---

[١] انظر لمزيد بسط من القول: عثمان أبو زنيد، نحو النص، ص١١-٣٠، وانظر: فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة فالح العجمي، ط١، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٩م، ٣-٥.

[٢] انظر: فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ص٤، وقد عرف هاليداي وحسن النص أنه " كل قطعة شفوية أو مكتوبة طالت أو قصرت وكونت كلا موحّدا "، وعدّ دريسلر النص رديفا للقول التام، انظر: محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ١٠٦.

[٣] دراسة الجملة اهتمام علم اللغة التقليدي الذي يولي شطر اهتمامه للجملة دون اهتمام باللغة المتداولة دراسة وتحليلا. انظر: سارة ميلز، الخطاب، ١٤٩-١٥٠.

[٤] انظر: فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ٨

[٥] انظر: محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ٩٢

وفي العودة إلى العنوان، والعَود أحمدُ، بعد تلكم التعريفات التي تقدمت، نجده يحلق بجناحين عريضين، أولهما النص وثانيهما النصية، وكأنهما يختلفان عن بعضهما أو ربما يتلاحمان في تكوين جسم واحد، لا استغناء لأحدهما عن الآخر، وسنجد إجابة وتفصيل بيان عن تلكم العلاقة التي تكتنفها في العرض الآتي:

بدأ مفهوم النص بالظهور عام ١٩٧٢م عند فان دايك[١] حين نشر كتابا بعنوان (Some Aspects of Text Grammar) وفيه ألقى اعتراضه على النحو التقليدي، ووجوب اتباع طرق جديدة في تحليل النص، والتعامل معه، وفي عام ١٩٧٦م، ظهرت أول دراسة نصية في كتاب (Cohesion in English) لهاليداي ورقية حسن[٢]، وفي عام ١٩٧٧م عادت محاولات فان دايك بتأليفه كتابا جديدا يركز فيه على الظواهر الدلالية والتداولية، وقام بتسميته (Text and Context)، وفي عام ١٩٨٠م بدأت دعائم نحو النص تترسخ على يد دي بوجراند في كتابه (النص والخطاب والإجراء)[٣].

وتلا ذلك مؤلفات أظهرت جهود العرب في الدراسات النصية، ومنها جهود محمد مفتاح[٤]عام ١٩٨٧م، ومحمد خطابي[٥] عام ١٩٩١م، والأزهر الزناد[٦] عام ١٩٩٣م[٧].

إن كل نص لا بد من النظر إليه بداية في ضوء علاقته بالنصوص الخارجية[٨] التي تساعد في نمو أي نص، وتتحدد بنوع التعاون والصراع الذي يكون بين النص والنص المقابل

---

[١] عالم هولندي، وأبرز من أولى عنايته واهتمامه لنحو النص، وتقديم تصورات عديدة في بحوثه عن تحليل النص وبخاصة البنيتين الصغرى والكبرى، انظر في الهوامش: سعيد بحيري، علم لغة النص، ٣١٠.

[٢] سأعتمد على كتابهما وما جاء به من مفاهيم وأمثلة في قابل البحث.

[٣] انظر: سالم حسن، الإحالة ودورها في تماسك النص: رواية (التبر) للكوني نموذجا، مجلة البحث العلمي في الآداب، جامعة عين شمس، ج٥، ع١٥، ٢٠١٥م، ٧.

[٤] في كتابه (دينامية النص تنظير وإنجاز).

[٥] في كتابه (لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب) وستعتمد دراستنا على الكتاب في الشق النصي.

[٦] في كتابه (نسيج النص: بحث في ما يكون به الملفوظ نصا).

[٧] انظر: سالم حسن، الإحالة ودورها في تماسك النص، ٧.

[٨] ويمكن تسميته بمفهوم الإطار (وتحديدا الإطار اللغوي المقصود به "تلك المعارف والمحفوظات التي تعلمها الشاعر وخزنها في ذاكرته، وسحب منها ما احتاج إليه"، أو الخطاطة، أو المدونة، أو النماذج الذهبية.

له، ومدى تماسكه وتنافره، فتتداعى الأفكار وتترابط في الذهن لمن امتلك المعرفة السابقة عن الموضوع[١]، وبعد معرفة علاقة النص بنصوص أخرى يلقى النظر على تفاعل النص مع نفسه، وسيرهما صوب هدف ما، ولا بد أيضا من اعتبار النص "مشكل" بحاجة إلى حل، فنضع الفروض، ونبرهن صحتها إن كان لها ذلك، وخلال البرهنة لا بد من التزام مبدأ "أقل التزام" أو ما يسمى بمبدأ الإرجاء، أو مبدأ استراتيجية الانتظار والرؤية، فمن خلال هذا المبدأ نتجنب التفاصيل والالتزامات غير المطلوبة والزائدة عن الحد المعقول[٢].

وبعد إمعان النظر في النص ومدى انسجامه واتساقه في علاقاته القَبلية وعلاقاته البعدية مع ما سبقه من جمل سابقة أو تالية نستطيع حينها أن نطلق عليه تسمية "النصيّة" بتوافر خصائص النص فيه، فليس كل نص ندعوه نصّا، فهناك عناصر لغوية تسهم في تكامل النص ووحدته، منها: الإحالة والتكرار المعجمي وغيرهما، فإن توافرت تلكم العناصر أطلق عليها النصية، وإلا فلا [٣].

تتجلّى النصيّة باعتبارها أحد المفاهيم اللسانية والسيميائية الأساسية، تشكل محط اهتمام العلماء والباحثين المنتمين إلى حقول معرفية مختلفة، مثل: اللسانيات والمنطق والرياضيات وعلم النفس المعرفي[٤] وعلم الاجتماع والذكاء الاصطناعي والتداولية وغير ذلك، وقد أنشئت حولها علوم عديدة كنظرية النص، ولسانيات النص، والسيميائيات النصية[٥]، وترتكز النصية أساسًا على مفهوم التماسك بين أجزاء النص، ويطلق عليه التماسك النصي[٦].

انظر: محمد مفتاح، النص: من القراءة إلى التنظير، ط١، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ١٩٩٩م، ١٠.

[١] لمزيد بسط من القول انظر: محمد مفتاح، النص: من القراءة إلى التنظير، ٩-١٢.

[٢] انظر: محمد مفتاح، النص: من القراءة إلى التنظير، ٩-١٠.

[٣] انظر لمزيد بسط القول شرحًا وأمثلة: محمد خطابي، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١م، ١٣-١٤.

[٤] يقدم علم النفس المعرفي حسب قول فان دايك لعلم النص معلومات دقيقة تدور حول عمليات معرفية محددة يستخرجها لتشكل أسس إنتاج النص، انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ١٧٢.

[٥] انظر: محمد مفتاح، النص: من القراءة إلى التنظير، ٣.

[٦] انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ٢١٦.

إن الخطاب الذي تتوافر فيه مقومات النص وأعمدة النصية ويتعامل معه القارئ فهما وانسجاما وتفاعلا مع دواخله يكون قد حقق عنصر التواصل والاتصال والوصل، وحقق ما جاءت به تعريفات النص السابقة، وإخال أن التعريفات قد تشاكلت وتداخلت فيما بينها، فَلَمْ يَمْتَز النص عن النصية ولا الجملة عن النص، وما عاد يحضر الفرق بينهم في ذهن السامع، فلا يقف على مراده إلا بالتوهم والإبهام، ولتجلية ذاك فلا بدَّ من التطرق إلى النصوص المختارة من "الكامل"، للولوج إلى مضمار التطبيق، ولذا ليس ثَمّ بدٌّ من الفيءِ إلى نصوصٍ تطبيقية، تحقيقا لمطلبين اثنين، وهما:

- تِبيانٌ للمقصد الذي رمت إليه المفاهيم توضيحا وإزالة للإبهام الذي يقع فيه السامع.
- واحتراسٌ من أن يقع السامع في تشاكل وإشكال في مضمار التطبيق، فمعايير النصية ليست ملقاة على عواهنها، فقد يقف المرء وِجاه نصوص لا تتجلى أكثر مما تتجلى إلا في تفكك نصي وانفلات بين أجزائه يُلمَح على البنية السطحية للنص، قبل الولوج إلى عوالمه الداخلية.

المبحث الرابع: نَحْوُ النَّصِّ Text Grammar

لعلّ ما تقدم يلمِحُ، بل يصرحُ بمكانة العنوان العريض الذي ينتظم عِقد سيرورتها، ويستشرف أثرها في رسم المعنى، وتحليله، ويشدّهُ بقوةٍ وحزمٍ انسجامًا واتساقًا، يجعله متينَ الأواصرِ مجدولا بجدلة من الجمل منتظمة ومتسقة، ولا يشكي فراغا تَدْخُلُ العلل من بينه، هو انتسابها إلى مضمار نحو النص أو ما يدعى بلسانيات النص أو علم النص، وفان ديك "ميزه وخصه بمصطلح "نحو النص أو نحو الخطاب أو آجرومية النص"[١]، وقد ظهر نحو النص في الدراسات العربية أواخر الثمانينيات وبدايات التسعينيات[٢].

---

[١] سعيد بحيري، علم لغة النص، ٢١٨.

[٢] انظر: عبد السلام السيد حامد، نحو النص عند سعد مصلوح، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، مج٧، ع٢، ٢٠١٦م، ٥٣٠.

وينكشف هذا العنوان العريض على ثلاثة أسئلة هما المستفتح له، أولها: ما علاقة نحو النص بالنص؟ اختيار نحو النص[١] لدراسة النص لأنه يتجاوز القراءة العادية للنص، والمتعارف عليها بحدود الجملة، لقراءة النص بعدّها بنية كلية، وتحليله مع مراعاة الترابط بين أجزاء الجمل معنى ودلالة، فضلا عن الحيز الذي يتركه نحو النص للمتلقي للتفاعل مع النص بمراعاة السياق والمقام[٢]، وثانيها هل هناك علاقة انفصال أو اشتمال بين نحو الجملة Sentence Grammar ونحو النصText Grammar [٣]؟ من ذهب إلى شق الانفصال اقتضى قوله أن يكون النص عبارة عن مجموعة، والجملة عبارة عن عنصر فردي، ومن تبنى الاتجاه القائل بعلاقة الاشتمال بينهما فقدّ عدّ أن النص يشتمل على الجملة، وخرج بنتيجة أن نحو النص هو الكلية، ويشتمل على نحو الجملة الجزئية، من احتواء الكل على الجزء[٤]، وأميل لاعتبار الجملة والنص مقترنين ببعضهما دون تحديد قاطع للعلاقة بينهما، فالجملة جزء من النص، والنص يتكون من جمل متتالية، ويأتي الخطاب ليتذوق جماليات النص، ويعيد تحقيقه بصورة أخرى أقرب لمقصد المنشئ، وما كان ذلك كذلك لو فصلنا الجملة عن النص وفصلناهما معا عن الخطاب، فكل من الجملة والنص يشكلان عملية تكاملية تصل لمحلل الخطاب كي يقوم بإعادة الصياغة المقصدية من النص الذي بين يديه، وما يميز النص عن اللانص التماسك الذي يحدث بين أجزائه.

والشق الثالث من السؤال: هل نحو النص وضع بعدّه مسمّى آخر للنحو التقليدي؟ إنّ قواعد النحو تلعب دورا مهمًا، بل دورا أساسيا في التماسك النصي والارتباط بين الجمل بتناسق

---

[١] النحو هو العلم الذي يكشف خبايا المباني اللغوية وكيفية ارتباطها بالمعنى والدلالة، ومهمة النحو إظهار قدرة النظام اللغوي على التعبير بوسائل التماسك النصي التي تعطي معنى النص للمتلقي كما يريده المتكلم؛ انظر: أحمد عفيفي، نحو النص: اتجاه جديد في الدرس النحوي، ط١، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠١، ٩.

[٢] انظر: أحمد عفيفي، نحو النص، ٩.

[٣] لمزيد بسط من القول حول الصلة بين نحو الجملة ونحو النص، انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ١٣٣ وما بعدها.

[٤] لمزيد بسط من القول، انظر: محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ١٠٠.

وائتلاف للدلالة على أمر ما، وهذا ما أكده هاليداي ورقية حسن[١] ومن بعدهما فان ديك[٢]، وتبقى تلك القواعد معيارها الجملة التي تقوم بدراستها في مستوياتها الصوتية والصرفية وغيرها، ومعيارها أيضا صحة الإسناد والسلامة النحوية وما شابه ذلك، لكنها لا تعطي اهتماما للعلاقات التي تربط بين الجمل، مما يجعلها في زاوية النحو التقليدي الذي يبقى قاصرا عن التفاعل الداخلي في النص والإفصاح عن محتواه ومدى تماسكه، لا سيما المعوقات التي تحدث عنها سعد مصلوح[٣] التي تميز نحو الجملة " كونه موضوعا لتحليل الشاهد والمثال، وغلبة الطابع المعياري عليه، وعدم اعترافه بفكرة التطور، وهامشية مراعاته للمقام في غير كتب المتقدمين، وافتقاده خاصيتي النظامية والهرمية"[٤].

إن الخصائص الأخيرة التي ذكرت آنفا ما هي إلا تأكيد على حاجة اللغة لنحو النص، وأن يخرج من فوهة نحو الجملة إلى ما فيه ارتقاؤه وعلوة مكانته في التحليل وفهم السياق والعناية به، ولفهم أوجه العلاقة التي تربط الجمل بعلاقات وليدة السياق والمعنى يولّى الوجه شطر نحو النص الذي يحوي بداخله نحو الجملة Sentence Grammar[٥]، حيث" تتقاسم نحو النص نزعتان كبيرتان: إحداهما تغلب محاولة صياغة قواعد نحوية تركيبية للنص (كقواعد الإضمار ...) والثانية تغلب التأويل والعناية بالجانب الدلالي والمضمون وتزهد في الجانب الصياغي النحوي"[٦]، والذي يتجلى لنا مما ذكر آنفا أن نحو النص أوسع وأشمل من النحو التقليدي، يتجاوز دراسة الجملة، ويرتكز على معرفة القواعد والعلاقات التي تنتظم النص،

---

[١] أصحاب كتاب (Cohesion in English) الاتساق في اللغة الإنجليزية الصادر سنة ١٩٧٦، انظر لمزيد بسط القول عن الكتاب: محمد خطابي، لسانيات النص، ١١.

[٢] انظر: إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص، ط١، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٧م، ١٩٢، ووردت كتابة اسمه عند البحيري على هذه الشاكلة: فْندايك، انظر سعيد بحيري، علم لغة النص، ٢١٨ وفي غيرها من الصفحات.

[٣] جمع سعد مصلوح بين الدرس اللساني والدرس الأدبي والنقدي، وأسهم إسهاما واضحا في نحو النص، وله في ذاك ثلاثة أبحاث: العربية من نحو الجملة إلى نحو النص، ونحو آجرومية للنص الشعري: دراسة في قصيدة جاهلية، والمذهب النحوي عند تمام حسان من نحو الجملة إلى نحو النص. انظر: عبد السلام السيد حامد، نحو النص عند سعد مصلوح، ٥٣١ وما بعدها.

[٤] عبد السلام السيد حامد، نحو النص عند سعد مصلوح، ٥٤٥.

[٥] انظر: إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص،٢١٥-٢١٦-٢٢٢.

[٦] محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ١٠٤.

وبرغم ذلك بقي معتمدا على النحو التقليدي في الكثير من جزيئاته دون أن يركنه جانبا، بغية الإضافة عليه وتقويمه، والانتقال من الاهتمام بالجملة إلى النص، فما هو إلا "نمط مركب من التحليل يشمل فحص علاقات متدرجة تمتد من داخل الجملة إلى النص والخطاب"[١].

إن موضوع اللسانيات النصية أو نحو النص يأخذ صفة النصية، في ارتكازه على المعايير النصية السبعة، التي تمخضت عن بحوث لغوية عديدة في نحو النص، أسفرت عن صياغة الكثير من النظريات حوله، ووصلت إلى التمييز بين النص واللانص[٢] لمقدرتها على إظهار الترابط والتماسك في النص لتحقيق ما يسمى بالنصية[٣]، هذه المعايير أو المبادئ قد وردت عند دي بوجراند ودريسلر[٤] على أنها سبعة[٥]، وهي:

١- الترابط أو الاتساق أو السبك أو التماسك اللفظي Cohesion: ظهور البنية السطحية على صورة وقائع يؤدي السابق منها إلى اللاحق، وتنتظم -أي الكلمات- تبعا للمباني

---

[١] عبد السلام السيد حامد، نحو النص عند سعد مصلوح، ٥٣٤، وانظر لمزيد بسط القول عن فوائد نحو النص المحيطة به: أحمد عفيفي، نحو النص، ٣٧-٤٣، وسعد مصلوح، نحو أجرومية للنص الشعري: دراسة في قصيدة جاهلية، مجلة فصول، المجلد العاشر، العددان الأول والثاني، يوليو-أغسطس، ١٩٩١م، ١٥٧، وينصب اهتمام هذا المبدأ على التكرار وأنواعه، وسعيد بحيري، علم لغة النص، ١٣٥، بتصرف من: Heeschen:op.cit.,S.77.، وبتصرف من محمود جاد الرب: علم اللغة؛ نشأته وتطوره، ١٢٥،١٢٤.

[٢] انظر: إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص، ١٨٦.

[٣] انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ١٤٥.

[٤] لم يعنيا -دريسلر ودي بوجراند- تحقق هذه المعايير السبعة جميعها في كل نص، ولكنهما أكدا أهمية وضرورة تحققها ولو بعضها ليتحقق الاكتمال النصي بوجودها، انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ١٤٦.

[٥] انظر: روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمّام حسان، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م، ١٠٣-١٠٥، وسعيد بيومي، لغة القانون في ضوء علم لغة النص: دراسة في التماسك النصي، تقديم محمد المهدي، ط١، دار الكتب القانونية، القاهرة، ٢٠١٠م، ٤١-٤٢، ومحمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ١٠٦، وسعيد بحيري، علم لغة النص، ١٤٥-١٤٦، وعبد السلام السيد حامد، نحو النص عند سعد مصلوح، ٥٤١، نلحظ أن هناك تباينا واقع هُنا في ترجمة المصطلحات إلى العربية؛ إذ إن المصطلح الواحد يتردد بين أكثر من معنى، فتمام حسان قابل مصطلحي Cohesion و Coherence بالسبك والالتحام ، وسعد مصلوح وهو من أوائل الذين ترجموا المصطلح للعربية بالسبك Cohesion والحبك Coherence، ومحمد الشاوش بالترابط أو الاتساق و الانسجام، وسعيد بيومي قابلهما بما يكون أقرب لدراسته للنص القانوني بالتماسك اللفظي والتماسك المعنوي، وقابلهما إبراهيم خليل بالتضام Cohesion والاقتران Coherence انظر: إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص، ١٨٦.

النحوية، بحيث يتحقق لها الترابط بوسائل لغوية شكلية كالإحالة والحذف وأدوات الربط والتكرار وغير ذلك.

٢- الانسجام أو الالتحام أو التماسك المعنوي Coherence: معرفة دلالات النص بإدراك العلاقة الخفية التي لا تظهر على البنية السطحية للنص بوسائل الالتحام التي يشتمل عليها، كالسببيّة والعموم والخصوص.

٣- النية أو القصد (القصدية) Intentionality: موقف منشئ النص من كون صورة ما من صور اللغة قصد بها أن تكون نصا متلاحما ومتماسكا، ومثل هذا النص يعد وسيلة من الوسائل المتبعة للوصول إلى هدف النص والغاية والقصدية منه.

٤- المقبولية [١](القبول) Acceptability: موقف مستقبل النص إزاء كون صورة ما من صور اللغة ينبغي لها أن تكون مقبولة لديه من حيث هي نص يتصف بالتماسك والتلاحم.

٥- الإفادة أو الإخبارية أو الإعلامية Informativity: مدى توفر الوقائع المعلوماتية في النص مقابل عدم الوقائع عند الاختيار الفعلي لبدائل ممكنة، أي توقع تلكم المعلومات التي وردت فيه أو عدم توقعها، ومدى تقبلها في النص أو رفضها في الحكم عليها.

٦- ملاءمة مقام ما (المقامية) أو رعاية الموقف (الموقفية) Situationality: أن يكون النص مناسبا لموقف معين، وهي تتضمن العوامل التي تجعله مرتبطا بموقف سائد يمكن استرجاعه، ورعاية الموقف ترتبط بسياق النص وزمنه ومكانه ومناسبته والمقصد منه.

٧- التناص Intertextuality: يتضمن العلاقات بين نص ما ونصوص أخرى، يكون لها ذلك بتداخله معها أو بتبعيةِ النصّ لنصٍ آخرَ ارتبطت به، ووقعت في حدود تجربة سابقة.

إن تلكم المعايير تسهم سهمة واسعة في تحليل النص، وتبيان قوة تماسكه وترابط أجزائه، وعماد الباحث في إلقاء حكمه على نصية النص، مما يستدعي من منشئ القول أن يسترعيها انتباهه، ويحاول جاهدا أن يضمنها لنصه دون مغالاة في ذلك، ومع ذلك قد يختلف حضورها

---

[١] قوبل المصطلح بترجمة محمد يحياتن باسم الاستحسان، انظر: دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتن، ط١، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٨م، ١٢٧.

من نص إلى آخر تِبعًا لقدرة الكاتب على الكتابة أو الخطيب على إلقاء خطبته، وجَودة النص المكتوب أو الملقى.

وليس يخفى على ذي نُهْيةٍ أن المعيارين الأولين تقع تحتهما المعايير الأخرى، فهما العماد المتكل عليه، وسيأتي فضلُ بيانٍ مُجَلٍّ لهما بعْدًا في مضمار التطبيق في هذه المباحثة، فالاتساق والانسجام باعثهما الرغبة في إنشاء نصوص تتصف بالنصية، وبنية متماسكة الأطراف والجمل فيها متكاملة متتابعة الأجزاء.

ولا بدَّ مع ذاك التلاحم والتماسك في السياق وضوح المقصد والغاية النصية عند منشئه ليصل للمتلقي ويتجاوب معه وإلا سيرفضه فلا يتحقق الهدف منه، "ولا يقل السياق أهمية في تحقيق تماسك النص مع البيئة المحيطة به، وكذلك الشأن مع إخبارية النص، أي مدى توقع المعلومات أو الوقائع الواردة في النص أو عدم توقعها، فإن هذا التوقع إنما يرتبط بجدة النص، ومدى التجاوب معه، وهذا التجاوب مع النص هو مظهر من مظاهر تماسكه إنتاجا وتلقيا، وأخيرا فإن التناص يدل على أن النص لا يغرد وحده في جزيرة منعزلة، بل يمتاح من سلسال التجارب النصية الأخرى؛ السابقة والمعاصرة، مما يشكل تماسكا بين أركان المنظومة النصية الواحدة"[١] .

إن نحو النص قائم على علاقات اتساق بين الوسائل اللغوية التي تصل بين العناصر المكونة للنص، وعلى علاقات انسجام تشمل العلاقات المعنوية الظاهرة والمخفية والمعطيات المشكلة لإطار تلقي النص، ولكن هذا لا يعني أن بقية العناصر النصية لا يأخذ بها نحو النص، أو أنها لا تملك أدوات كافية للشرح والتفصيل، بل إنها لا تقل أهمية عن أخواتها الأخريات، ولكني أعنى في دراستي بتطبيق معياري الاتساق والانسجام في مضمار التطبيق، اللذين يرميان إلى جعل النص عبارة عن تسلسل للجمل[٢]، يشارك فيه المتلقي حين يتلقفه من المنشئ، فيغوص في عوالمه ويستخرج لآلأه؛ ليخرج لنا بنص جديد يقارب فيه مقصد منشئ النص.

---

[١] سعيد بيومي، لغة القانون، ٤٣.

[٢] وقد عرج على هذا المضمون دومينيك في معرض حديثه عن اللسانيات النصية، انظر: دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ١٢٩.

ودراستي من المنظور التطبيقي ستعتمد على المعيارين اللذين أعتمد لهما مسمى الاتساق والانسجام في هذا المبحثِ، أما المفهوم الأول الاتساق فيتكون من علاقات قوية تشد الخيوط بين أجزاء النص[١]، فلا تدعه يفلت منها إلا وقد كون لوحة متماسكة واضحة المعالم، تتم في مستويات مختلفة منها الدلالي (المعنى) والنحوي (أشكال المفردات) والصوتي (الذي يتجسد بالكتابة/التعبير)، وتمكننا هذه المستويات من الحديث عن أنواع من الاتساق كالمعجمي والاتساق النحوي[٢]، ولإبراز هذا الاتساق يقوم محلل الخطاب/النص بنهجٍ خطي يبرهن فيه الكلية التي تعم النص وكأنه بنيان مرصوص، وجسد واحد أعضاؤه متماسكة، يبدأ المحلل فيه بالتدرج من بداية النص حتى يصل خواتيمه، مظهرا الإحالة بنوعيها القبلية والبعدية، ومبرزا الضمائر وأسماء الإشارة والعناصر اللغوية المستخدمة مثل وسائل الربط؛ كالعطف، والاستبدال، والحذف، وهلم جرّا، وهذا كله يكمن في البنية الداخلية لمظاهر الاتساق اللغوي[٣]، أما البنية الخارجية فتكمن في "مراعاة المقام، أي أن المتلقي يضع في اعتباره كل ما يعرفه عن المحيط"[٤].

ومستصفى القول في هذه المعايير النصية التي تعد مبادئ نحو النص أن منها ما له علاقة وثيقة بالنص، وهما الاتساق والانسجام، ومنها ما له علاقة بالسياق النفسي والمادي والثقافي المحيط بالنص وهي رعاية الموقف والإخبارية والتناص، وما يتصل بمستعملي النص في الإنتاج والتلقي، وهما معيارا القصد والقبول[٥].

---

[١] قد تكون هذه العلاقات سابقة أو لاحقة بين الجمل أو بين عنصر ومتتالية من الجمل، ويطلق هاليداي ورقية حسن عليهما تسمية العلاقة القَبْلية أو العلاقة البَعْدية. انظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ١٣.

[٢] انظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ١٥.

[٣] انظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ٥، ١٤.

[٤] محمد خطابي، لسانيات النص، ١٤.

[٥] انظر: دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ١٠٦، وانظر: سعيد بيومي، لغة القانون، ٤٣.

ولكي تستطيع هذه المعايير القيام بمهمتها في وصف البنية الكلية للنص لا بد من مقومات تقوم عليها، أرجعها Bertinetoo بالنظر إلى النص على أنه مجموعة من الجمل أو جملة واحدة لمعايير يجب توافرها فيه[1] :

- انسجام الجملة من حيث الموضوع.
- أن تكون الجمل ذات وظيفة تواصلية.
- أن تكون الجمل منجزة في عملية تواصلية.

وإن نحو النص بالنظر لمقوماته يقوم بالتركيز على السياق في التحليل بعكس النحو التقليدي الذي لا يعنى بالسياق ويكتفي بتحليل الجمل منعزلة عنه، ولعلَّ هذه المقوماتِ المتقدِّمَ بَيانُها آنِفًا مُحتاجةٌ إلى بَسْطٍ منَ القولِ وتَجْليةٍ سيأتي فضلُ بيانٍ وتبيينٍ عليها في قابلِ البحثِ بإذن الله.

المبحث الخامس: التداولية Pragmatics

يهدفُ هذا المبحثُ إلى إلقاء الضوء على الشطر الثاني من الدراسة، وهو التداولية، موضوع الحديث الآن، نشأة ومفهومًا وأبعادًا.

1- التداولية نشأة ومفهومًا

يطلق على التداولية تسمية البراجماتية اللسانية و"التداولية اللسانية" (Linguistic Pragmatics)، وقد أخذ أصلها من اليونانية القديمة التي تعني العمل "Pragma" أو الفعل "Action" أو المسألة، وأول استعمال لها كما ذكرت الموسوعة البريطانية كان على يد المؤرخ الإغريقي بوليبوس(ت١١٨ق.م) وقصد بها الفائدة العملية، وهي فلسفة أمريكية المنشأ ظهرت مع وليام جونز وجون ديوي وجارلز بيرز، وقد استعير مصطلح البراجماتية من رحم الفلسفة

---

[1] انظر: محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ١٠٥-١٠٦، وعدد سعد مصلوح مقومات أخرى لا بد من توافرها في الإطار النظري لنحو النص للقيام بمهمته في وصف البنية الكلية للنص، منها: استبدال الغاية التشخيصية الوصفية بالغاية المعيارية، واستبدال المعالجة النظامية بالمعالجة الذرية التفتيتية، انظر: عبد السلام السيد حامد، نحو النص عند سعد مصلوح، ٥٤٠.

الواقعية[١] والتجريبية[٢]، حيث نشأ في كنفهما ردحا من الزمن، وقام تشارلز ساندر بيرس(ت.١٩١٤م)[٣] بإدخاله إلى الدراسات اللسانية، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكان ذلك في مقالة نشرها عام ١٨٧٨م، وأدخل عليه تطويرات كل من الفلاسفة أوستين وسيريل وكارناب ولودفيج في اللسانيات[٤]، وقد تأثر الفيلسوف الأمريكي موريس بالبراجماتية في تأسيسه لعلم العلامة أو السيمياء (Semiotics)، فعرف باسم علم العلامات البراجماتي (Pragmatic Semiotics)[٥].

وتعود إرهاصات البراجماتية في الدرس اللساني العربي إلى ستينيات القرن العشرين، وهذا المسمى؛ أعني البراجماتية، تعرّض للتعريب عند ترجمته إلى العربية، فأنتج أسماءً تطلق على ذاته، وتعني بها هو لا غيره، من بينها: التداولية، التداولية اللسانية، اللسانية التداولية، علم اللغة التداولي، علم التخاطب، التخاطبية، علم المقاصد، علم الذرائع[٦]، المقامية،

---

(١) أنشأها أرسطو حينما رأى أن الواقع الحسي مصدر المعرفة. انظر لمزيد بسط من القول عنها: محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية): دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١٣م، ١٠.

(٢) تؤمن هذه الفلسفة أن التجريب أساس معرفة الأشياء، فاهتموا بالجانب العملي أكثر من غيره. انظر لمزيد بسط القول عنها: محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية، ١٠-١١.

(٣) رائد البراجماتية اللسانية.

(٤) انظر: مجيد الماشطة، شظايا لسانية، ط١، دار السياب، لندن، ٢٠٠٨م، ٨٧، ومحمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية، ٩-١٠، ١٥، وعيد بلبع، التداولية: البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، مجلة فصول، مصر، القاهرة، العدد٦٦، ٢٠٠٥، ٣٨.

(٥) انظر: محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية، ١١-١٣، وأشير إلى معلومة عن التداولية، فمع بدايات ظهورها نظر إليها اللغويون أنها سلة مهملات لسانية، فكلما همّوا إلى رمي البيانات المستعصية على التصنيفات العلمية وضعوها فيها، وتركوها دون اهتمام وتفحص، لتصبح بعد ذاك أهم موضوعات اللسانيات، وتناقش أبحاثها كيفية استعمال اللغة في الاتصال بين المخاطب والمتلقي؛ انظر: عيد بلبع، التداولية،٣٦.

(٦) تعني الوسيلة المفضية إلى الشيء، وتعد الترجمة الأولى لمصطلح البراجماتية في العربية، ثم تلاها ترجمته إلى الفائداتية، انظر: محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية، ١٤-١٥.

الفائداتية[١]، النفعية، وغيرها من الترجمات، وأشهرها استخداما التداولية منذ ظهورها في بداية السبعينيات[٢].

وقد أخذ مصطلح التداولية[٣] مادته اللغوية من "د.و.ل"، وقصدته معاجم اللغة بمعنى مداولة الأمر بين هذا وذاك، والانتقال من حالة إلى أخرى، ومن مكان إلى مكان[٤]، وكما أن الشائع في استخدام المصطلح الدخيل على العربية أن يحمل مفهومه أو ينسب لشيء منها كاسم فرد أو مدينة أو ثقافة نشأ فيها، مثل الماركسية التي حملت اسمها من مؤسسها ماركس، ومدرسة براغ وغيرها، فأؤيد النظرة التي ذهب إليها أحد الباحثين في اختيار المصطلح المنسجم أكثر مع التسمية الغربية البراجماتية، وهو "البراجماتية اللسانية"، فتكون الأقرب لمنشئها الغربي من لفظة التداولية، برغم استخدامي للّفظ الأخير والجنوح إليه لميل الدراسات والأبحاث العربية له[٥].

---

[١] والصواب لغويا الفوائدية جمع فائدة (مصدرها الصناعي فوائدية): انظر محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية، ١٤.

[٢] انظر: محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية، ١٣-١٥، ١٧، وأول من استخدم المصطلح؛ أعني التداولية، في العالم العربي طه عبد الرحمن، الذي جعله مقابلا للمصطلح الغربي "براغماتيقا"، وتداوله الباحثون والدارسون من بعده لدلالته على الاستعمال والتفاعل معا؛ انظر: طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م، ٢٨، ولمزيد بسط القول في ترجمة المصطلح انظر: محمد رجب صديق، الخطاب والتداولية: مدخل نظري، حوليات آداب عين شمس، جامعة عين شمس، مج٤٤، ٢٠١٦م، ٢٤٩.

[٣] مصدر صناعي من المصدر تداول، على وزن تفاعل، المحملة بمعنى التشريك بين اثنين وأكثر. انظر لبسط القول في الوزن ومعناه: الحملاوي، أحمد بن محمد بن أحمد، شذا العَرف في فن الصرف، تقديم محمد بن عبد المعطي، أخرجه أحمد المصري، ط١٢، دار كيان، القاهرة، ١٩٥٧م، ٨٢-٨٣.

[٤] انظر: الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (٣٩٣هـ)، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عطار، (د.ط)، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٥٦م، مادة "دول"، وابن فارس، مقاييس اللغة، مادة "دول"، والأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (٥٠٢هـ)، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان داودي، ط٤، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ٢٠٠٩م، ٣٢٢، وابن منظور، اللسان، مادة "دول".

[٥] انظر: محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية، ١٨.

وتعني التداولية بوجهة عامة "المنفعة التي تتحقق من الخطاب أو الإنجاز الفعلي"[١]، وقد استفادت من علوم عديدة حتى أصبحت علما قائما بذاته، ومن بين تلك العلوم: "اللسان والسيمياء والمنطق والفلسفة وعلم النفس المعرفي وعلم الاجتماع وعلم الاتصال، وقد تأثرت فروعها بهذه العلوم"[٢]، وأكثرها تأثيرا فيها الفلسفة وفروعها، فنظريات التداولية كأفعال الكلام انبثقت من علم الفلسفة التحليلية، ونظرية المحادثة خرجت من لدن فلسفة بول جرايس، وولدت نظرية الملاءمة من رحم علم النفس المعرفي[٣].

وتعرف التداولية من منحى لساني على أنها جزء من علم العلامات "السيميائية"، تدرس العلاقة بين العلامات ومستعمليها، وهذا التعريف الواسع المشتمل على علم العلامات هو أول ما قدم لها من تعريفات على يد تشارلز موريس[٤] Charles Morris سنة١٩٣٨م، ذكره في كتابه (Foundations of the theory of signs)، ولم يتجاوز فيما عناه فيها دراسة ضمائر المتكلم والخطاب وظرفي المكان والزمان والتعابير التي تستقي دلالتها من خارج النص اللغوي، أي المقام الذي يجرى فيه التواصل، وبقي هذا التعريف حتى حلت النصوص محل العلامات، وعرفت من ماري دبير وفرانسوا ريكاناتي على أنها دراسة كيفية استعمال اللغة في الخطاب، كاشفة عن مقدرتها الخطابية[٥]، وقد دمج فرانسيس جاك التعريفين السابقين بقوله: "تتطرق التداولية إلى اللغة، كظاهرة خطابية، وتواصلية، واجتماعية معًا"[٦]، وكذلك فعل أحد

---

[١] محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية، ١٥.

[٢] محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية، ١٢، وانظر لمزيد بسط القول فيها: محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ط١، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ٩-١٠.

[٣] انظر: محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية، ١٢، وعيد بلبع، التداولية،٣٧، ولبسط القول في العلاقة بين الفلسفة والتداولية انظر: عيد بلبع، التداولية، ٣٩-٤٠.

[٤] ترد كتابة اسمه عند الباحثين، تشارلز أو شارل موريس، وهو فيلسوف أمريكي، انظر: ذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل، ١٢٦.

[٥] انظر: آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم: علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٣، ٢٩، وفرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، ط١، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٨٧م، ٨، ومجيد الماشطة، شظايا لسانية، ٨٧، ومحمود نحلة، آفاق جديدة، ٩، وذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل، ١٢٦، وسعيد بحيري، علم لغة النص، ١٢٥.

[٦] فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ٨.

الباحثين في تعريفه التداولية أنها مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، ويعتني بالسياق والمقام الذي ينجز من خلالهما الخطاب، الذي يبحث عن عوامل تجعل منه رسالة تواصلية ناجحة[١]، وهو بذلك يؤكد دراسة استعمال اللغة من جميع جوانبها التي تحيطها، واعتبرها الفيلسوف رودولف كارناب Rudolf Carnap قاعدة اللسانيات[٢]، ربما لأنه رآها تجيب عن مجموعة من الأسئلة التي اعتبرها أساسا للسانيات، ومنها: "ماذا نصنع حين نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط، حين نتكلم؟ لماذا نطلب من جارنا حول المائدة أن يمدنا بكذا، بينما يظهر واضحًا أن في إمكانه ذلك؟ فمن يتكلم إذن؟ وإلى من يتكلم؟ من يتكلم ومع من... ما هي استعمالات اللغة"[٣] وغيرها من الأسئلة تطرحها التداولية على بساطها للباحثين والمهتمين تدور في فلكها واسع المدى.

ومن أهم الأسئلة التي تطرح في موضوعها: لأي قطب من أقطاب الثنائية السوسيرية (اللغة والكلام) تنتمي التداولية؟ لا يمكن القول في الميل نحو اتجاه دون آخر، فكلاهما تأخذ منه التداولية ما تحتاج، فإن كانت ترتكز على الفونولوجيا والمورفولوجيا فهي تأخذ من لسانيات اللغة، وإن كانت ترتكز على الاستعمال الفعلي لنظام اللغة فهي تأخذ حينها من لسانيات الكلام[٤]، ومنتهى الإجابة في هذا السؤال أنها تنتمي للقطبين، وتعمل على ربط اللغة بالقول والإنتاج والتطبيق، فاللغة وسيلة لمعرفة الكلام، وأحد طرق إيصاله للمخاطب، وأداة أساسية للخطاب وتبادل الحديث والتواصل بين بني البشر، حيث لا يمكن الانفصال عنها؛ وهي التي تمثل المرآة العاكسة لذاتية المتكلم ومنشئ الخطاب وحتى متلقيه .

وعودا على بدء، تخرج الباحثة من جميع التعريفات السابقة للتداولية أنها مذهب لساني تجاوز دراسة اللغة في ذاتها لدراسة استعمال اللغة من ناحية تواصل وسياق وتبيان للمقصد والغرض الذي تؤول إليه، وكذلك علاقة العلامات بمستعمليها تأثرا وتأثيرا، فيكون جوهر

---

[١] انظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، ط١، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٥م، ٥.

[٢] انظر: مقدمة المؤلف في كتاب: فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ٧.

[٣] انظر: مقدمة المؤلف في كتاب: فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ٧.

[٤] انظر: ذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل،١٤١، ١٥٣، ومحمود نحلة، آفاق جديدة،٥٨، وانظر آن وجاك في قولهم في اللغة على أنها "أداة لتمثيل المعرفة والمعلومة وإبلاغها": آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ١٩.

التداولية هو اللغة، ومراعاة الجانب الاستعمالي لها من المتكلم والمتلقي، ودراسة العلاقة بينهما مع السياق التواصلي، وهذا ما ذهب إليه فيتغنشتاين حامل لواء فلسفة اللغة العادية الذي دعا إلى فهم اللغة فهما عميقا، فهي المِفتاح السحري الذي يفتح كل باب غلّق في الفلسفة لسوء فهمها والتعمق فيها، فالاهتمام بالنشاط اللغوي واستعمال اللغة يكسبان حلا لمشكلات الفلسفة التي أدت إلى خلافات وتناقضات جمة بين الفلاسفة، وقد تأثر بنظرته هذه للغة فلاسفة مدرسة أوكسفورد، منهم أوستين وتلميذه سيرل، فكان الملهم لهما خلال دراستهما للقوى المتضمنة في القول[١].

وقد عمل أوستينAustin وسيرلSearle، وبالإضافة إلى جرايسGrice من مدرسة اللغة الطبيعية (العادية) Natural Language/Ordinary Language على تطوير التداولية في العقد السابع من القرن العشرين، وقد كانت اهتماماتهم في صميم التداولية منصبة على كيفية توصيل وإيصال معنى اللغة الإنسانية العادية من مرسل الرسالة إلى مستقبل يقوم بتفسيرها[٢].

والمستصفى مما تقدم أن تلكم التعريفات التي حضنت التداولية في تلافيفها تتفق على أنها تتجاوزُ البنية السطحية للنص في دراستها للغة، إلى ما هو أعمق يتمثل بالبنية العميقة مستعينة بتقنيات التواصل والسياق لإظهار الكيفيات التي جعلت المتكلم ينتج فعلا كلاميا في موقف محدد تواجد فيه، فتدرس اللغة في حيز الاستعمال[٣] كما جرى تداولها بين المتكلم والمخاطب، أو في التواصل، وتكشف عن تجليات المعنى الظاهر لدارسيها وغير الظاهر لهم من خلال تأويل مقصد منشئ الخطاب وصولا إلى المعنى المراد[٤]، وقائمة "على مفاهيم

---

[١] انظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ٢٣-٢٤، وفرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص١٤-١٥، وآن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ٩.

[٢] انظر: محمود نحلة، آفاق جديدة، ٩-١٠.

[٣] أي حال استعمالها بمفهومها الذي ورد في السياق، وتأثيرها على المتلقي.

[٤] انظر: محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية، ٢٠-٢١، وانظر إلى التعريفات التي قيلت في التداولية وسبب تسميتها بوجهٍ موجز مبين: محمود نحلة، آفاق جديدة، ١١-١٤، ٥٢.

المقاربة والإقناع؛ فهي تداولية إبداعية؛ تبحث في علاقة المعنى بشكل بنيته اعتمادا على شروط افتراضية للتواصل"[١].

والذي يسترعي الخاطر ههنا سؤال، وهو: ما الذي جعل التداولية تظهر في الغرب، وتتأصل عندهم قبل انتقالها إلى العالم العربي؟ للتداولية عوامل دالة على ظهورها، وقد التفت الباحثون والدارسون في هذا المبحث؛ أعني التداولية، إلى بعض تلكم العوامل المبينة لهم عن ذاتها، وشرعوا يلتمسون البواعث التي تفضي إليها، ويسترفدون من الوسائل التوضيحية ما يفضي إلى الشرح والتجلية.

وقد وقف باحثٌ عند تلك العوامل مظهرا بعضها تجلية وتفسيرا وإفصاحا، وأوردها في عاملين: أولها تلمس بعض ذلك في علم العلامات التداولي أو ما يطلق عليه تسمية السيمياء البراجماتية (Pragmatic Semiotics)، التي قام بوضع قواعدها الفيلسوف الأمريكي بيرس، كما أنها ظهرت في كتاباته ومؤلفاته في السيميائية، وعلى يد تلميذه شارل موريس بدأت تظهر معالم المنهج التداولي للعلامات، حتى اعتبروه مؤسسا للتداولية، فهو من قام بتقسيم علم العلامات[٢] لفروع ثلاثة: علم التراكيب (Syntactics/Syntax) الذي يختص بدراسة العلاقات بين أبنية الجملة[٣]، وعلم الدلالة[٤] (Semantics) المختص بدراسة العلاقة بين الدال والمدلول في الواقع المتعارف عليه أو دراسة ما تحيل إليه الكلمة، وآخر الفروع كانت التداولية (Pragmatics) التي اهتمت بدراسة علاقة الرمز بمفسر هذا الرمز[٥]، أي علاقة

---

[١] خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية: مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط١، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، العلمة، ٢٠٠٩م، ٢٣٤.

[٢] العلامة هي ماثول أو ممثل يحيل على موضوع عبر مؤول؛ انظر: عيد بلبع، التداولية، ٣٦.

[٣] مثل علاقة الفاعلية أو المفعولية بين الجمل؛ فنقوم بطرح أسئلة تخص بنية الجمل، مثلا قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ فاطر (الآية ٢٨): الفعل يخشى من قام بفعله؟ وعلى من وقع؟ وهكذا.

[٤] ذهبت مجموعة من الباحثين إلى اعتبار التداولية جزءا من علم الدلالة؛ وربما يعود مرجعهم فيما ذهبوا إليه في نظرتهم لعلم الدلالة أنها تشكل علاقة بين العلامة اللغوية والعالم، وأن التداولية علاقتها تتشكل بين العلامة اللغوية ومفسريها؛ انظر: محمود نحلة، آفاق جديدة، ٥٢.

[٥] انظر: مجيد الماشطة، شظايا لسانية، ٨٩، ومحمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية، ٢٦-٣٠، ومحمود نحلة، آفاق جديدة، ٩.

الأبنية اللغوية (أو ما أطلق عليها موريس العلامات أو الرموز اللغوية) بطرفي الخطاب: المتكلم والسامع.

وثانيها الماثل والمتمثل في ظهور الفلسفة التحليلية على يد جوتلوب فريجه عام ١٩٥٢م؛ ذلك أنها كانت سبيلا من سُبُل تجاوز الدارس بناء الجملة ليشملها في سبيل أخرى من خلال دراسته لمعانيها الدالة عليها، وإدخال الصدق والكذب في الحكم على العبارات أثناء دراسة الدال والمدلول، وقد تطورت تلك الفلسفة إلى ما يسمى بعلم الرموز "السيميوطيقا المنطقية" التي تبنتها جماعة من الفلاسفة دعوا باسم "حلقة فينا" اتجهوا إلى الاهتمام بمجال الفلسفة الوضعية المنطقية[١]، ومن أعلامها كارناب، وما يميزه اشتغاله بالسميوطيقا المنطقية؛ ذلك أنها تومِئُ إلى ثلاثة أمور:

- أولها: البراجماطيقا: تعبير عن القائل ذاته، حيث تشكل الجملة التي ينطق بها علاقة بينها وبين مدلولها الداخلي عند القائل.
- وثانيها: السمانطيقا: تتمثل العلاقة بين الجملة وما تدل عليها، وتبحث في معنى دلالة اللفظة والعبارة، فتدرسها شارحة إياها، مفصلة لتلابيبها الداخلية، مبينة عن مدلولاتها، وما تدل عليه خارج حدود الرموز المحددة أو المشار إليها.
- وثالثها: السنتاطيقا: تدرس الجملة من حيث تركيبها وكيفية تكوينها، بغض النظر عن قائلها وعن مدلولها المشار إليه[٢].

يتجلى من العاملين المذكورين آنفا أنهما من المتممات المساندة ذاتِ السهمة الكبيرة في تشكيل التداولية من مُفتَتَحِها إلى ما آلت إليه اليوم، وصفوة القول في بواعثها من مكمنها وظهورها عند الغرب أنها تمثلت في العامل الأول الذي مهد له بيرس من خلال وضعه لعلم العلامات التداولي، وتابعه في تقفي أثره تلميذه موريس الذي أسس قواعد المنهاج التداولي، وعرفها بعلاقة العلامات بمستخدميها، " أي: دراسة اللغة أثناء ممارسة إحدى وظائفها الإنجازية

---

[١] انظر: محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية، ٣٠-٣١، وأحمد عطية، الفلسفة التحليلية: ماهيتها، مصادرها، ومفكروها، ط١، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت،٢٠١٩م، ١١٥-١٢١.

[٢] انظر إلى مزيدٍ من فضل بيان وتأمل عن الأقسام الثلاثة المشار إليها: زكي نجيب محمود، موقف من الميتافيزيقا، ط٤، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٣م، ٢٠١-٢٢١.

والحوارية والتواصلية، وقد عدها جزءا من السيمياء "[1]، أما العامل الثاني فتمثل بميادين البحث اللغوي عند كرناب وأعضاء مدرسة فينا، فنهجوا منهج التحليل البراجماطيقي المنطقي الذي يبحث في الجملة وقائلها؛ أي قول المتكلم وحالته النفسية والجسمية التي صاحبت نطقه إياه، وقسمت إلى ثلاثة أقسام: السمانطيقا الباحثة في دلالة اللفظ على مسماه وصدق ما يشار إليه؛ أما السنتاطيقا فهي التي تغض طرفها عن صدق الجملة وعن دلالتها المشار إليها، والبراجماطيقا تهتم بدراسة القول بالنظر إلى علاقة رموزه بعضها مع بعض.

وللتداولية أساس تعمد إليه لتبني نظريتها من مفتتحها إلى نهايتها، يدعى بمفهوم القصد أو المقصد أو القصدية (Intentionality)، ويجمع على مقاصد، ومعناه لغةً الاعتزام والنهوض نحو الشيء لإتيانه قصدا وغاية[٢]، وفي الاصطلاح التداولي حين نطلب مثلا شيئا ما، قد نجد استجابة كما أردنا، وقد نجد عكس ما طلب من المتلقي؛ فرُبّ قولٍ قيل من المتكلم ارتد صدى صوته معنى ظاهرا عند المتلقي فخسئ على وجهه، وربّ قولٍ قيل قفل على صاحبه كما أراد له أن يكون، إذ لقي صداه عند المتلقي بمفهوم معنى المعنى، فوراء " كل نص إرادة إنسانية واعية، وغايات مقصودة. وليس ظاهر النص كباطنه... فربما تسأل عن الوقت وأنت تقصد أن توحي إلى ضيفك أن يذهب لأنك مرهق"[٣].

وبرغم اتكاء المصطلح؛ أعني القصد، في مفهومه على ما جاء عند العلماء العرب في تراثنا اللغوي إلا أنه اختلف في تعريفه وافترق بعض الشيء عنهم، وهذا ما ستقوم الباحثة في تقديمه موضحة إياه بفضل تأمل وبيان.

قصدَ التداوليونَ من مفهومِ القصدِ التركيزَ على المتلقي، بخلافِ علماء العربيّةِ الذين تأثروا في المفهوم الآتي من المقاصدِ في الشَّريعة، فعليها كان المعوَّل والاتّكاء، وجعلوه؛ أعني، القصد، مركزا على فهم المتكلم ومراده، ويختلف معناه باختلاف السياق، فالعبرة عندهم بإرادة المتكلم لا بلفظه، فالألفاظ هي تابعة لمقاصده، فقد تكون خاصة لفئة معينة من الناس وإن أراد

---

[1] محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية، ٣٠.

[٢] انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "قصد".

[٣] بهاء الدين مزيد، تبسيط التداولية: من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي، ط١، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٠م، ٩٥.

له المتكلم خلاف ما جاءت عليه، تصبح حمالة لمعنى العموم[١]، وفي كلا المعنيين فهم مراد المتكلم عند الأقدمين يتقدم على فهم مراد المتلقي، "والألفاظ ليست تَعبُّدية، والعارفُ[٢] يقول: ماذا أراد، واللفظي يقول: ماذا قال"[٣]، فهم بذلك يتجهون نحو المتكلم، يتأملون قوله ويتدبرونه حقَّ تدبُّره، ويُعملون فكرهم نحو استخراج المعاني واستنباطها من مقاصدها، وقد ساقوها مفصَّلة مبينة عمّا قيل فيها آنفا، متبعة بنصوص من الشريعة وكلام العرب دالة عليها في مباحثهم ومصنفاتهم المتعددة[٤].

والمستصفى مما تقدم أنّ النظرية التداولية الحديثة ستتداخل مع نظرية المقاصد قديما، فكلتاهما لا تتدافع، بل تتلازم، لا تنفك إحداهما عن الأخرى، لأن إحداهما بمنزلة الأساس وهي

---

[١] انظر: الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (٤٧١هـ)، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ط٥، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٤م، ٥٣٠-٥٣١، وابن قيّم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر (٧٥١هـ)، إعلام الموقّعين عن رب العالمين، تقديم وتعليق وتخريج مشهور آل سلمان، وشاركه في التخريج أحمد عبد الله أحمد، باب العبرة بإرادة المتكلم لا بلفظه، ط١، دار ابن الجوزي، الدمام، ٢٠٠٢م، ٣٨٦/٢، ومحمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية، ٣١-٣٤.

[٢] يقصد العارف في مقاصد الشريعة.

[٣] ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ٣٨٦/٢، وفسر ابن قيم قول اللفظي: "ماذا قال"، أنه ينطق بها متسائلا مَن لم يفهم كلام غيره ماذا عني به، وقد أنكر الله على أقوام ذلك، بقوله: " فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا" (النساء،٧٨)، والفقه هنا أخص من الفهم؛ يحمل معنى الذم لمن لم يفهم مراد المتكلم من كلامه.

[٤] انظر ما قيل فيها؛ أي المقاصد: الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى (٧٩٠هـ)، الموافقات، أخرجه أبو عبيدة مشهور آل سلمان، ط١، دار ابن عفان، الرياض، ١٩٩٧م، ٥١/٢-٥٣، وابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق ومراجعة محمد الحبيب ابن الخوجة، ط١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، ٢٠٠٤م، ٣/ ٧٩-٨٧، حمادي العبيدي، الشاطبي ومقاصد الشريعة، الفصل الخامس النوايا بين الأحكام والمقاصِد، ط١، دار قتيبة، بيروت، دمشق، ١٩٩٢م، ١٥٥- ١٦٤ والشاطبي يقصد بها قَصْدَ – أي نية – فالمقاصد نيات صاحب الحق في الاستمتاع بحقه، وصلتها بالمقاصد الشرعية، وأفعال المكلفين، وإسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الظاهر بن عاشور، ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، ١٩٩٥م، ٣٢٥-٣٥٤، ويؤكد الملف في هذا الكتاب أن الأداة المنهجية التي اعتمدها ابن عاشور في بناء نظريته هي المقام لضبط معنى الخطاب الشرعي كما قصده الشارع له، والمقام هو "جملة من العناصر اللغوية الصادرة عن الشارع والشروط الخارجية المحددة لاستعماله، والتي تساهم كلها في ضبط معناه المقصود شرعًا": إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد، ٣٥٣.

نظرية المقاصد، والأخرى بمنزلة البناء وهي النظرية التداولية؛ إذ التداولية بجانب استحضارها لفهم معنى المتلقي تولي عناية للمتكلم وما يقصده من مقاصد، فقد عرف سيرل القصدية بأنها "سمة العقل التي توجه بها الحالات العقلية أو تتعلق بها حالات عقلية أو تشير إليها، أو تهدف نحوها في العالم"[١]، وهذا يعني أن الشيء وإن لم يتواجد أمام الأنظار، ستتمثله حالتنا الشعورية اعتياديا، مثل الاعتقاد أن بائعا ما سيبيع الحلوى في محله المختص بالأدوات المنزلية يوم السبت، وإن لم يفعل ذاك، تبقى الذاكرة محتفظة أن المحل المجاور سيصبح محلا للحلوى[٢]، وهذا يعني أن القصد مرتبط بالذات، ومكلف الإنسان بما يقوله، وبما يعتقده، فهو مسؤول عن اعتقاداته وأقواله وأفعاله، وبالنهاية هم يعولون على المصنفات القديمة في هذا الاتجاه، يفيئون إليه في احتكام المقصد حسب نيات المتكلم.

وقد اتفق مجموعة من الباحثين اللغويين أن التداولية تقوم بدراسة أربعة جوانب، تمحورت حول الإشارة Deixis، والافتراض المسبقPresupposition، والاستلزام الحواري Conversational Implicature، وأفعال الكلام Speech Acts[٣]، وستشبعها الباحثة شرحا وتفصيلا، وتأتيها على وجهها، وخاصة ما ستقوم بأخذه معها مرتحلا إلى فصل التطبيق، ألا وهو: أفعال الكلام، والاستلزام الحواري؛ ووقع اختيار الباحثة عليهما من بين الأبعاد التداولية، لأن الاستلزام الحواري يرتبط ارتباطا وثيقا بأفعال الكلام.

---

[١] جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع: الفلسفة في العالم الواقعي، ترجمة سعيد الغانمي، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٦م، ١٠٢، وهذا التعريف يفصل التداولية عن السلوكية لأنه يقر بوجود الحالات الذهنية (المقاصد) من خلال جمل تعبر عنها بصفة تواضعية (الاعمال اللغوية)، مما يمكن من ملاحظة الحالات الذهنية بملاحظة السلوك اللغوي للأفراد؛ انظر لمزيد بسط القول: آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ٤٣.

[٢] لمزيد بسط القول انظر: جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع، ١٠٢-١٠٣.

[٣] انظر: محمود نحلة، آفاق جديدة، ١٥.

٢- الأبعاد التداولية

أ- الإشاريات

أما المحور الأول فتمثل بالإشارة أو الإشارية، ويطلق عليه تسمية أخرى تمثلت في الإشاريات[١]، وهي التي تعمد إلى السياق لفهم النص؛ لاحتوائه على عناصر إشارية Deictics لا بدَّ مما ليسَ منهُ بدّ في الرجوع إلى المرجع الذي تحيل إليه لمنع اللبس، ووصول الرسالة إلى متلقيها كما أرادها المتكلم[٢]، فالتفسير الدلالي للعبارات والجمل المركبة يحتاج إلى أن تكون الجوانب السياقية في يد متلقف النص ومحلله، فالعناصر الإشارية مرتبطة ارتباطا وثيقا بسياق أنتج عناصرها، فكانت من ثمراته، فهل يُنسَى السياقُ الذي أخرج تلكم الثمرات؟ وهل يفهم بعيدا عنها؟

فهم العناصر الإشارية ضرورة من الضرورات التي تمنع وقوع اللبس في كلام الناس، ومن هذه العناصر: الضمائر بأنواعها، وأسماء الإشارة، وظرفا الزمان والمكان، وهلم جرًّا، وقد اختلف الباحثون في تقسيم الإشاريات، فمنهم من عدها خمسًا، وآخرون ثلاثًا، وعند بعضهم اقتصرت على أربع، والأغلب اتفق على خماسيتها، وهي: إشاريات شخصية، وزمانية، ومكانية، واجتماعية، وخطابية (نصية)[٣].

ب- الافتراض المسبق

أما المحور الثاني، فهو الافتراض السابق الذي يفترضه المتكلم عن السامع مسبقا، وتفرضه اللغة بالمواضعة المشتركة معها، فيكون المقصد الدلالي المتعين معلومًا عند متلقف الخطاب، ومن الأمثلة التي تضرب في هذا المقام: "قال رجل لآخر: أغلق النافذة، فالمفترض سلفا أن النافذة مفتوحة، وأن هناك مبررا يدعو إلى إغلاقها، وأن المخاطب قادر على الحركة،

---

[١] وهناك مصطلح indexical expressions أو indexicals يستعمله فلاسفة اللغة للدلالة على الإشارية، وأول من وضعه بيرس. انظر: محمود نحلة، آفاق جديدة، ١٦.

[٢] انظر: محمود نحلة، آفاق جديدة، ١٥-١٧.

[٣] لمزيد بسط القول في كل قسم منها انظر: محمود نحلة، آفاق جديدة، ١٧-٢٦.

وأن المتكلم في منزلة الآمر"[١]، وهذا الافتراض المسبق يكون موصولا" بسياق الحال، وعلاقة المتكلم بالمخاطب"[٢].

ج- الاستلزام الحواري Conversational Implicature

أما المحور الثالث، فهو الاستلزام الحواري[٣]، أهم المحاور التي تتناولها التداولية في دراستها؛ لقربها منها، والتصاقها فيها، وأول من تناوله دراسة وبحثا هو الفيلسوف جرايس؛ إذ نشأت الفكرة عنده منذ بداية درسه الاختلاف بين ما يقوله المتكلم what is said، وبين ما يقصده what is meant، فالأول يعني المعنى الظاهر للسامع والذي يفهم مباشرة، ويدعى بالمعنى الصريح Explicit Meaning، والثاني هو المعنى المراد الذي يريد أن يوصله المتكلم للسامع بطريقة غير مباشرة، ويستدل عليه، السامع، من خلال وسائل الاستدلال وغيرها، ويدعى بالمعنى المتضمن أو الضمني[٤] Implicit Meaning، وهنا تكمن أهمية دراسة جرايس للاستلزام؛ البحث عن المعنى المقصود ما وراء المعنى، لأن الاستلزام يمكن إلغاؤه Defeasible في خطاب القائل للسامع إن وضح القائل ما يريده علنا بعد أن كان الغموض يحيط بقوله، فألحقه بقول مفسر له، كاشف عن وجهته التي يؤول إليها[٥].

وقسم جرايس الاستلزام قسمين: أولها الاستلزام العرفي Conventional Implicature ويقصد به ما تعارف عليه أهل اللغة في لغتهم من دلالة تختص بلفظة ما، ولا تنفك تبرح عنها؛ مثل لكن الاستدراكية التي تقع بين نقيضين، ويفهم ضمنا منها أن الحكم لما بعدها يخالف الحكم لما قبلها، وهذا ما نفهمه من المثال: (صديقتي فقيرة، لكنها كريمة)[٦]، وثانيها

---

[١] محمود نحلة، آفاق جديدة، ٢٦، وانظر ما قيل عنها عند العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني: من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، ط١، دار الأمان، الرباط، ومنشورات الاختلاف، الجزائر،٢٠١١م، ٧-٨.

[٢] محمود نحلة، آفاق جديدة، ٢٦.

[٣] ويسمى بالاستلزام الخطابي أو المحادثي؛ انظر: محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية،٨٣.

[٤] ويطلق عليه تسمية الاستلزام الحواري أو المعنى غير المباشر "غير صريح".. انظر: العياشي أدراوي: الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ١٥.

[٥] انظر: محمود نحلة، آفاق جديدة، ٣٢-٣٣، ٣٨.

[٦] ضرب محمود نحلة مثالا عليه: My friend is poor , but honest؛ انظر: محمود نحلة، آفاق جديدة، ٣٣.

الاستلزام الحواري Conversational Implicature الذي يتغير بتغير السياق الذي يرد فيه[١].

وقد اهتدى جرايس إلى مبدأ يجيب عن أسئلته التي دارت في ذهنه حول الاستلزام الحواري، وهي "كيف يكون ممكنا أن يقول المتكلم شيئا ويعنى شيئا آخر؟ ثم كيف يكون ممكنا أيضا أن يسمع المخاطب شيئا ويفهم شيئا آخر؟"[٢]، فأنشأ مبدأ التعاون Co-Operative Principle، هذا المبدأ الحواري المستند على قواعد أساسية، "يتحقق بها التعاون بين المتكلم والمخاطب وصولا إلى حوار مثمر"[٣]، صنفت من حيث الكم والكيف والعلاقة والأسلوب كالآتي[٤]:

- مبدأ الكم Quantity: تقديم معلومات مكثفة لا تحتوي على حشو الكلام، ولا فيها معلومات أكثر مما يلزم به المقام.
- مبدأ الكيف Quality: تتحدث بما تعتقده صحيحا، وتمتلك بشأنه حججا كافية.
- مبدأ العلاقة أو المناسبة (Relevance): الحديث بما يمد الصلة بالموضوع الأساس وله علاقة به، فلا يخرج عن صلبه.
- مبدأ الأسلوب أو الطريقة (Manner): الابتعاد عن ازدواجية المعنى، وتجنب اللَّبسAmbiguity، والتكلم بإيجاز، ووضوح وتسلسل الأفكار أثناء عرضها بشكل منظم بعيدا عن الغموض Obscurity في التعبير.

ويلاحظ على هذه المبادئ أنها قواعد تضبط الحوار، وتضع شروطا على المتكلم اتباعها لإيصال المعنى كما قصده للسامع، تحدث عنها القدماء في كتبهم، كالجرجاني والسكاكي وغيرهما، وما غابت عن ذهنهم، وجاءت بمسميات أخرى كمقتضى الحال، وفنون الخبر والإنشاء[٥].

---

[١] انظر: محمود نحلة، آفاق جديدة، ٣٣.

[٢] محمود نحلة، آفاق جديدة، ٣٣-٣٤.

[٣] محمود نحلة، آفاق جديدة، ٣٤.

[٤] انظر: ج.ب.براون وج.يول، تحليل الخطاب، ص٤٠، ومحمود نحلة، آفاق جديدة، ٣٤-٤٠.

[٥] انظر لمزيد بسط القول فيما قالوه عن تلكم المبادئ: الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ٥٣٠، ٥٣٢، ٤٠٥، والخطيب القزويني، أبو المعالي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن (٧٣٩هـ)، الإيضاح في

د- نظرية أفعال الكلام Speech Acts Theory

إن نظرية الأفعال الكلامية لها قيمتها ومكانتها عند علماء النفس ونقاد الأدب، والفلاسفة، واللغويين، وغيرهم، ومع ظهور الدرس التداولي، عدت التداولية مرادفة لنظرية أفعال الكلام، وقد شغلت فكر أوستن، أحد فلاسفة اللغة، عندما رأى أن فتجنشتاين توصل إلى أن وظيفة اللغة لا تقتصر على الوصف، بل هي أعمق من ذاك، وتتناول وظائف مختلفة، منها الأمر والتمني والشكر والقسم والتحذير... وهلم جرّا، وفي حديثه عن تعدد معنى الكلمة الواحدة بتعدد استخدامنا لها في السياق، وكذلك معاني الجمل، وكلا المعنيين يختلف معناه حسب استعمال منشئ الخطاب لها، فالمعنى هو الاستعمال meaning is use، وما ذهب إليه فتجنشتاين جعل أوستن يرد على فلاسفة الوضعية المنطقية في عدهم اللغة وسيلة لوصف الوقائع في العالم الخارجي بجمل إخبارية[١]، يحكم عليها بالصدق أو الكذب إن خالفت الواقع، ووصف عملهم بالمغالطة الوصفية Descriptive Fallacy؛ لاقتصار نظرتهم للغة على وصف وقائع العالم وصفا إما أن يكون صادقا أو كاذبا، فهناك عبارات تنهج نهجا مخالفا لما ذكر آنفا، تنشئ أفعالا كلامية بمجرد قولها، مثل: أنت طالق، أو أوصي بميراثي لأختي فاطمة، أو سميته أحمد، وغيرها من العبارات التي تؤدي فعلا كلاميا[٢]، فاللغة لا تقتصر على الوصف في ألفاظها وأدائها للمعاني الدلالية، بل تتجاوز ذلك سالكة سُبُلا أخرى في احتوائها وتضمنها فعلا كلاميا مؤدية إياه.

علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت،٢٠٠٣م،٢٠، والسكاكي، مفتاح العلوم، ١٦٩.

[١] يُقصد من هذا القول أن الأفعال الإخبارية تصف وقائع العالم الخارجي، وتصفها بالصادقة أو الكاذبة، والوقائع هي الأحداث التي تحدث معنا في الحقيقة، ونستطيع وصفها، فإن لم يكن للوقائع معنى فموطنها هو العالم الخارجي؛ لكونها دون موضوع، فلا تجري عليها الأحكام، فشرط لتوفر الحكم توفر موضوعه، وهذا يشبه قولنا: والد عيسى بن مريم – عليه السلام – كان نبيا، فهذه الجملة غير صادقة، ولم يتحقق فيها الموضوع، فينطبق عليها ما ورد عن فلاسفة الوضعية المنطقية في وصفها، أنها لا تطابق الواقع، ولا يحكم عليها بصدق أو كذب.

[٢] انظر: آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ٢٩-٣١، ومحمود نحلة، آفاق جديدة، ٤٠-٤٣، وبهذه النظرية، أعني نظرية أفعال الكلام، يكون أوستن سنة ١٩٦٢م أول واضع لها، ويليه سيرل، كما سنرى في ثني المبحث هذا، مطورا لها سنة ١٩٦٩ و١٩٧٦، ثم يقوم جرايس في بلّرة مبدأ التعاون في التحاور سنة ١٩٧٥م؛ انظر: مجيد الماشطة، شظايا لسانية، ٨٩.

وقد ميز أوستن بعدما لاحظ أن اللغة تحتوي على أفعال كلام بين نوعين منها، الأول نعته بالفعل الإخباري Constative وهو يصف وقائع العالم الخارجي ويلقي حكما عليها في صدقها أو كذبها، والثاني سماه الفعل الأدائي Performative يختص بإنجاز فعل كلامي، يدخل فيه الرهان والنصح والوصية والاعتذار والتسمية والوعد، ولأن وظيفته الأساسية ليست التطابق مع الواقع، فلا يوصف بالصدق أو الكذب، بل يكون موفقا أو غير موفق في إنجازه للفعل حينئذ[١].

وقد وضع أوستن شرطين للأفعال الأدائية الموفقة لتحقق نجاحها، أولها الملاءمة Felicity Conditions وتتحقق حينما تؤدي وظيفتها بطريقة صحيحة، فإن أخفقت في أدائها للفعل يطلق عليها اسم "المخالفات" Infelicities، وهي تضم قواعد إن كسرت تجلت المخالفة، وظهر الأداء بصورة غير ملائمة[٢]، وهي:

- الإجراء العرفي Conventional Procedure: يجب أن يكون مقبولا، ويتلفظ به بكلمات محددة من أشخاص معينين في ظروف معينة، محدثا أثرا عرفيا معينا كالزواج أو الطلاق.
- ملاءمة الأشخاص: أن يكون المشارك في الفعل الإجرائي مناسبا للقيام به، وملائما لتنفيذه.
- طريقة الإجراء: يجب أن ينفذ الإجراء من المشاركين بطريقة صحيحة.
- صفة الكمال: القيام بالفعل الإنجازي من المشاركين بشكل تام دون نقصان[٣].

وثانيها القياسية Regulative، وثمّ شروط لتحققها، وهي:

- أن يكون المشارك في الإجراء صادقا في أفكاره ومشاعره ونواياه.

---

[١] انظر: صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، ط١، دار التنوير، بيروت، ١٩٩٣م، ١٤٢، ومحمود نحلة، آفاق جديدة،٤٣-٤٤.

[٢] انظر: صلاح عبد الحق، التحليل اللغوي، ١٤٢.

[٣] انظر: صلاح عبد الحق، التحليل اللغوي، ١٤٢-١٤٣.

- أن يلتزم بما يلزم نفسه فيه؛ فلا ينقض العهد، وينجز الأفعال التي تحتوي عليها الألفاظ، فمثلا قولي لصديقتي: أهلا وسهلا ومرحبا بك، وبعد ذلك تصدر مني تصرفات أمامها تكشف عن عدم ترحيب بها وقبول[١].

والمقصِدُ المتعيّنُ من هذه الشروط القائمة عند أوستن أنها تحقق الملاءمة للفعل الأدائي، نتلمس موضعها في تقسيمته السابقة التي جزّأها إلى جزأين، الجزء الأول خاص بالشخص المكلف بالفعل الإنجازي وإن خالف الشروط يقع خِلال[٢] ناتج عن وجود خلل بين وضع الصيغة للفعل الأدائي وبين تنفيذها، فمثلا فعل الزواج يكون فعلا عقيما، دون أثر، ومحاولة باءت بالفشل، إن لم يفلح بها صاحبها، أما الجزء الثاني فهو خاص بإنجاز الفعل بطريقة ينقصها التمام، فالمكلف لم يخلص في أدائه الفعل، وأنجزه دون جودة في العمل، أي الإجراء ملائم والتطبيق سيّء، كأن يقول: "إنني أعدكم بفعل هذا.."، ولا توجد عنده النية بالوفاء بالوعد، وتطبيقه كما تم الزعم به، وأطلق أوستن على تلكم المخالفات اسم مساوئ الاستعمال Abuses[٣].

وقد اتضح بعد هذا التمييز عند أوستن أن الأفعال الإخبارية تتداخل مع الأفعال الأدائية في بعض وظائفها، حتى عاد يسأل نفسه: "كيف ننجز فعلا حين ننطق قولا؟"[٤]، فتوقف عند

---

[١] انظر: صلاح عبد الحق، التحليل اللغوي، ١٤٣، ١٥١-١٥٣، ومحمود نحلة، آفاق جديدة، ص٤٥، وقد قصد أوستن بالمشاعر أن يكون الشخص الذي قام بإنجاز الفعل لديه نفس مشاعر الشخص الآخر المشارك، مثل قولي في بيت العزاء لزميلة لي: إنني أشاطرك هذا المصاب الجلل، ونفسي تقول غير هذا، فأدائي للفعل كان على نحو غير مخلص وصادق، وأما الأفكار أن يؤدى الفعل الكلامي فيها على نحو صادق بتقريريته، ومثال النوع التقريري، أن أقول للمتهم وأنا أعلم في قرارة نفسي أنه متهم؛ أنت بريء! إن الفعل الذي صدر مني يوازي عنصرًا من عناصر الكذب، أما النية فهي تغيب عندما يخالف المشترك الفعل الأدائي، كقوله: "إنني أعدك بكذا وكذا"، ولا يوجد في نيته أي وفاء للوعد، فقد يقوم به مع غياب النية بالوفاء به، فيعتريه النقصان، وعدم الكمال.

[٢] الخلال Misfires تسمية سماها أوستن عندما يقع المشارك في أداء الفعل في مخالفات للقواعد الأربعة، وقال في حقّ مسماها صلاح عبد الحق أنها غاية في الدقة؛ انظر: صلاح عبد الحق، التحليل اللغوي، ١٤٣.

[٣] انظر: صلاح عبد الحق، التحليل اللغوي، ١٤٣-١٤٥.

[٤] محمود نحلة، آفاق جديدة، ٤٥.

مركبات الفعل الكلامي، معرجا على سُهمتها التركيبية، فقد وجدها تتركب من ثلاثة أفعال، لا يمكن فصلها عن بعضها إلا لغرض دراسي، وهي[١]:

- الفعل اللفظي Locutionary Act: عمل قولي يتحقق عند التلفظ بشيء ما، ويتألف من أصوات لغوية تنتظم في تراكيب نحوية سليمة، تخرج بالمعنى الأصلي.
- الفعل الإنجازيIllocutionary Act : المعنى الكامن وراء المعنى الأصلي الذي يؤديه الفعل اللفظي، فهو عمل متضمن في القول من أمر أو وعيد أو نصيحة، وكذلك دواليك، حتى غدا هذا الفعل لبّ نظرية أفعال الكلام، والمسمّى الآخر لها، ففي عرف اللغويين والباحثين نظرية أفعال الكلام هي النظرية الإنجازية، وجهان لعُملة واحدة.
- الفعل التأثيري Perlocutionary: الأثر الذي يتركه الفعل الإنجازي عند السامع[٢].

وهذا مثال من محض فكري يجمع الأفعال الثلاثة في مضمونه: أن تقول الأم لابنتها: (اجلبي لي الدواء من الصيدلية). فالأم في قولها أنجزت فعلين متتاليين، أحدهما العمل القولي يتمثل في قولها الجملة، والآخر العمل المتضمن في القول بأمرها لابنتها بإحضار الدواء. وفي إجابة ابنتها عليها بالقول: (انتظري؛ إني أشاهد التلفاز) تنجز الأعمال اللغوية الثلاثة: العمل القولي عندما نطقت بجملة القول، والعمل المتضمن عندما أخبرتها بالانتظار وعدم الرغبة الآنية في إحضاره، وتنجر الابنة العمل اللغوي الثالث عمل تأثير بالقول بترديدها جملة تقنع والدتها في الانتظار حتى انتهاء ما تشاهده على التلفاز.

وفي هذه الأفعال يظهر الفعل الإنجازي متواشِجًا بعلاقة متّصلة مشتبكة مع الفعل اللفظي والتأثيري، حتى غدا قوة إنجازية، جعلت أوستن يصنف الأفعال الكلامية على أساسها لخمس فئات، وهي:

---

[١] انظر: آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ٣١-٣٢، ومحمود نحلة، آفاق جديدة، ٤٥-٤٦.

[٢] وردت هذه الأفعال الثلاثة عند محمد يونس علي على هذه الشاكلة:

أ- الفعل اللفظي، ويقصد به عملية النطق بالجملة المفيدة التي تتفق مع قواعد اللغة.

ب- الفعل غير اللفظي، ويراد به الحدث الذي يقصده المتكلم بالجملة، كالأمر أو النصيحة.

ج- الفعل المترتب عن النطق، وهو التأثير الذي يكون للحدث اللغوي في المتلقي، كطاعة الأمر، أو الاقناع بالنصيحة، أو تصديق المتكلم أو تكذيبه. انظر: محمد يونس علي، مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤م، ٣٤-٣٥.

١- الأفعال المتعلقة بأحكام Verdictives: ومرادها التلفظ بقرارات رسمية أو غير رسمية، تصدر من جهة قانونية كالحاكم أو القاضي، مثل هذه الألفاظ: أضمن، أميز، أرتب، أقيم، أحسب، أحلل، أبرئ، أشخص... وكلها أفعال تتعلق بأحكام لها صلة وثيقة بالصدق ونقيضه الكذب.

٢- أفعال الممارسة Exercitive: عرج فيها بالحديث عن الحكم الفاصل الذي يصدره الحكم أو القاضي، فهي ممارسة لسلطة معينة، مثل: أوظف، أورث، أحكم على، ألتمس، أرفض، أطرد، أصفح، أختار، ألغي، أوجه، أرجئ.

٣- الأفعال الإلزاميةCommissives: قصد منها تعهد المتكلم بفعل شيء ما، وأمثلتها من قبيل: أعد، قصد، أعتزم، أعاهد، أخمن، سوف، أخطط، أصمم على.

٤- الأفعال المتعلقة بسلوك Behabitives: وهي رد فعل لسلوك معين صدر من الآخر، قد يكون هذا السلوك قد حدث أو على وشك الحدوث، مثل: الاعتذارات، والتحيات، والشكر، والاعتراضات، والرغبات.

٥- الأفعال التفسيرية Expositives: تتضمن تقديم رأي، أو مبررات، أو أدلة وبراهين لتكون حجة دامغة، وهدفها التفسير والإيضاح، ومن أمثلتها: أؤكد، أصف، أسأل، أقرر، أستنتج، أوافق، أنكر، أفهم، أدرك[١]، والحقّ أن كلا منها يفضي إلى الآخر، ويلتقي عليها، ومردّ ذلك إلى الجزء الأول الذي يتصدرها، وهو "الأفعال"، وهذه الأفعال قد يجيء اثنان منها أو أكثر مجيئا صالحًا، لا يتدافعان في المعنى البتةَ، وأضرب مثالا على ذلك: الأفعال المتعلقة بالسلوك والذي نهجها الفاعل بعدّها ردَّ فعل، لا بد أنه ألزم نفسه على نهج هذا السلوك، ولم يكن الرد عشوائيا، فيلتقي في هذه الحالة مع الأفعال الإلزامية، وكذلك دواليك مع بقية الأفعال المفضي أحدها إلى الآخر.

والناظر لما جاء به أوستن في نظريته الخاصة بأفعال الكلام يجد أن النقص يعتريها، وما هي إلا نقطة انطلاق وبداية تأسيسية للمفاهيم التي تتضمنها، وخاصة مفهوم الفعل الإنجازي الذي عد مفهوما مرادفا لها، وبقيت نظرية أوستن بحاجة لتحسين وتطوير يطرأ على بنيتها التأسيسية، وتحدث إضافة عليها، وتدارك ما غاب عنه وتغيب عن ذهنه؛ فتداركها

---

[١] انظر: صلاح عبد الحق، التحليل اللغوي، ٢٢٢-٢٢٤، وقد وردت تسميتها عند محمود نحلة بهذا الترتيب: أفعال الأحكام، أفعال القرارات، أفعال التعهد، أفعال السلوك، أفعال الإيضاح؛ انظر: محمود نحلة، آفاق جديدة، ٤٦.

الفيلسوف الأمريكي جون سيرل ليشبعها دراسة وبحثا؛ فوضع منهجية لها أسسها واعتباراتها، جاء فيها الحديثُ عن الفعل الإنجازي والقوة الإنجازية، وتشكيلهما البؤرة المركزية لنظرية أفعال الكلام، فليس من العجب أن يقال "نظرية سيرل في الأفعال الكلامية"[١]، وملخص نظريته على النحو الآتي:

- للقوة الإنجازية دليل نستدل منه على مكمن القوة، يكشف عن نوع الفعل الإنجازي الذي يؤديه المتكلم نطقا أو كتابة، ويتمثل في نظام الجملة word–orderوصيغة الفعلmood،والنبر Stress،والتنغيمIntonation،وعلامات الترقيمPunctuations
- الفعل الكلامي يرتبط بمراد المتكلم، ويحكمه العرف الاجتماعي واللغوي.
- رمى إلى تطوير شروط الملاءمة عند أوستن، فأدخلها في تطبيقه على معظم الأفعال الإنجازية، وهدفت إلى التمييز بين الأفعال الكلامية، وتمثلت في:

١– شروط المحتوى القضوي[٢] Propositional Content: شروط توجب لتحققها أن يحمل الكلام معنى قضويا، يتحقق في أفعال الإنجاز كالوعد مثلا، حيث يلزم المتكلم نفسه بإنجازه في المستقبل إن دل زمن الحدث على ذاك، وأمثّل على ما ذهب عليه سيرل بهذا المثال: اذهب لسريرك، الوقت تأخر. فلفظ اذهب هو القوة المتضمنة[٣] في

---

[١] انظر: محمود نحلة، آفاق جديدة، ٤٧، وصلاح عبد الحق، التحليل اللغوي، ٢٢٤–٢٢٥.

[٢] تعمدت الباحثة استخدام صيغة المحتوى القَضَوِي لأنها أصبحت مصطلحًا أو كالمصطلح في نظرية أفعال الكلام، وهي نسبة إلى القضية التي تقوم على مسند ومسند إليه، كقولي جاء زيد، فقد أسند فعل المجيء (المتحدث به) إلى زيد (المتحدث عنه)، وتقوم أيضا على الإحالة داخل السياق أو خارجه باستخدام الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والإشاريات الزمانية والمكانية، وغيرها... ولمزيد اطلاع على معناها المحملة به انظر إلى تعريفها الذي جاء في كتاب "آفاق جديدة"، ومما ذكره المؤلف في التعريف أن المحتوي القضوي هو المعنى الأصلي للقضية: محمود نحلة، آفاق جديدة، ٤٨، وفي المعجم هي من المادة "قضي"، أي الحكم، وإحكام الأمر وإتقانه، ومنه القضاء الفصل في الحكم، وسمي القاضي قاضيا لأنه يحكم الأحكام وينفذ أمره في الحكم، انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة "قضي"، وابن منظور، اللسان، مادة "قضي".

[٣] يقصد به سيرل العمل المتضمن في القول، وهو ما يسميه القوة المتضمنة في القول، وما يتصل بمضمون العمل يسميه المحتوى القضوي؛ انظر لمزيد بسط القول في تلكم التسمية: آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ٣٣.

القول، والتلفظ بجملة الوقت تأخر المحتوى القضوي، حيث أبلغ المخاطب بمقصده من طلبه الخلود للنوم.

٢- الشرط التمهيدي Preparatory: وشرطه الذي يحققه أن يكون بمكنة المتكلم أو المستمع إنجاز الفعل؛ وذلك لعدم إبانة الفعل للمتكلم والمخاطب عن المقدرة على إنجازه في ظروف طبيعية أو عدم المقدرة على ذاك.

٣- شرط الإخلاص Sincerity: أن يكون المتكلم أو السامع صادقين فيما يقولانه من فعل إنجازي، مخلصين في أداء الفعل.

٤- الشرط الأساسيEssential: محاولة المتكلم التأثير في المستمع حتى ينجز فعله الموكل به[١].

ولم يكتف سيرل بهذا، فقدم تصنيفا مغايرا عن تصنيف أوستن لأفعال الكلام، يقسم خمسة أقسام، بناء على أسس منهجية ثلاثة كما نلحظها في الجدول الآتي[٢]:

تصنيف سيرل لأفعال الكلام

القواعد المنهجية	الإخباريات	التوجيهات	الالتزاميات	التعبيريات	الإعلانيات
الغرض الإنجازي	وصف المتكلم واقعة معينة من خلال قضية، يحتمل فيها الفعل	محاولة المتكلم توجيه المخاطب لفعل شيء ما، من خلال الأمر،	التزام المتكلم بعمل مضمون الفعل في المستقبل، مثل أفعال الوصية والوعد.	التعبير حيال موقف نفسي معين، بكلمات الشكر، والتهنئة،	إعلان تأدية فعل معين؛ كإعلان الحرب مثلا، وغايتها إحداث تغيير في

[١] انظر: محمود نحلة، آفاق جديدة، ص٤٨.

[٢] انظر: محمود نحلة، آفاق جديدة، ٤٩-٥٠.

	الصدق والكذب.	والتشجيع، والنصح.		والمواساة، والاعتذار	الوضع القائم.
اتجاه المطابقة[1]	من الكلمات إلى العالم.	من العالم إلى الكلمات.	من العالم إلى الكلمات.	لا يوجد؛ لأن المتكلم لا يقصد جعل الكلمات مطابقة للعالم، ولا العالم مطابقا للكلمات.	من الكلمات إلى العالم، والعكس صحيح.
الإخلاص	اتصاف القول بالصدق،	شرطه الرغبة الصادقة.	شرطه القصد.	شرط مهم فيه الإخلاص	لا تحتاج لهذا الشرط.

[1] هذا مثال يوضح مقصد سيرل من اتجاه المطابقة نقلا عن أنسكوم Anscombe، وهي تلميذة فتجنشتي:

- رجل أعطته زوجته ورقة فيها طلبات ليشتريها من المحل، هذا يدخل تحت باب التوجيهيات أوامر، الرجل ينظر في الورقة ويجمع من الأرفف ما هو مطلوب؛ إذن اتجاه المطابقة من العالم إلى الكلمات (القول). يحاول أن يجعل العالم يطابق الكلمات.
- بعد أن انتهى ذهب إلى العامل ليدفع الثمن، أخذ العامل ما اشتراه الرجل ووضعه على الآلة لمعرفة السعر ثم أخرج له ورقة بها الأصناف والأسعار، فهذا يدخل في باب الإخباريات واتجاه المطابقة هو من الكلمات (القول) إلى العالم. يحاول أن تطابق الكلمات العالم الموجود بالفعل.
- لو كانت المشتريات التي جمعها الرجل في الحالة الأولى ناقصة عما طلبته زوجته فالفعل الكلامي فاشل، فشل في إنجازه، والعكس صحيح. (نجاح/ فشل) في التوجيهيات.
- لو كانت قائمة الأسعار في الحالة الثانية لا تطابق ما اشتراه الرجل بالفعل، فالفعل الكلامي كاذب، والعكس صحيح. (صدق/ كذب) في الإخباريات. انظر: صلاح عبد الحق، التحليل اللغوي، ٢٢٥-٢٢٦.

	والأمانـــــة فـــي نقلـــه كما هو.				

وقد ختم سيرل نظريته في التمييز بين الفعل الإنجازي المباشر direct الذي يطابق في قوته الإنجازية مراد المتكلم في كلامه، فيكون ذلك الكلام نسخة طبق الأصل عما يريد قوله، والفعل الإنجازي غير المباشر Indirect، فيه تخالف القوة الإنجازية مراد المتكلم، فالطلب فيها يكون بطريقة مهذبة غير مباشرة، كقولنا: هل تناولني قلمي من جانبك؟ فهذه طريقة غير مباشرة لأخذ القلم مع أنها أدت معنى مباشرًا: ناولني القلم، وسماها سيرل استراتيجية الاستنتاج Inference Stratigy يصل من خلالها السامع لمراد المتكلم، وسميت عند جرايس بمبدأ التعاون الحواري، وباعثها الرئيس التأدب في الخطاب مع السامع، فأضحت السمة الرئيسة لأكثر أفعال الكلام في الخطابات هي غير المباشرة[١].

والسؤال في هذا المقام، مقام الإبانة والإفصاح، ما علاقة نظرية الأعمال اللغوية في التداولية؟ إن هذه النظرية قد ألهمت اللسانيين في تطوير بحوثهم في التداولية اللسانية[٢]، حيث يذهب جون روس بالقول إن كل جملة لها بنية سطحية وأخرى عميقة، وأن الجمل التي لا تتضمن في بنيتها السطحية فعلا إنشائيا صريحا لا بد من أن تحمل معنى الإنشائية في بنيتها العميقة، وسمى ذلك بالفرضية الإنشائية[٣]، ولكن لم تصمد نظريته أمام الفيلسوفين بوير وليكان لأنهما لاحظا أن المعنى سيكون نفسه عندما نقول "المطر يهطل" والقصد "أقول إن المطر يهطل"، ولكن المعنى يختلف، وليس كما ذهب إليه روس، فالقول الأول لا يكون صادقا إلا إذا كان المطر يهطل فعلا، وأما القول الثاني فإن قوله صادق بغض النظر عن وجود مطر أم لا[٤]. وعليه نجد أن القولين مختلفان بالمعنى، الأمر الذي استدعى بوير وليكان بتسمية

---

[١] انظر: محمود نحلة، آفاق جديدة، ص٥٠-٥١، وقد تطورت التداولية في أوروبا القارية وخاصة في فرنسا بعد ظهور أعمال أوستين وسيرل، فأصبحت جزءا لا يتجزأ من اللسانيات، وانطلق التفكير بما يسمى التداولية المندمجة المعتمدة على مسألة الاقتضاء، أي المضمون الذي تعبر عنه الجملة بكيفية غير صريحة، انظر: آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ٤٧، ٤٨.

[٢] انظر: آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ٣٤.

[٣] لمزيد بسط من القول انظر: آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ٣٤-٣٦.

[٤] انظر: آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ٣٦.

فرضية روس المفارقة الإنشائية التي تعني "أن جملا مختلفة وليس لها بالتأكيد المعنى نفسه، يتم افتراض أنها متكافئة في المعنى وبالتالي متكافئة في الشروط التي تحدد صدقها وكذبها"[١].

والناظر في نظرية أفعال الكلام يجد لها أصولا وإلماحاتٍ في التراث اللغوي عند القدماء، ويكفينا لفت النظر لما قاله الجرجاني، يلخص فيه ما تقدم، وهو "لا بد للخبر من مخبر به، يوصف هو بالصدق والكذب... وجملة الأمر أن "الخبر" وجميعَ الكلام، معانٍ ينشئها الإنسان في نفسه، ويُصَرِّفها في فكره، ويناجي بها قلبه، ويراجع فيها عقله، وتوصف بأنها مقاصدُ وأغراضٌ، وأعظمها شأنا "الخبر"، فهو الذي يتصور بالصور الكثيرة، وتقع فيه الصناعات العجيبة"[٢]، وقد توسعت تلكم النظرية أيضا في الدراسات حتى وصلت الدراسات التربوية التعليمية، فدرست التفاعلات الصفية التي تؤدى بين المعلم وتلميذه، فوجدت دراسات منها دراسة سينكلير Sinclair وكولتهارد Coulthard التفاعلات اللغوية بين المعلم والمتعلم في الفصل الدراسي، وتحدثوا عن الفعل اللغوي/ الكلامي[٣].

---

[١] آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم، ٣٦، ولمزيد بسط القول انظر المرجع نفسه، ٣٨.

[٢] الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ٥٢٨.

[٣] انظر: بهاء الدين مزيد، تبسيط التداولية، ١٠٣.

الفصل الثاني: آليات التماسك النصي في خطب الكامل: دراسة تطبيقية نصيّة

- خطبة الرسول محمد ﷺ
- خطبة الحجاج

خطبة الرسول محمد ﷺ: استشراف الاتساق النصي والانسجام النصي

- **تأسيس**

١- المبحث الأول: وسائل الاتساق النصي

- تمهيد
- الاتساق النحوي: الإحالة، الوصل، الحذف.
- الاتساق المعجمي: التكرار، المصاحبة المعجمية.

٢- المبحث الثاني: وسائل الانسجام النصي

- تمهيد

أولا: السياق وخصائصه

١- طرفا الخطاب: "المتكلم والمتلقي"

٢- ثنائية الزمان والمكان

٣- نقطتا الابتداء والانتهاء

ثانيا: البنية الكلية (موضوع الخطاب)

ثالثا: البنى النصية الكبرى

رابعا: ترتيب الخطاب

خامسا: البنى النصية الصغرى

سادسا: العلاقات الدلالية

١- التفسير

٢- السببية

٣- التقابل

تأسيس

تناولت الباحثة سابقا مفهوم النصية وآليات تكشف عن بواطنها الظاهرة والمخفية، وندخلها الآن حيز التطبيق بعد تلكم التجليات، " ففي الكلام حلقات مفقودة يجب البحث عنها، حيث إنّ الكلام حتى إن ظهر على أنه سلسلة من الوحدات الدالة إلا أنّ الكثير من مضامين هذه الدوال يبحث عنها في الدوال نفسها أو في أمور أخرى"[١]، وللكشف عن معنى القول المقصود بحذافيره علينا العودة لهوية المتحدث والمتحدث له، والمكان والزمان، وغيرها من الأمور، وبالرجوع إليها نتمكن من استبطان تجاويف المعنى الخطابي المقصود وغير المقصود[٢]، وأنّى لنا ذلك دون النظر للوحدات النصية التي تبين عن بلاغة المخاطب، "والسداد في النظم، والمعرفة بالقصد، والبيان في الأداء، وصواب الإشارة، وإيضاح الدلالة، والمعرفة بالقول، والاكتفاء بالاختصار عن الإكثار، وإمضاء العزم على حكومة الاختيار"[٣]، وتناسب صدوره وأعجازه أو تفككه وعدم الجني من ألفاظه صورة حسنة، ونقف عند خطبة الرسول ﷺ بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير، وقد وردت في "الكامل" على هذه الهيئة:

"وخَطَبَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم، فحمِدَ الله وأثْنى عليه، ثم أقْبَلَ على الناس، فقال: "أيُّها الناسُ، إنَّ لكم مَعالِمَ فانْتَهُوا إلى معالِمِكُمْ، وإنَّ لكم نِهاية فانْتَهوا إلى نِهايَتِكُم، فإنَّ العبدَ بين مَخَافَتَيْنِ: أجَلٍ قد مضى لا يدْرِي ما الله فاعِلٌ فيه، وأجَلٍ باقٍ لا يَدْري ما الله قاضٍ فيه، فَلْيَأْخُذِ العبدُ من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشَّبيبَةِ قبل الكِبَرِ، ومن الحياة قبل الممات، فوالذي نفسُ محمد بيدِهِ ما بعد الموت من مُسْتَعْتَبٍ، ولا بعدَ الدُّنيا من دارٍ إلا الجنّةُ أو النارُ"[٤].

---

[١] ذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل، ١٢٢.

[٢] انظر: ذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل، ١٢٣.

[٣] هذا مما ذكر عن عبد الله بن محمد المعروف بالباحث عند تقديمه تعريفا عن البلاغة: القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق (٤٥٦هـ)، العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده، تحقيق محمد عبد الحميد، ط٥، دار الجيل، بيروت، ١٩٨١م، ٢٤٧/١.

[٤] المبرد، الكامل، ٢٧٠/١-٢٧١، و(المعالم) مفردها معلم وتعني العلامة التي تتميز بها الحدود أو الأثر الذي يستدل منه على الطريق، ويقصد بها حدود الله وأحكامه. و(مستعتب) مصدر ميمي، يقصد به طلب الرضا والصفح؛ إذ ليس بعد الموت من طلب للرضا من الله فالآخر دار جزاء، وانقضى العمل بانتهاء الدنيا؛

المبحث الأول: وسائل الاتساق النصي

تمهيد

يشكل الاتساق محورا مهمًّا في بنية النص، يكمن في الصلة بين المستويات اللغوية التي تجري أحكامها على اللغة، وتتم في نظام لغوي يفضي كل مستوى فيه إلى الآخر بعلاقة ترابط وتناغم فيما بينها، يتناول هذا المبحث المستوى النحوي والمعجمي دراسة تبرز الاتساق وتجلي معالمه على النحو هذا:

- الاتساق النحوي: الإحالة، الوصل، الحذف.
- الاتساق المعجمي: التكرار، المصاحبة المعجمية.

أ- الاتساق النحوي

١- الإحالة

قد يحتاج المتكلم أن يحيل بعضا من الألفاظ في تعابيره المستخدمة على عنصر محال إليه وفقًا لما يقتضيه النص والمقام[١]، وتنقسم الإحالة إلى إحالة مقامية خارجة عن النص، وإحالة نصية تحدث في داخل النص كما ذكر في معرض الحديث عنهما في الخطبة السابقة، فالإحالة النصية تقسم إلى قسمين: إحالة قبلية "تعود على مفسر سبق التلفظ به"[٢]، وإحالة بعدية "تعود على عنصر إشاري مذكور بعدها في النص ولاحق عليها"[٣]، وعملية الإحالة تحيل على ضمائر أو أسماء إشارة أو أسماء موصولة وغير هذا، ويظهر ذلك في الخطبة على النحو الآتي:

انظر: المرصفي، سيد بن علي، رغبة الآمل من كتاب الكامل، (د.ط)، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٠م، ٢/٧-٨، وأحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ط١، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٣م، ١/٥٥.

[١] انظر: أحمد عفيفي، نحو النص، ١١٦-١١٧.

[٢] أحمد عفيفي، نحو النص، ١١٧.

[٣] أحمد عفيفي، نحو النص، ١١٧.

أ- **الإحالة المقامية**

ترجع الخطبة في نصيتها إلى قائلها، ويترك القائل إشارات تشير إلى ذاك حسب ما اقتضاه المقام منه، ومع تتبع خط سير النص من بدايته حتى نهايته تبدأ خيوط دلالية يستدل منها عليه، حيث بدأ بقوله: "أيُّها الناسُ، إنَّ لكم مَعالِمَ... " فالمتكلم لم يصرح بهويته بعد، واستمر في خطبته قائلا بعد هنيهة: "فإنَّ العبدَ بين مَخَافَتَيْنِ: أجَلٍ قد مضى لا يدْرِي..."، وفي قسمه الذي أقسمه بذاته الشريفة اتضح للقارئ أن صاحب الخطبة هو الرسول الأكرم محمد ﷺ، ولو أنه أظهرها في مستهل الخطبة لما أعطت المعنى الذي أعطته في خواتيمها؛ فموضعها الذي جاءت عليه يظهر شدة قول الخطيب وأهميته بعدما تلقفه السامع، فأوجب الأخذ به، وخاصة أنه خرج من فم أطهر الخلق الرسول المصطفى محمد ﷺ.

أ- **الإحالة النصية**

- **الإحالة الضميرية**

الضمير في الأصل أن يكون ظاهرا، فإن أضمر عد عدولا عن أصله المعتاد في الربط بين الجمل، وهذه الضمائر تعبر عن معان عامة تعطي معنى الحضور والغيبة، والإفراد والتثنية والجمع، والتكلم والخطاب، وتبين عن جنس المخاطَب ذكر كان أو أنثى[1]، وفائدة الضمير تأكيد الكلام الموجه للمخاطَب من الخطيب، فيكون داعما ومساندا لمرجعها الظاهر، ناهيك عن تحقيق الانسجام بين الجمل، وكل هذه الضمائر العائدة إلى مرجعها الظاهر تتآلف لتكوين معنى دلالي واحد، وما ذلك كذلك لو أن الجمل التركيبية لم تلتزم بالتركيب النحوي على الوجه الصحيح.

أشارَ عُنوانُ هذه الجزئيةِ منَ المبحثِ إلى الجانبِ الذي سيدرسُ في الخطبةِ، وهو الإحالةُ على الضَّمائرِ بأنواعِها الظَّاهرةِ والمُستترَةِ، وقد برز النَّوعُ الأوَّلُ منَ الإحالةِ النَّصيَّةِ وهي القبلية، التي تختص بعودة الضمير على سابق له قد يكون ظاهرا وقد يكون مقدرا تزيل القرائن إبهامه، وانجلت في الخطبة حسب الجدول الآتي:

---

[1] انظر: تمَّام حسان، الخُلاصة النحوية، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٠م، ٩٢.

العنصر المحيل	العنصر المحال إليه	نوع الضمير
إنَّ لكم مَعالِمَ فانْتَهُوا إلى معالِمِكُمْ	لفظة الناس	متصل
إنَّ لكم نِهاية فانْتَهوا إلى نِهايَتِكُم	لفظة الناس	متصل
أجَلٍ قد مضى لا يدْرِي ما الله فاعِلٌ فيه	لا يدري: لفظة العبد فيه: لفظة الأجل	مستتر تقديره هو متصل
أجَلٍ باقٍ لا يَدْري ما الله قاضٍ فيه	لا يدري: لفظة العبد فيه: لفظة الأجل	مستتر تقديره هو متصل
فَلْيَأْخُذِ العبدُ من نفسه لنفسه	لفظة العبد	متصل
ومن دنياه لآخرته	لفظة العبد	متصل
فوالذي نفسُ محمد بيدِهِ	لفظ الجلالة جلّ اسمه وتعالى: الله	متصل

في قراءة تحليلية للجدول تخرج الباحثة بملاحظتين، أولاهما أن العنصر المحال إليه يعود على المتلقي بكلتا لفظتيه: الناس، والعبد؛ فإطلاق لفظة الناس على السامعين من منطلق أنها جماعة عامة تسمع للخطيب فيخاطبهم بما يناسب المقام، وأما لفظة العبد فأطلق مسماها لأننا نحن وهم عبيد لله؛ فبيده مقاليد أمورنا وتقضى كما يريد لها أن تكون، وثانيتهما أن ثمة عنصرين أحيل إليهما في النص، وهما لفظ الجلالة الله، أحيل عليه مرة واحدة، وفي المقابل لفظة الأجل تمت الإحالة إليها مرتين لا غير، فالإحالة عليهما قليلة بالمقارنة مع الإحالة العائدة على المتلقي وعددها ١٢ إحالة، فنستشف من هذا أن المقصود من الخطاب هو المتلقي، وأن الخطاب له، وعليه المعول، ولم تكن اللفظتان الأخريان إلا تقوية للخطاب ودليلا دامغا يدعم ما وجه للمتلقي من كلام.

ما ران عليه إلفنا أن الضمائر ما هي إلا قرائن للربط بين الجمل يأخذ بعضها برقاب بعض، تحكم السبك، وتقوي العرى على أسس نحوية تسهم في إعادة الضمير على المحيل عليه، فلو لم تكن تلكم الضمائر لما تحقق المعنى المرجو في ذهن الخطيب، ولوقع اللبس في الفهم[١]، فلو فرضنا في قوله: "إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم" أن الضمير غير موجود فكانت العبارة: "إن هناك معالم فانتهوا إلى المعالم" لقصد بتوجيهها جميع ما خلق الله من الناس حتى الجان، ولكانت في عرف السامع كلاما عابرا لا يخصه، فوجود الضمائر في هذه العبارة منعت وقوع اللبس، وبينت أن الكلام موجه لجنس بني آدم لا غيره فهم الناس، وهم العبيد لله، و"الغرض من الربط بالضمير هو الاختصار وأمْن اللَّبس بالتكرار وإعادة الذّكر؛ فوجود الضمير يشير إلى تعلّق الجملة الثانية بصاحب الضمير"[٢].

كما نلحظ على الجدول أن الضمائر المتصلة والمستترة علقت بصاحبها، وكان المرجع متقدما لفظا قبل الضمير[٣]، وقد جاءت مرة دالة على مفرد كقوله: (من نفسه لنفسه)، ومرة دالة على جمع كمثل قوله: (إن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم)، فالأولى عائدة على مفرد وهي العبد، والثانية عائدة على جمع وهم الناس، فاقتضى المقام من الخطيب أن يلائم بين الضمير ومرجعه، فزاد ذلك من لحمة النص واتساقه.

وقد راوح الخطيب بين استخدامه لأنواع الضمائر المتصلة والمستترة، فمرة يقصد بها متكلما حاضرا كقوله: إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، فيعطي الكلام قوة للسامع لتركيز انتباهه وعدم تشتته فهو المقصود منها، فالإحالة إليه بالضمير تأكيد أنه المقصود من الكلام، فيتجنب اللبس في الخطاب، ومرة يقصد بها غائبا كقوله في الأخيرة: فوالذي نفس محمد بيده، إذ إن المشار إليه في الضمير الغائب يعود للفظ الجلالة، وهو مفهوم ضمنا لدى السامع، فأزيل إبهامه لمعرفته إياه لمن يرجع، وظلَّ النص محافظا على ترابطه دون إضافة كلام يكون حشوًا لا فائدة ترجى منه.

---

[١] انظر: تمَّام حسان، الخُلاصة النحوية، ٨٠-٩٠.

[٢] مصطفى حميدة، نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، ط١، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، القاهرة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٧م، ١٥٣.

[٣] انظر لمزيد بسط من القول عن التقدم اللفظي أو الحقيقي بتقدمه باللفظ والرتبة: عباس حسن، النحو الوافي، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٥م، ١/٢٥٦-٢٥٨.

٢ – الوصل

هو ربط معاني الجمل بعضها ببعض بوساطة أداة من أدوات العطف، فتمنح النص مساحة لتشريك ما بعدها بما قبلها[١]، والمتأمل لهذا النص يجد أن حروف العطف المشكلة لحبل الوصل بين الجمل والمفردات منها ما كثر استخدامه كحرف الواو، ومنها ما دون ذلك كأداة الوصل (أو)، وقد أفادتا دلالات تفهم من السياق على النحو الآتي:

أ- **حرف العطف "الواو"**

كما ورد سابقا[٢] أنه يجمع المعطوف والمعطوف عليه لفظا ومعنى، ويضفي معنى دلاليا على السياق، ومن الأمثلة الواردة عليه في قول الخطيب:

- **إنَّ لكم مَعالِمَ فانْتَهُوا إلى معالِمِكُمْ، وإنَّ لكم نِهاية فانْتَهوا إلى نِهايَتِكُم[٣].**

أفادت الواو في الجملتين إضافة إلى معنى الوصل فيما بينها دلالة الترتيب، فالإنسان يبدأ بالالتزام بمعالم الله وينتهي بتجنب كل منكر وكل مخالف لشريعة الله، ويراقب جميع أفعاله، وقد جاء الوصل في النصّ في مقام النصح والإرشاد.

- **فإنَّ العبدَ بين مَخَافَتَيْنِ: أجَلٍ قد مضى لا يدْرِي ما الله فاعِلٌ فيه، وأجَلٍ باقٍ لا يَدْري ما الله قاضٍ فيه.**

إن الجملتين المتعاطفتين تنتميان إلى الجمل الخبرية المخبرة عن مقابلة تجري بين فترتين زمنيتين يعيشهما الإنسان في حياته: ما مضى، وما سيكون، وهاتان لهما كل العلاقة بأجلين متعلقين بخوف من الخروج من دائرة حدود الله؛ لأنهما الكفيلتان بصعوده إلى معارج الكمال، والدنو من الجنان.

إن نسق المتعاطفات في هاتين الجملتين المتغايرتين المجتمعتين تحت ظلال موصوف واحد وهو الأجل، ارتبط وموصوفهما بهالة من الخوف في مقام يستدعي من الإنسان ألا يتعلق بالماضي، ويعول عليه ما قام به من فعل أو عمل، بل عليه أن يبقى في حركة دائمة ينظر

---

[١] سبق تفصيل الكلام على الوصل في خطبة الحجاج.

[٢] سبق ذكره في خطبة الحجاج.

[٣] المقصود بالنهاية هنا: "غاية كل شيء وآخره، وذلك لأن آخره يَنهاه عن التمادي فيرتدع": ابن منظور، اللسان، مادة "نهي".

لأفعاله بعين قلبه ليبقى متيقظا لها، مدخلا عليها ما يلزمها من تقويم يقوّم به الاعوجاج؛ لأنه لا يعلم ما الله قاض بها، ولا يعلم ما نتيجته المكتوبة في دار الجزاء.

وبقيت الإشارة إلى أن المتعاطفين في سياقهما ارتبطا ارتباطا متلاحما مع الموضوع العام للخطبة، فمراقبة الإنسان لأعماله في أجله المكتوب عليه تعتمد على التزامه لحدود الله والعمل بها، "وبذلك تصبح جزيئات المتعاطفات المجتمعة في النص غير مساوية في صورتها العامة لجزئياتها متفرقة خارج النص؛ ذلك أن الأزهار –مجتمعة في باقتها–ليست هي نفسها متناثرة خارجها"[1]، فتشابك العطف مع الموضوع العام للخطبة منحه قوة ربط لن تكون هي نفسها لو أن العلاقة بين المتعاطفات والعنوان لم يتحدا.

- **فَلْيَأْخُذِ العبدُ من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشَّبيبَةِ قبل الكِبَرِ، ومن الحياة قبل الممات.**

بنية التعاطف في هذه الجمل تشكل نسقا من عطف أشباه الجمل على بعضها بالترتيب الذي يطرأ على دورة حياة الإنسان، فالدنيا والشبيبة والحياة معطوفات على النفس الإنسانية الدنيوية، ويقابلهم ثلاثة أخر، وهي: الآخرة والكبر والممات معطوفات على النفس الإنسانية الأخروية، فتشكلت لوحة مؤتلفة من تضاد بين كل معنيين، فالنفس في الدنيا غير النفس في الآخرة، ويقابل نفس الدنيا ما يفعله الإنسان من أعمال وأفعال في شبيبته وحياته، وبعدهما تتوقف الأعمال حينما تصل النفس للآخرة والممات، فأشربت واو العطف معنى الجمع والمشاركة بتواجدها بين تلكم الأنساق العطفية التي تشكلت في صورة الأعمال التي يقوم بها الإنسان في دنياه، وتظهر في مرآة الآخرة.

- **فوالذي نفسُ محمد بيدِهِ ما بعد الموت من مُسْتَعْتَبٍ، ولا بعدَ الدُّنيا من دارٍ إلا الجنّةُ أو النارُ.**

تكشف هذه الأنساق العطفية عن علاقة وصل واتصال تجمع بين حياة الإنسان بعد موته، وحياته ووصوله إلى دار القرار، ووقوفه بين يدي ربه وَقْفةَ تشريف تبعث به إلى الجنة، أو وقفة خيبة ترسل بناصيته إلى النار، ويلتصق العطف ههنا بالعنوان العام للخطبة، فمن

---

[1] عفت الشرقاوي، بلاغة العطف في القرآن الكريم: دراسة أسلوبية، ط١، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١، ١٥٥-١٥٦.

التزم معالم الله وقوانينه المظهرة للحلال والحرام فهو ليس بحاجة إلى إعطاء الأعذار أمام الله جلّ وعلا، وإن ظلم نفسه بنفسه سيلجأ إلى طلب المعذرة من الله أو المسامحة أو منحه فرصة أخرى، ولكن هيهات هيهات له ذلك بعد فوات الأوان.

ب-حرف العطف "أو"

- **ولا بعدَ الدُّنيا من دارٍ إلا الجنّةُ أو النارُ**

شركَ المعطوفُ المعطوفَ عليه في حكمه الإعرابي، وكان حبل وصل بين المفردتين المتناقضتين بوساطة حرف العطف (أو) الدالة على معنى التخيير في عُرفنا اللغوي وما عهدنا على سماعه ونحن على مقاعد الدراسة، ولكن في هاتين الجملتين اختلف المعنى وجاء بالأداة على هيئة التخيير[١]؛ لأن الإنسان في حقيقة الأمر غير مخير، ويظلّ عاجزًا وذليلا لله، فالجنة والنار بيد الله وحده، وليست بأيدي أحد من السامعين أو من البشر جمعاء، فوقع الخِيار في معرض تحريك الهمم وإثارة الرغبة في نفوسهم، فيوحي لهم بأنهم مخيرون إن أحسنوا العمل الصالح في الدنيا؛ فبدأ بالجنة ثم النار، بعدّ ذلك حافزًا يثير في وجدانهم الحصول عليها والفوز بجنانها، وليس يخفى أن ذكر المتناقضين: الجنة والنار، يُدخِل في نفسِ السّامع شعورا بالخوف، وَعلّة ذلك إدراكُ الصورة فور سماعه إياها من المرسل.

وهكذا يظهر أن للوصل معاني دلالية مردها إلى السياق وبنية النص الداخلية والخارجية كما يتبين من الأمثلة المذكورة آنفا، المرتبطة ارتباطا متواشجا مع الموضوع العام للخطبة، والمتضمنة أربع دلالات، أولاها الترتيب: الالتزام بالرتبة في عرض السابق قبل اللاحق، وثانيتها الإخبار: فأخبرت بالأحداث بما يجمعها صلة مع سابقها عطفا ووصلا، وثالثتها الهبة: بأن توهب الجمل أو المفردات المعطوفة حياة وروحا تقدح شرارتها في الذهن، فتكون أقل عرضة للنسيان، ورابعتها العدول، فقد عدل الخطيب عن المعاني الحقيقية للمعطوفات إلى معانٍ أخرى كالنصح والإرشاد، وإلى معانٍ أخرى لأداة العطف كحرف (أو) الذي أتى ليدلّ على هيئة التخيير، وليس التخيير بعينه.

---

[١] لمزيد بسط القول عن أو التخيير ومجيئها على هيئة التخيير، انظر: حسن هادي نور، الفصل والوصل في خطب نهج البلاغة، مجلة كلية الآداب، جامعة المثنى، العراق، مج٢، ع١٠١، ٢٠١٢، ٢٣٤.

٣- الحذف

وسيلة من وسائل التماسك النصي سبق التحدث عنها في الخطبة السابقة، ومظهر من مظاهر الإيجاز في الكلام بألفاظ قليلة تتضمن معاني كثيرة، تكون عصارة فكرة تتمحور حول عظة أو عبرة أو تجربة أو خبرة ما، ومن نماذجها في الخطبة:

نماذج من الخطبة	المحذوف
فليأخذ العبد من نفسه لنفسه	الاسم المفرد: (زادًا) بعد لفظة العبد

من ضروبِ حذف المفرد الاسمُ[١]، نحو قوله: (فليأخذ العبد من نفسه لنفسه) أي: فليأخذ العبد زادا من نفسه لنفسه. فحذف المفعول به لدلالة السياق عليه، فمعنى الزاد ما يكسبه الإنسان من دنياه خيرا أو شرا بأعماله[٢]، فهي متناغمة مع معنى السياق الكلي، ومتواشجة مع قريناتها، ومتوافقة بمعناها مع قوله تعالى: ﴿وتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[٣]، وفي هذا هي مألوفة لدى السامع، وحذفها جاء في موضعه، ولم يكن فيه ضرب من تكليف في معرفته[٤].

---

[١] وفي هذا يقول ابن جني: "وأما حذف المفرد فعلى ثلاثة أضرب: اسم وفعل وحرف": ابن جني، أبو الفتح عثمان (٣٩٢هـ)، الخصائص، تحقيق عبد الحكيم بن محمد، (د.ط)، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ١٩٩٧م، ٢٤٤/٢.

[٢] انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "زود".

[٣] الآية (البقرة، ١٩٧).

[٤] لمزيد بسط القول في الحذف ومسوغاته، انظر: ابن جني، الخصائص، تحقيق عبد الحكيم، باب "في شجاعة العربية"، ٢٤٣/٢-٣٠٠.

ب- الاتساق المعجمي

١ - التكرار

يعد التكرار من أشهر أساليب العربية في تأكيد المعنى، والبعد عن الالتباس في فهم المراد، فضلا عن تركه الأثر في النفس، وهو نوعان؛ أحدهما التكرار اللفظي بإعادة اللفظ أو المادة أو البنية، والآخر التكرار المعنوي ويسمى بالترادف[١]، وأما اللفظي فمن أنواعه التكرار المحض (الكلي) ومن أمثلته:

- **إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم... وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم.**

هذا التكرار الحاصل في اللفظ والمعنى، والمتجلي في لفظتي "معالم"، و"نهاية" ليس مستهجنا، بل الفائدة منه زيادة تنبيه السامع، وإيقاظه من سِنته والغَفلة، ولأنهم رعيته وهو مسؤول عنهم يذكرهم بما فيه نجاتهم من هذه الدنيا الزائلة، وما فيه صلاحهم بهذه النصيحة الواجبة منه إليهم، فالتقى التكرار التنبيهي مع معنى السياق الكلي في موضوعه وفكرته العامة، "وهذا من التكرير الذي هو أبلغ من الإيجاز، وأشد موقعا من الاختصار"[٢].

- **فإن (العبد) بين مخافتين... فليأخذ (العبد) من نفسه لنفسه.**

تكررت لفظة (العبد) لمّا أريدَ تأكيدُ معناها وتثبيته في النفس، فالسامع عبد لله، وعبد الله عليه أن يرضي خالقه، ويحاسب نفسه في تقصيرها في جنب الله، وكلا التكرارين اتصلت به (ال) التعريف، فأكسبته معنى العموم، فلا يقصد عبد بعينه، بل كل العباد، والعبد قد يكون مؤمنا أو كافرا، والفرق بينهما أن المؤمن من التزم بأحكام الله وعمل بما جاء به الرسول ﷺ فاستحق تكريم الله له بعبوديته إياه، فكانت سببا بارتقائه وقربه له فيكون من عبيد الرحمن وعباده المكرمين، وأما الكافر فهو من تمرد على حدود الله، وعلى كل ما أتى به الرسول الكريم ﷺ فبقي في نطاق العبد دون منزلة عند الله تكون له بها السيادة، وعليه يكون اختياره للفظ عبد تناسب المقام الذي قيل فيها، فالجميع في الحياة عباد،

---

[١] ورد بسط من القول عن التكرار وتفصيل بيان عليه في خطبة الحجاج في معرض الحديث عن الاتساق المعجمي، فانظر فيها، وكذلك في كتاب محمود عكاشة، تحليل النص: دراسة الروابط النصية في ضوء علم اللغة النصي، ط١، مكتبة الرشد، القاهرة، ٢٠١٤م، ٣١٨-٣٢٠.

[٢] ابن الأثير، المثل السائر، ١٩/٣.

والخيار لهم إما أن يكونوا من الكفار، أو أن يتنازلوا عن هذا الخيار لمراد ربهم، فيكونوا بقربه تعالى[1].

وما اشتملت عليه اللفظة في التكرارين من عموم يترابط بحبل متين مع نهاية السياق في ذكر المتناقضين: الجنة والنار، للفصل بين المؤمن والكافر، مما زاد النص تناغما وتآلفا واتساقًا.

- **(أجل) قد مضى... و(أجل) باق.**

اتضح التماسك النصي في لفظة (أجل) وتكرارها عندما تباينت الثانية عن الأولى في معناها الموحية به في السياق، فالأولى دالة على الزمن الماضي والمنتهي، والثانية دالة على الزمن الحاضر والمتبقي، والمراد منهما تذكير السامع بزمنين يتصلان كل الصلة بالإنسان، مما يؤدي إلى تحريك الهمة إلى عمل الأعمال الصالحة فيما تبقى من عمر.

- **فليأخذ العبد من (نفسه لنفسه) ... فوالذي (نفس) محمد بيده.**

كررت لفظة النفس ثلاث مرات ولكن اختلفت في النسبة، فالأولى والثانية يقصد بها نفس العبد، والثالثة تنسب للرسول محمد ﷺ، وهي ملك له لا لغيره، فنقف بين نفسين، أولاها للمتلقي العبد، وثانيتهما للمتكلم الرسول، فكونتا حلقة اتصال وتواصل بشركتهما سويا في الخطاب، فلا يتنحى إحداهما جانبا من الذكر، وهذا يقوي علاقة أطراف النص مع طرفي الخطاب: المتكلم والسامع.

<u>وأما النوع الثاني من التكرار فهو التكرار المعنوي، ومن نماذجه الدالة عليه:</u>

- **فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب... ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار.**

---

[1] انظر تفسير الشعراوي آية الفرقان، ٦٣: "وعباد الرحمن...": الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي: خواطري حول القرآن الكريم، ط١، دار أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩١م، ١٠٤٩٧/١٧-١٠٥٠٠؛ حيث فرّق بين لفظة عبد جميع عبيد، وعباد جمع عبد، فالأولى تتضمن المؤمن والكافر والطائع والعاصي، فمن التزم منهما الإيمان وحدود الله كان من عباد الله وقريبا له فيتكون عبوديته عبودية سيادة لا عبودية قهر، وإن اختار الكفر على الإيمان بقي في نطاق لفظة العبد وجمعها عبيد؛ لأن المرض والموت ليسا بيده، ويقهره الله بهما.

- **فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته... ومن الحياة قبل الممات.**

إن نظرنا في قوله "ما بعد الموت" وقوله "ولا بعد الدنيا" بعين التأمل والتدبر كان ثمَّ ترادف مستحسن يقلل من تكرار اللفظ ذاته، يذكِّر بدار الجزاء، وأن الآخرة نتيجتها مستمدة من أعمالهم في الدنيا، فتكون حُجة بينة للرسول الأكرم يوم القيامة إن نفوا أنه قام بتذكيرهم فيها، فاستخدم ألفاظًا مغايرة تعبر عن المعنى نفسه، وما هي إلا إشارات تنبيهية بدافعٍ من المحبة والخوف عليهم، والرغبة في فوزهم بالجنان.

وإن تأملنا قوله (الدنيا) و(الحياة) في المثال الثاني، فهما كلمتان مترادفتان أو متقاربتان دلاليا، تختلفان لفظا وتتحدان معنى سياقيًّا، فالدنيا تكاد ترادف الحياةُ، والحياة تكاد ترادف الدنيا، كلتاهما تتضمّن المبالغةَ في تأكيد على المنفعة من الدنيا، وجني الخير من ورائها، فالإتيان بالمرادف، أو المقارب الدلالي في مواضع مختلفة يجعل السامع يستحضره ويسترجعه ويحفظه في ذهنه، ويهمه أمره مما يدعو به إلى اليقظة والتدبير.

٢- المصاحبة المعجمية

يحققُ التضامُ أو ما يسمى بالمصاحبةِ المعجميةِ السبكَ النصيَّ، ويزيد في الاتساق المعجمي بين الألفاظ من خلال ما يكونه من علاقات لغوية عدة، ومنها:

- **علاقة التضاد:** الكلمة وضدّها، مثل قوله: (فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات)، وفي قوله: (ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار)، فكل لفظة فيها تفضي إلى الأخرى، وتستدعي ذكرها في مقام يريد فيه الخطيب أن يتخيل السامع الصورة وضدها ليقارن بينهما، فتكون أشد تأثيرا في نفسه، ورساخة في السمع، بعد أن يتمثل المشهد أمامه ويتوصل إلى أن الآخرة هي الغاية التي يجب أن يسعى في طلبها العبد، لأنها كما قال _تبارك وتعالى_ في كتابه الحق: **﴿يا قومِ إنما هذه الحياةُ الدنيا متاعٌ وإنَّ الآخرة هى دارُ القرار﴾**[1]، وقوله: **﴿وإنَّ الدار الآخرةَ لهى الحيوانُ لو كانوا يعلمون﴾**[2]، فطابق بين (الدنيا والآخرة)، و(الشبيبة/الكبر)، و(الحياة/الموت)، وبين (الجنة والنار).

---

[1] غافر (الآية،٣٩).

[2] العنكبوت (الآية،٦٤).

- **علاقة التراتب:** التدرج في القول من السابق إلى اللاحق كما ران عليه إلفنا، فقوله: (ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات) هو ما نتعوّد سماعه والتصديق به، فالدنيا تسبق الآخرة، ومرحلة الشباب قبل مرحلة الكبر، والحياة قبل الموت، ولا يعقل أن يسير العكس في هذه التصنيفات، فالمحافظة عليها كما أوجب المنطق لها أن تكون مما له الأثر في تماسك النص واتساقه.
- **علاقة الاندراج في صنف مخصص:** يندرج قوله (ومن الشبيبة قبل الكبر) تحت صنف المرحلة العمرية، فهي أطوار يمر بها الإنسان من الصبا ثم الشباب حتى الكهولة، فالمرحلتان المذكورتان في قوله آنفا تنتميان إلى حقل دلالي واحد تحت صنف مخصص لهما.

كشفت هذه العلاقات عن مواطن التعالق الدلالي ذات السهمة الكبرى في بناء النص وتحقيق نصيته، وأظهرت العلاقات بهيئة منتظمة ومتَّسقة مع السياق الكلي.

المبحث الثاني: وسائل الانسجام النصي

- تمهيد

أولا: السياق وخصائصه

١- طرفا الخطاب: "المتكلم والمتلقي"

٢- ثنائية الزمان والمكان

٣- نقطتا الابتداء والانتهاء

ثانيا: البنية الكلية (موضوع الخطاب)

ثالثا: البنى النصية الكبرى

رابعا: ترتيب الخطاب

خامسا: البنى النصية الصغرى

سادسا: العلاقات الدلالية

١- التفسير

٢- السببية

٣- التقابل

المبحث الثاني: وسائل الانسجام النصي

تمهيد

إن وسائل الانسجام تهتم بالعناصر النصية كالعنوان والموضوع والزمان والمكان وغيرها، وهي كذلك تصبّ اهتمامها على علاقات غير مباشرة في داخل النص تساعد المتلقي على فهم النص وتأويله وتوصله إلى المعنى الخفي، وبوساطتها يتم ترجيح وجه واحد من الوجوه النحوية الجائزة[١]، وهذا الانسجام يتكامل مع الاتساق، ويشكلان قوة بنائية تخرج نصا تاما متكاملا بعناصره اللفظية والمعنوية، فالانسجام "عمله في العلاقات المعنوية الدلالية لا الشكلية النحوية، ويُعنَى بربط مفاهيم النص لا بالربط اللفظي لظاهر النص، وهذا الاختلاف بينهما هو الأساس في كونهما متكاملين، فلن يوجد نص إلا بتوافرهما معًا داخله"[٢].

أولا: السياق وخصائصه

أداة ستمهد الطريق للباحثة للوصول إلى مواضع المعنى الخفي في النص، وسبر أغواره سعيًا لإدراك خفاياه، ثم الاعتلاء به إلى البنية السطحية الظاهرة ليتّضح بعد خَفاء، وقد شَمِل طرفي الخطاب: المتكلم والمتلقي، وثنائية الزمان والمكان، ونقطتي الابتداء والانتهاء.

وهذا شرح مستفيض موسع يتناول كل جزئية على حِدة:

١- طرفا الخطاب: المتكلم والمتلقي

إنّ مهمةَ المتكلمِ ههنا توجيه الخطاب للمستمعين، والمتكلم في هذه الخطبة هو الرسول محمد ﷺ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف[٣]، خير خلق الله،

---

[١] انظر ما قيل عن الانسجام في الفصل الأول من البحث: الدراسة النظرية، وانظر كذلك المقدمة التمهيدية لمبحث الانسجام في الدراسة التطبيقية لخطبة الحجاج.

[٢] صالح عبد العظيم الشاعر، شعر محمد مهدي الجواهري: دراسة نحوية نصية، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، القاهرة، ٢٠٠٩م، ١٣٨.

[٣] انظر نسبه المتفق عليه والمختلف فيه: ابن هشام، أبو محمد عبد الملك المَعافِريّ (٢١٨هـ)، السيرة النبوية، تحقيق عمر تدمري، ط٣، دار الكتاب العرب، بيروت، ١٩٩٠م، ١/١١-١٢، وأخرجه البخاري في صحيح البخاري، كتاب: البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، كتاب: مناقب

ولد يوم الاثنين في شهر ربيع الأول في مكة المكرمة، وفي ولادته من أمه آمنة خرج معه نور أضاء بيتها، وقيل قصور بُصْرى[١] في الشام أضيئت بنوره، ودخلها النور المحمدي، وقد ولد الرسول الأكرم مختونا، وشق جبريل صدره وأزال منه العلقةَ السوداءَ حظَّ الشَّيطانِ، فجاء إلى الدنيا بكامل نظافته وطهارته[٢]، ودعا لدين الله مذ جاءته النبوة، ونزل عليه القرآن الكريم "وهو ابن أربعين، فمكث بمكة ثلاثَ عشرةَ سنةً؛ ثمَّ أمِرَ بالهجرة، فهاجرَ إلى المدينة، فمكثَ بها عشرَ سنين، ثمَّ تُوُفِّي صلى الله عليه وسلم"[٣]، وتوفي الاثنين من شهر ربيع الأول، وعمره ثلاث وستون[٤].

وحياته من مولده حتى مماته حياة بركة ورحمة، قضاها في إخراج الأمة من الضلالة إلى الهداية؛ وسيرته المحمدية تؤكد أنه بعث رحمة للعباد، وكان بهم رؤوفا رحيما[٥]، وصدق الحقّ في حق نبيه المصطفى: ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[٦]، وفضلا عن مسماه الذي أطلق عليه آنفا، سمّي باللسان؛ لشدة فصاحته وبلاغته[٧]، وخطبته التي أمامنا خير دليل على تسميته

الأنصار، باب: مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، ط١، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ٩٤٢، والسُّهَيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (٥٨١هـ)، الرَّوْضُ الأُنُفُ في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، ط١، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٧م، ١/٤٤-١٠٩، وابن قيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر (٧٥١هـ)، زادُ المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٩م، ٢٣. ولقد اعتمدت الباحثة على المتفق في جميع النسخ من نسب يعود للرسول.

[١] بصرى "أول ما افتتح من بلاد الشام"، وقد يكون المقصود منها أحد قرى بغداد: محمد بن يوسف الشامي (٩٤٢هـ)، سُبُل الهدى والرّشاد في سيرة خَير العباد، تحقيق مصطفى عبد الواحد، (د.ط)، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٧م، ١/ ٤١١.

[٢] انظر: محمد الشامي، سبل الهدى والرشاد، ١/٤١٠-٤٢٧، ٥٦٤.

[٣] أخرجه البخاري في صحيح البخاري، كتاب: مناقب الأنصار، باب: مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٣٨٥١، ص ٩٤٢.

[٤] انظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٤٤٦٦، ص ١٠٩٣.

[٥] انظر: محمد الشامي، سبل الهدى والرشاد، ١/٥٥٨، ٥٧٣.

[٦] الآية (التوبة، ١٢٨).

[٧] انظر: محمد الشامي، سبل الهدى والرشاد، ١/٦٢٠.

تلك، وهي تؤكد للبشرية جمعاء أنه أرسل داعيا إلى الله، وسراجا للأمة يرسم لهم طريق الهدى والعفاف والطهارة حتى يفوزوا بالجنان، فكان يذكرهم بالآخرة والثواب والعقاب بين الفينة والأخرى حسب حاجة المتلقي لها، و"لقد حظيت الرسالة المحمدية بالخلود، واختصت بالبقاء والدوام إلى يوم القيامة، فكانت نفس محمد ﷺ جامعة لجميع الأخلاق العالية، والعادات السنية"[١].

وخطبته التي وجهها للعامة تحذر الناس من الدنيا وفتنها كيلا تنسيهم الآخرة دار القرار، وكان الرسول ﷺ يخطب خطبا محورها تصويب الأنظار على الآخرة وتقديم النصيحة للعامة فيما يعود عليهم بالنفع ويصبّ في مصلحتهم الشخصية، وهدفها خوفه من تأثير الدنيا في أمته، والترغيب فيما عند الله من جنة تعوض عن الدنيا كلها[٢].

وما ورد سابقا ما هو إلا لمحة سريعة أخذت من سيرة الرسول الأكرم ﷺ التي يطول الحديث فيها عن مكانته ومواقفه الشريفة وأخلاقه الرفيعة.

والخطبة التي وقع عليها الاختيار من كتاب الكامل تفصح عن اسم الخطيب، فقوله: "فوالذي نفس محمد بيده..." فيقسم بقسم عظيم يتجلى فيه اسمه الشريف محمد ﷺ، فيبين من خلاله أن نفسه الطاهرة، وهو رسول الله بيد الله، جلّ وتعالى، وتفصح عن رسالته الدعوية الخالدة حتى قيام الساعة، المبتعدة كل البعد عن انتهاك حدود الله، وارتكاب ما نهى عنه الشرع.

وأما متلقو الخطاب[٣] فهم جماعة من الناس، وأغلب الظنّ أنهم من أهل المدينة المنورة مهاجرين وأنصارًا، فأكثر خطب الرسول، كما قيل، كانت تقال في المدينة[٤]، وهؤلاء آمنوا بما جاءت به الرسالة المحمدية، فكان الرسول حريصا على أن يسمعهم ما فيه مصلحتهم يوم

---

[١] سعد المرصفي، الجامع الصحيح للسيرة النبوية، ط١، دار ابن كثير، حولي، ٢٠٠٩م، ٢١/١.

[٢] انظر الخطب التي وردت عن الرسول تحذيرا من الدنيا وفتنها: محمد خليل الخطيب، خطب الرسول صلى الله عليه وسلم: ٥٧٤ خطبة من كنوز الدرر وجوامع الكلم، ط١، دار الفضيلة، القاهرة، ١٩٨٣م، ١٠٥-٢٣٣.

[٣] أشير ههنا إلى أن الخطب قد تكون صالحة لكل زمان ومكان، فتكون موجهة للسامع في وقتها، أي المتلقي لها وجها لوجه، ولنا اليوم، كما في خطبة الرسول ﷺ.

[٤] وأميل إلى القول في مكان الخطبة هو المدينة المنورة؛ لما ورد عن ابن القيم في رده على من قال أن الرسول كان إذ خطب توكأ على سيف، لكيلا ينسوا الناس أن الدين قام بالسيف" ومدينة النبي صلى الله علي وسلم التي كان يخطب فيها إنما فُتحت بالقرآن، ولم تُفتح بالسيف": ابن القيم، زاد المعاد، ٦١-٦٢.

القيامة، فالعَلاقة بين المتكلم (الرسول) ومتلقي الخطاب (الناس)، عَلاقة رسول بعث لهدايتهم وانتشالهم من الأوهام الجاهلية التي تبقت عالقة في أذهانهم، فكان لهم الرؤوف الرحيم اللطيف الساعي لتصحيح مسعاهم في الدنيا؛ ليتبعوا طريق النور والهداية، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وهذا ما ورد في قوله تعالى: **﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبلُ لفى ضلال مبين﴾**[1]، وقال: **﴿وما أرسلناك إلا كافّة للناس بشيرا ونذيرا﴾**[2].

وكلامه الموجه لهم في قوله: (إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم)، وقوله: (إن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم) اتصل بميم الجماعة التي تعلقت بسامع الخطاب، وتبعها في ذاك التعلق واو الجماعة تأكيدا من الخطيب أن المقصود هم لا غيرهم، فاسمعوا وعوا يا أولي الألباب، وانتفعوا بما يقال، ففيه العبرة والعظة.

٢- ثنائية الزمان والمكان

إن هذه الثنائية تضم تحت جناحيها العريضين عنصرين مهمين من العناصر التي تكشف لنا عن المضامين الخفية في السياق، وتسهم في الإبانة عن دلالاته المحملة في جنباته، فضلا عما يقومان به من حبك النص وتماسكه، وهذا الجدول كفيل في إظهار الزمن الوارد في الخطبة، ودراسة موضوعه:

الزمن	موضوع الزمن
الماضي	- الخطبة التي خرجت من فم الخطيب والتي قيلت في "عهد النبي" - الأعمال والأفعال التي قام بها الإنسان في أجله الذي مضى - فترة الشبيبة

[1] الآية (الجمعة، ٢).

[2] الآية (سبأ، ٢٨).

الحاضر	- أجل الإنسان المتبقي والذي عايشه في وقت الخطبة
المستقبل	- الأعمال والأفعال التي سوف يقوم بها الإنسان في أجله المتبقي له - يوم القيامة والحساب: جنة أو نار

بقراءة تحليلية للجدول يستنتج أن الزمن العام للخطبة هو الزمن الماضي في عهد النبي محمد ﷺ، وهو الزمن الذي قيلت فيه وتلقفها المتلقي وقتها، وتحتوي على ثلاثة أزمنة في داخلها، أولها يشترك مع الزمن الماضي في أحداثه وهي ما قام به الإنسان من أعمال أو أفعال حدثت وانتهى زمانها ولا مقدرة للرجوع إليها إلا في الذاكرة، فاستخدم الفعل الماضي "مضى" في قوله: (أجل قد مضى لا يدري ما الله فاعل فيه)، وهو زمن إشاري يشير إلى انتهاء محدودية الوقت المخصصة له، ومنها أيضا فترة الشبيبة، وهي فترة يمر بها ولا يمكن أن يعود إليها في مرحلة الكبر ليصحح مسارا، أو يعدل قولا، أو يصلح عملا ما، ولذلك قال ما يشير بها إليه لفظة "قبل" في قوله: (ومن الشبيبة قبل+ الكبر)، أما الزمن الحاضر الممتدّ في المستقبل، ففي قوله: (وأجل باق لا يدري ما الله قاض فيه) فالسياق يحيل على هذا الزمن المتبقي للإنسان وهو الذي يعايشه وقت سماع الخطبة أو قراءتها، فهو زمن حاضر ومستقبلي في الآن ذاته، فهو يدل على المستقبل أيضا لأنه يتعلق بأعمال وأفعال الإنسان التي سيقضيها في أجله المستقبلي الذي لا يعلم مدته الزمنية إن قدّر له العيش فيه بمشية الله تعالى، وزمن المستقبل فيه إشارات إلى ما سوف يكون من حساب للإنسان أشار إليها السياق في قوله: (ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار).

وهذه الأزمنة الثلاثة تسهم أيّما إسهام في إنتاج النص وبناء بنيته الخارجية والداخلية، وكذلك الإبانة عن مقصد المتكلم من الخطبة، فمعرفتها تشير إلى أسباب استخدامها من الخطيب، ووضعها في موضعها الملائم لها؛ فالزمن العام أشار إلى أن الخطبة قيلت في العصر الإسلامي زمن نشر الإسلام والدعوة له، وهو الزمن الذي قاده الرسول المصطفى محمد ﷺ، فكان الخطيب والواعظ والمرشد لأمته، والأزمنة الداخلية النصية كانت متشابكة مع الموضوع العام للنص، فغزلت خيوطها مساندة في ربط الزمن بفكرته العامة، فلا يخرج عنها،

ويكون واقعيا من وحي الواقع الحاضر للسامع، فاشتبكت الأزمنة الثلاثة مع بعضها مساوقة للتركيب اللغوي، ودالة عليه، فالزمن الماضي نبه الإنسان على ضرورة الانتباه إلى ما يقوم من سلوكيات سيحاسب عليها في المستقبل يوم الجزاء، فعليه أن يتدارك ما فاته من التزام في شرع الله، والزمن الحاضر، وكذاك المستقبل أشارا إشارة واضحة إلى أنهما موضوع الخطبة، وأن الخطبة ستدور في دائرتيهما، فالتزام الإنسان بحدود الله يجب أن يكون في جميع الأزمنة التي يمر بها وهو في مراحل حياته من الصغر حتى الكبر، وفي أجله الماضي والحاضر والمستقبل، فعليه أن يغتنمها في كسب رضا الله والعمل بما يرضيه.

أما العنصر الثاني الذي لا يفارق الزمان فهو المكان، ولولاه ما كان للخطيب خطبة، وما كان له مستمعون يصغون لما يقوله، فكيف له أن يقوم بإيداع رسالته الخطابية في نفوس المستمعين دون توفر مكان يناسب المقام؟

لا توجد إشارات تشير إلى موضع الخطبة في السياق، ولكن بالرجوع رويدا إلى سيرة المصطفى يخمّن المكان، فقد يكون قد ألقاها وهو على المنبر في المسجد، أو على الأرض، أو على البعير، أو الناقة وهو في مكان آخر غير المسجد[1]، أيًّا كان يبقى المكان على أطهر بقع الأرض موضع قدمي رسول الله محمد ﷺ، وبذلك يفصح الموضع عن هوية المتلقي، فالأقرب أن يكون من أهل المدينة المنورة لأن أغلب الخطب التي وردت عن الرسول محمد ﷺ قيلت في هذا المكان كما ورد سابقا، فالمتلقي سيكون من أهل المدينة ومن حضر الخطبة من خارجها، ومنه تنتقل الخطبة على الأفواه من مكان إلى آخر، ودلالة المكان على الطهارة والنقاء والحفاظ على الإسلام والمسلمين من الرذائل والشوائب، فموضوعها سيكون لائقا بالمكان وأهله، وبما يخصهم من حيثيات الأمور.

وفي هذا المكانِ العام ذُكِرت الدنيا في قوله: (فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر..)، التي احتوت المدينة وكل مدن الوطن على أرضها، فذكرها الخطيب متحدثا فيها عن أحوال الإنسان، وفتراتهم العمرية التي سيمرون بها من الشبيبة حتى الكبر، ومنبها بأهوال القيامة التي لا يقبل فيها العذر ولا الصفح ، فقال: (فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب)، وبعد أن اتسع المكان ضيق حلقته وحصره في جنة أو نار، وهو دار الخلود، مكان البشرية في نهاية دنياهم يوم لا ينفع مال ولا بنون؛ فغدا المكان الأخير

---

[1] انظر: ابن القيم، زاد المعاد، ٦٠.

مرتكز الخطاب، ولسببه حيكت الخطبة حتى يصل الخطيب لمراده، وهو العمل الحقيقي الذي يتوج بفوز أو خسارة، وكان ذلك في قوله: "ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار"، فهذا تخصيص للمكان بعد تعميم له دلّ عليه الفعل الماضي والمضارع في قوله "أجل قد مضى لا يدري ما الله فاعل فيه" فالدلالة النحوية في هذه الجملة جمعت بين الزمنين في الدنيا الواسعة مساحة، وتضمنت جملة: "وأجل باق لا يدري ما الله قاض فيه" الزمن المستقبلي الدال على مستقبل الإنسان.

وصفوة القول في المكان أنه أتاح لنا معرفة أمرين اثنين، أولهما أن المكان العام وهو المدينة المنورة كانت له أتم العلاقة برسالة الخطيب وأهلها غاية في نيلهم الجنة، وثانيهما أن الموضوع العام وهو المعالم الدينية يرمي من خلاله الخطيب الوصول في السامع إلى نتيجة مهمة من وراء الموضوع وهي الجنة أو النار، وبذلك يكون قد خصص المكان، وحدد معالمه التي يقف عليها في نهاية المطاف.

٣- نقطتا الابتداء والانتهاء

نقطتان تشكلان طرفي الخطاب من مطلعه حتى نهايته بأسلوب متين يستخدمه الخطيب ليظهر جودة النص في سبكه وحسن صياغته، فلا تتأتى كل نقطة منهما إلا باهتمام بسبك الجمل، فتعرف معالمه التي تسمى بالابتداء، وتعرف نهاياته التي تدعى بالانتهاء، وهما أول ما يعلق بذهن السامع وآخره، فالابتداء مفتاح الخطبة، ومن خلاله يعرف الخطيب موضوعها، فقد يجذبه له أو قد لا يفعل ذلك بناء على احتياجاته واهتماماته، والانتهاء هو ما يحتفظ به السامع بعد انتهاء الخطبة أكثر من غيره من كلام لأنه آخر ما يبقى رنانا في ذهنه، ويستطيع أن يردده ويتذكره بين حين وآخر، وعليه يروم هذان الطرفان حبك النص بفتل عقده فتلا شديدا، وإحكام بناء أجزائه، كل منها يشد من أزر الآخر، فيخرج نصا محكما متقنا واضح المعالم من مبتدئه إلى منتهاه.

وإن معرفة هاتين النقطتين يؤول بنا إلى معرفة خفايا المعاني غير الظاهرة على البنية السطحية من خلال أخذ ما توصلنا إليه فيهما من معلومات في التحليل والتنقيب والتنقير عن تلكم المعاني، فهما أداتان مكملتان متممات لأجزاء النص.

فالابتداء في النص كان بالنداء (أيها الناس)، وقد حذفت أداته بسبب علاقة القرب والتحبب والتلطف من الرسول محمد ﷺ لمستمعيه، مما يدل على عطفه وحنانه عليهم، وهذا

من موجبات دعوته، فلم يرسل عليهم ليكون حاكما متسلطا، بل هاديا ومبشرا ونذيرا، واصطحب هذا النداء نقطة عنوان الخطبة المعالم الدينية التي تدل على منهج الشريعة الإسلامية، فنقطة البداية كانت في براعة حسن تسليط الضوء على الموضوع منذ البداية، فتصل الرسالة إلى السامع مستنتجة منها الغاية من الخطبة.

وأما الانتهاء فشكل حلقة الوصل مع الابتداء، لأنه كان ثمرة التزام وجهد مبذول للعمل بما جاءت به المعالم الدينية، وحصيلته تكون إيجابية أو سلبية، فقال: (ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار)، وبهذا تكون النقطتان وجهتين أساسيتين تكملان بعضهما بعضا، كل واحدة تفضي إلى الأخرى، ولا تنفك عنها، كقفل الباب والمفتاح الذي يكون خاصا لذاك القفل لفتحه، وقفل الختمة يرجع بأصوله لمفتاح مستهل الخطبة، فيكون امتدادا لفكرته التي بانت عن معالمها مذ البداية؛ فاتحدا في إظهار حبك النص وانسجام أطرافه، وإدلاء معلومات في مكنتها أن تضع يدها على مواضع الإضمار غير المعبر عنها بكل صراحة في النص.

ثانيا: البنية الكلية (موضوع الخطاب)

يتَّضح كلامُ الخطيب من خلال إدراك كُنه خُلاصته وزبدة قوله في الفكرة والغاية منه، مجردة من الزوائد، مما له بالغ الأثر في الوصول إلى الموضع الذي بُنِيَ عليه النصُّ، وحَسُنَ حَبكُهُ، وروعي تماسكه معَ العناصر التركيبية المحاطة به يَمنة ويَسرة، وفي عُلوِهِ وسُفلِه.

ويحدد الخطيب موضوع خطبته حسب حاجة المتلقي، وما يناسبه من ضروب الخطب: سياسية، دينية، اجتماعية ...، وهذه الخطبة تجاهها ديني، وهدفها التوعية بأمور الدين صلةً ووصولا إلى العقيدة الإسلامية، فما يتغيب عن ذهن المتلقي وهو غارق في أمور الدنيا في زينتها، وسحرها الخلاب، يتطلب من الخطيب تذكيره بقدر حاجته إلى سماعه بما هو ساهٍ عنه وغير متيقظٍ له، فجاءت الخطبة تدعم صلب الموضوع: الحدود الشرعية، وتعززه وتدعمه وتغنيه بأدلة وبراهين، وتربط بين أجزائه والمقدمة الاستهلالية التي تمهد للموضوع، وقفلة الختام التي تنهيها بنتائج وعواقب عمله في الدنيا، وبين هذا وذاك ينسج الموضوع بلغة تواصلية مشتركة بين الخطيب والمتلقي، ونجد أن الخطبة في إظهار الموضوع قد راعت التسلسل في عرض الفكرة وتدرجها من الزمن الماضي إلى الحاضر بألفاظ وضعت في مكانها الأليق والألبق بسياق الكلام، فربط تلكم الحدود الشرعية بحياة الإنسان التي يعيشها بين ماض انتهى ومستقبل لا يدري ما الله قاض فيه، وكان لذلك كل العلاقة بالموضوع الأساس، فمن خلال ذلك يتأمل

الإنسان في أعماله، ويسأل نفسه إن كانت أعماله السابقة يرجو منها الجنة أو لا، وإن كانت أعماله لا تقربه من الله، فعليه أن يعيد النظر في سلوكياته وتصرفاته بما يضمن له دخول الجنة؛ وربط الموضوع بالآجال وأعمار الإنسان مما تَأْنَسُ له الأذن، وتحفظه الذاكرة، ويحرك المشاعر، ويُعمل العقل فلا ينفك يبرح في التفكير فيه.

وهذا الموضوع كما تلاحظ الباحثة فيه، موجه للمتلقي، وذكره الخطيب مرة بلفظة الناس، وأخرى بلفظة عبد، وكلاهما يقصده فيهما، فكانت الألفاظ المنتقاة والمختارة للموضوع واضحة بأساليب موجزة معبرة عن الفكرة بأقل الكلام المجدي والعائد بفائدة متصلة بذؤابة المجد التي يسعى إليها خير الناس، من أعطي جوامع الكلم، البعيد كل البعد عن الحشو الذي لا طائل منه، ولا فائدة ترجى فيه.

ثالثا: البنى النصية الكبرى

يعد النص "بنية كبرى تحتوي على وحدات صغرى متماسكة ليست جملا، وإنما أجزاء متوالية"[١]، والبنية النصية الكبرى هي مخاض البنية الكلية النصية، تتشكل من بنيتين كبريين، أولاها: البنية النصية الكبرى الأولى، وثانيتها البنية النصية الكبرى الثانية، فأما الأولى فهي افتتاحية الخطبة وهي حمد الله والثناء عليه، وعادة الرسول إذا خطب أنه يصدّر بالحمد والثناء أولا لتهيئة المتلقي للخطاب، ومن ثم ينتقل إلى الموضوع الأساس[٢]، وهذا المستهل للخطبة يعد "نصا غائبا من حيث الشكل"[٣].

وأما الثانية فهي الحمالة لمضامين النص ودلالاته الأساسية، وهي:

- روح المسؤولية عند القائد: خوف الرسول على رعيته من العذاب، ومن نار جهنم، وتمثل ذلك بقوله: "إنَّ لكم مَعالِمَ فانْتَهُوا إلى معالِمِكُمْ، وإنَّ لكم نِهاية فانْتَهوا إلى نِهايَتِكُم"
- تقديم النصائح للرعية: تنبيه العباد وتذكيرهم بأن أجالهم قصيرة ومقضية، والله فاعل فيها ما يريد، حتى لا ينسوا عبادة الله فيها؛ لأن عمرهم الدائم في الآخرة، وفي ذلك

---

[١] أحمد عفيفي، نحو النص، ٢٧.

[٢] انظر: محمد الخطيب، خطب الرسول ﷺ، ٧.

[٣] عماد نعامنة، عناصر الانسجام النصي في خطبة البيعة لأبي بكر الصديق: دراسة نصية تحليلية، مجلة المنارة للبحوث والدراسات، جامعة آل البيت، عمادة البحث العلمي، مج٢٢، ع٤، ٢٠١٦م، ٣٦٢.

يقول الرسول ﷺ: " فإنَّ العبدَ بين مَخَافَتَيْنِ: أجَلٍ قد مضى لا يدْرِي ما الله فاعِلٌ فيه، وأجَلٍ باقٍ لا يَدْري ما الله قاضٍ فيه، فَلْيَأْخُذِ العبدُ من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشَّبيبَةِ قبل الكِبَرِ، ومن الحياة قبل المماتِ".

- حال العبد يوم القيامة: في يوم الحساب، يوم لا ينفع ندم ولا حسرة لن تنفع الأعذار ولن يشفع لهم ما أضاعوا وقتهم فيه بالدنيا ومن أطاعوه دون الله، ومصيرهم حسب عملهم الدنيوي، وتبدى ذلك في قوله: "فوالذي نفسُ محمد بيدِهِ ما بعد الموت من مُسْتَعْتَبٍ، ولا بعدَ الدُّنيا من دارٍ إلا الجنّةُ أو النار".

رابعا: ترتيب الخطاب

شكّلت الخطبة من مجموعة متسلسلة من الجمل، يتبع السابق اللاحق، ويلحق المعنى المعنى، وقد رتبت تلكم السلسلة من محورين متشابكين، العام أولا ثم الخاص، فكان الترتيب يسلك هذا المسلك، حيث برزت صفة العمومية بداية الخطبة متضحة حينما خاطبهم بالقول لهم: "أيُّها الناسُ، إنَّ لكم مَعالِمَ فانْتَهُوا إلى معالِمِكُمْ..." فأسلوب النداء خطاب عام لجميع المستمعين، تحدث فيه عن معالم الله وحدوده التي سنّها لعباده، ثم انتقل إلى الحديث عن الأجل الذي يقضى في هذه الحياة الدنيا، فقال: "فإنَّ العبدَ بين مَخَافَتَيْنِ: أجَلٍ قد مضى لا يدْرِي ما الله فاعِلٌ فيه، وأجَلٍ باقٍ لا يَدْري ما الله قاضٍ فيه..."، وتظهر قوة هذا الخطاب العام في قوله: " فوالذي نفسُ محمد بيدِهِ ما بعد الموت من مُسْتَعْتَبٍ"، فلا مؤمن ولا كافر باستطاعته الطلب من الله العفو والمغفرة يوم الحساب، وهذا الخطاب كله يتعلق بأمور دنيوية، من شؤون الناس عامة.

وأما صفة الخصوصية الملحقة بالخطاب، كما في قوله: "ولا بعدَ الدُّنيا من دارٍ إلا الجنّةُ أو النار"، فقد خص فيها العبد اللبيب، من فهم العبارة فأرشدته إلى التفكير في العاقبة الحالة به يوم الحساب، فوقى نفسه مكاره الزلل، وعمل بالكتاب والسنة، ومن لم يفهم الإشارة التي أشار إليها الرسول ﷺ من هذه العبارة فلن يفوز بالجنان، وبقدر الفهم تكون النتيجة في الآخرة، إما إيجابية أو سلبية، وكل منهما يجذب فئة من الناس، ولا يجمعهم كلهم في موضعه وحده.

خامسا: البنى النصية الصغرى

تخرج هذه البنى من رحم البنى النصية الكبرى لتكشف عن مدى قوة التماسك النصي بين العلائق الدلالية، وبين الوحدات اللغوية، ويقوم المحلل النصاني بالاستعانة بمبدأ التأويل ليقيد جماح عقله، فلا يسرح أنظاره وفكره فيما لا علاقة للنص به من تحليل وتأويل وتفسير، وتمثلت البنى الصغرى في خمس بنى على النحو الآتي:

- **وخَطَبَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم فحمِدَ الله وأثْنى عليه، ثم أقْبَلَ على الناس.**

هذه البنية الخارجة عن نص الخطبة، غير المشكلة في عوالمه الداخلية قد ابتدأت بالحمد والثناء على الله، فالخطبة التي تخلو من الحمد والثناء على الله، والصلاة على النبي المصطفى تسمى البتراء[١]، والرسول أكثر الخطباء تعظيما لله، وكما أن القرآن يبتدئ بالفاتحة "بإثباتها خطا وبتلاوتها لفظا"[٢]، كان الرسول يتمثلها في خطبه كما جاءت بمعناها، وبعد هذا الحمد والثناء والتعظيم والتبجيل لله، بدأ خطبته قائلا:

- **أيُّها الناسُ، إنَّ لكم مَعالِمَ فانْتَهُوا إلى معالِمِكُمْ، وإنَّ لكم نِهاية فانْتَهوا إلى نِهايَتِكُم.**

بنية دلالية تستقطب السامعين، فاتحتها: "أيها الناس"، الموحية بأن الجميع سواسية كأسنان المشط، وأن الكلام دون تمييز بين أسود وأبيض، وهذا النداء مجاز مرسل علاقته كلية، فالمراد جزء من الناس، وهم المستمعون له حال إلقائها، وهي جملة إنشائية طلبية لاحتوائها على النداء المجيء في قال نداء للقريب، مما يدلل على حبه لهم ومخافته عليهم وقربهم من قلبه، ولرفع مكانتهم أيضا فهم أهله ورعيته، ويسأل يوم القيامة عنهم فيما هو فاعل فيهم، وبعد هذا النداء التحببي بدأ في موضوع الخطبة، وهو الفكرة العامة لها، وهي المعالم حدود الله، وما سنه من شرائع على العباد الالتزام بها، والعمل بمقتضاها، وكرر لفظ النهاية كيلا يتجاوزها من بدع وضلالة، وكي يتأكدوا أن أمرهم وحياتهم تقف عند هذه الحدود، فهي قدرهم ونصيبهم، مما يؤكد على إتقان الخطيب لفن الخطبة إلقاء وتأدية واختيار لفظ ومعنى، فأقل الكلام ما قلّ ودلّ، وقد ذكر أن الخطبة أنها مكونة من عشر كلمات "خطب الرسول صلى الله عليه وسلم

---

[١] انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "بتر".

[٢] انظر: الماوردي، النكت والعيون، ١/٤٥.

بعشر كلمات: حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إن لكم معالمَ..."[1]، وما يتأتى هذا إلا لخطيب فصيح اللسان، عارف بالنفوس وأسرارها وخبير بالكلام، والكلام طوع له.

وهذا الموضوع يدور حول حياة العبد في الدنيا والآخرة، والخطيب في علم بما سيحلّ بالعبد بالآخرة إن انتقص إيمانه، وترك وراءه المعالم دون تدبر وعمل؛ لهذا قال الحق في حقه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[2].

- **فإنَّ العبدَ بين مَخَافَتَيْنِ: أجَلٍ قد مضى لا يدْرِي ما الله فاعِلٌ فيه، وأجَلٍ باقٍ لا يَدْري ما الله قاضٍ فيه.**

الخوف إن دخل القلب رق واعتبر، وإن ظل ملازما له ولم يفارقه يصل فيه إلى مقام التقوى والخوف من الله، وفي هذا يقول عزّ وجلّ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا﴾[3]، وأما الذي هو واقف بين المخافتين فهو العبد، ولفظة العبد كما جاء سابقا تعني أن الإنسان خلق ليكون عبدا لله، وكل الخلق عباد لله تنزهت أسماؤه، فدقة اللفظة توحي بخطيب أتى جوامع الكلم ليقصد بها المؤمن والكافر، فكلاهما له يقف بين عمرين، أحدهما مضى، والآخر ما تبقى، وكلاهما لا يعلم ما الله فاعل فيهما، فما ميز المؤمن عن الكافر في معرفته للغيب، فهو مغيب عنه وعن قدراتهم العقلية، ويبقى بعلم الله وحده، لا إله إلا هو، وفي مستهل التقسيم وتبيان الأجلين، يربطهما بأداة العطف لتسريع الحدث أولا، فالعمر يمضي ولا يقف على أطلال وآثار ديار، ولا يبكي ولا يستبكي، فكان أداة الربط منسجمة مع ما سبقها وما لحقها من وحدات لغوية.

- **فَلْيَأْخُذِ العبدُ من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشَّبيبَةِ قبل الكِبَرِ، ومن الحياة قبل المماتِ.**

تسير البنى على وتيرة واحدة مع ما سبقها من كلام موجه للعبد، ولكن هذه المرة بأسلوب الأمر، فالخطاب اعتلت حدته مع اقترابه للنهاية، وربما هذا الأسلوب بناء على أن خواتيم الكلام تبقى عالقة في الأذهان، فهذه الحدة بأسلوب الأمر جاءت من خوف الخطيب على رعيته من عذاب يوم القيامة، وبهذا ينفي أي شك عند السامع بعدم وجود هذا اليوم، فلا بد

---

[1] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ط٧، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٨م، ٣٠٢/١-٣٠٣.

[2] الآية (النجم، ٣: ٤).

[3] الآية (السجدة، ١٦).

من أن قوة العبارة ههنا صحبتها إشارة بانت على جسم الخطيب، ولكنها تغيب عنا لأن الخطبة كتابية، ولو كانت ملفوظة صوتًا وصورةً لما التبس علينا الأمر، ولكن ما يساعد المحل وجود هذه الأساليب التي تشير بدورها إلى تلكم الإشارات الجسدية الناطقة باسم صاحبها.

- **فوالذي نفسُ محمد بيدِهِ ما بعد الموت من مُسْتَعْتَبٍ، ولا بعدَ الدُّنيا من دارٍ إلا الجنّةُ أو النار.**

وهنا يقسم الرسول ﷺ بنفسه الشريفة بقسم ارتفعت حدته مع وصول نقطة نهاية الخطاب، ويظهر من العبارة أن لغة الجسم رافقتها، فهذا الانفعال والنَفَس المتدفق الجيّاش يحتاج إلى إشارات تؤكد كلام الخطيب، يتضح من خلالها أهمية الموضوع وقيمته في نفس صاحبه، الذي "كان خُلُقُهُ القرآن، يرضى لرضاه، ويغضب لغضبه"[1]، وقفلة الخطاب لها الصلة مع بدايته في ذكر المعالم، فبقدر التزام العبد بهذه المعالم تكون نتيجة الخيار إيجابية أو سلبية، جنة أو نار.

وخلاصة الخطبة الآخذة بالإيجاز لدورة حياة الإنسان، ومنهجه في الحياة أنه جيء بها لدرء المفاسد وإنارة الطريق للأمة كي لا تلعب بهم أهواؤهم، وينسوا حق الله عليهم، ولذلك اتحدت وتكاتفت الوحدات اللغوية لتدور حول موضوع معالم الله وحدودها بلسان عربي فصيح، ولغة سهلة الفهم لأن الموضوع لا يحتاج إلى تعقيد أو لغرائب الألفاظ، فهدفها واضح ودال عليه، ضمت بقية المعايير النصية من المقصدية باستخدام النص للوصول إلى قصدية ما، ومن مقبولية قيلت فيما يحتاجه السامع، وما يؤثر على المسامع والأفئدة، ويحرك فيها ما كان ساكنا ومغيبا عن ذكر الله، والإعلامية بتوقع ما سيأتي من قول، فالجنة تقابلها النار، وكذلك دواليك من عُرف السامع، ورعاية الموقف ومناسبته في الزمان والمكان التي قيل فيها، وأما التناص فكل الخطبة تناص من القرآن الكريم وما يؤول إليه من هدف سام، وعلى سبيل المثال البنية الصغرى الأخيرة التي ذكرت قبلا، تتناسب مع قوله تعالى: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾[2]، وقوله

---

[1] الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين (٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق حسان عبد المنان، ط١، بيت الأفكار الدولية، عمان، ٢٠٠٤م، ١١٨.

[2] الآية (الأعراف، ٥٣).

تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[1]، وما كان ذلك كذلك، إلا لأنها قيلت على لسان خطيب "يفتتح الكلام، بأشداقه[2]، ويختمه بأشداقه، ويتكلّم بجوامع الكَلِم، فَصْل لا فُضُول ولا تقصير"[3]، فصلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا.

سادسًا: العلاقات الدلالية

وسائل انسجام داخلية تعمل مع بعضها لإظهار ترابط النص، و"لا يكاد يخلو منها نص يحقق شرطي الإخبارية والشفافية مستهدفا تحقيق درجة معينة من التواصل، سالكًا في ذلك بناء اللاحق على السابق، بل لا يخلو منها أي نص يعتمد الربط القوي بين أجزائه"[4]، تسمى بالانسجام النصي الذي اختص بأدوات تتكشف للقارئ أو المتلقي لمساعدته في فهم النص، والجنوح إلى أقرب التأويلات القريبة من مقصد المتكلم، وستتناول الباحثة من تلكم العلاقات ما يأتي:

١ – التفسير

يقدم الخطيب تفسيرا لما يقول عندما تستدعي الحاجة إلى هذا، نحو قوله:

- **فإنَّ العبدَ بين مَخَافَتَيْنِ: أجَلٍ قد مضى لا يدْرِي ما الله فاعِلٌ فيه، وأجَلٍ باقٍ لا يَدْري ما الله قاضٍ فيه**

فقد استدعت الحاجة من الخطيب أن يفصح عن المخافتين، وكأن أحد السامعين يسأل: متى يخاف العبد ربه؟ ومتى يخشاه؟ فيكون الخوف شاملا للأزمان التي يعايشها الإنسان بين ماض وحاضر ومستقبل، فالزمن الماضي في قوله: (أجل قد مضى لا يدري ما الله فاعل فيه)، وزمن حاضر وهو زمن سماع الخطبة وتلقيها من الخطيب، ونلمحه واقفا بين الأجلين على الفاصلة التي تفصل بينهما، وزمن مستقبل ظهر في قوله: (وأجل باق لا يدري ما الله قاض فيه)،

---

[1] الآية (غافر، ١٧، ١٨).

[2] "الأشداق جانب الفم، وإنما يكون ذلك لرحب شدقيه. والعرب تمتدح بذلك": السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ)، زهر الخمائل على الشمائل: أوصاف النبي، تحقيق مصطفى عاشور، (د.ط)، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٨٨م، ٨٣.

[3] الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق حسان، ١١١–١١٢.

[4] محمد خطابي، لسانيات النص، ٢٦٩.

فالأزمنة الثلاثة تتطلب من العبد أن يداوم على خشية الله ومراقبته في جميع الأفعال؛ كيلا يقع في فاحشة أو سوء عقاب يكون سببا في دخوله جهنم؛ وبهذا يكون الخطيب قد قدم تفسيرا يناسب كون الإنسان يعيش مراحل حياته متعلقة بالزمن، ومتحدا بها، منذ تاريخ ولادته حتى تاريخ وفاته.

٢- السببية

الربط بين أجزاء النص عن طريق تلك العلاقة يظهر السبب فيما ذهب إليه الخطيب من قول، ومن النماذج عليها:

- **إنَّ لكم مَعالِمَ فانْتَهُوا إلى معالِمِكُمْ، وإنَّ لكم نِهاية فانْتَهوا إلى نِهايَتِكُم**

فقوله: (انتهوا إلى معالمكم) لم يقم بتفصيلها وتقديم شرح لها، ويعود ذلك إلى وجود معالم واضحة بينة للناس عامة، لذا قال: (إن لكم معالم) مستخدما أسلوب التوكيد ثقة من الخطيب بمعرفة المتلقي لها معرفة تامة، فهو ليس بحاجة إلى تفصيلها وشرحها، ولكنه بحاجة إلى ادّكار لها كي لا تغيب عن الذهن، وكذلك في قوله: (فانتهوا إلى نهايتكم) فسبب وجود نهاية يعلمها المتلقي أوجز الخطيب في قوله بما قال: (وإن لكم نهاية)، فظهر الربط بين المعالم والعناصر المجاورة لها تارة، وبين النهاية والعناصر السابقة واللاحقة لها تارة أخرى، فالخطيب يطلب منهم الالتزام بالمعالم؛ لأنهم في معرفة بها، فالطلب جاء على صيغة الأمر خوفا عليهم من نار جهنم.

٣- التقابل

هو نظير الطباق في الاتساق، وهو "إيراد الكلام، ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة"[١]، فيحصل تضاد بين معنيين أو أكثر في النص، يكون الثاني موضحا للأول، مما يشكلان حلقة وصل مع بقية العناصر التركيبية في معناها ودلالتها على الفكرة المرادة.

ومن الأمثلة على التقابل في الخطبة، نحو قوله: (ومن دنياه لآخرته، ومن الشَّبيبَةِ قبل الكِبَرِ، ومن الحياة قبل المماتِ)، فقابل ثلاثة بثلاثة: الدنيا بالآخرة، والشبيبة بالكبر، والحياة بالممات، فتكون المقابلة بين ما يتعلق بالدنيا من حياة الشباب، وبين ما له علاقة بالآخرة من

[١] أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ٣٣٧.

الكبر والاقتراب من حلول الأجل، ثم الممات، فقد جاءت واصفة حياة الإنسان في الدنيا وهي الفانية، وحياته في الآخرة وهي الباقية.

فنلحظ على المقابلات السابقة أن كل واحدة فيها استدعت ما يقابلها في التضاد دلالة على معناها، فهي ثنائيات ائتلفت وتناغمت في الجوار فخرجت وكأنها من "شدة التلاحم كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد"[1]، مما عزز من الغاية التي تكمن وراءها الخطبة، وما تريد أن توصله من دلالات منها: ألا يقطع الإنسان حبل الصلة بالآخرة ليظفر بالخير فيها، وأفضت هذه الدلالات إلى انسجام عناصر النص مع البنية الكلية له، وأسهم في ذلك وجود علاقة اتصال وتواصل تسهل عملها الثقافة المشتركة بين المتكلم والمتلقي، فقد جمع الخطيب بين هذه المتناقضات بصور تقابل إحداها الأخرى لتنتج لوحة دلالاتها المعجمية غير متسقة بترتيبها التي ظهرت عليه، وهو على النحو الآتي:

دنيا --- آخرة --- شبيبة ---كبر ---حياة ----موت

وهذا الترتيب يحتاج من المتلقي إعادة ترتيبه؛ ليأخذ بعضه برقاب بعض، ويخرج بلوحة منظمة الدلالة، لها كل الصلة بسياق البنية الكلية، فينسجم التقابل مع الفكرة العامة للنص، وتتكون صورة ترابطية بين تلكم المتناقضات على هذه الهيئة:

إنَّ الدنيا هي الحياة وعكسها الآخرة التي يفضي إليها الموت، وما بين هذين المتناقضين، أو المتقابلين طور الشباب والكهولة، إذن يعيش الإنسان حياتين: الأولى وهي الدنيا، والثانية هي الآخرة، وفي الأولى يمتحن الإنسان، وتظهر نتيجته في الثانية بقدر اجتهاده في الأولى تقيدا وامتثالا لأوامر الله الموضحة في المعالم الشرعية التي شرعها للخلق كافة، ودلّه عليها المرشد الهادي، والمختار المنتقى من صفوة المجتمع، وخيار الناس المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

---

[1] عبد العزيز عتيق، علم البديع، ط١، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م، ٩٠.

خطبة الحجاج: استشراف الاتساق النصي والانسجام النصي

* تأسيس

* المبحث الأول: وسائل الاتساق النصي

– تمهيد

– وسائل الاتساق النحوي: الإحالة، الوصل، الحذف.

– وسائل الاتساق المعجمي: التكرار، المصاحبة المعجمية.

*المبحث الثاني: وسائل الانسجام النصي

– تمهيد

أولا: السياق وخصائصه

١– طرفا الخطاب: المتكلم والمتلقي

٢– ثنائية الزمان والمكان

٣– نقطتا الابتداء والانتهاء

ثانيا: البنية الكلية (موضوع الخطاب)

ثالثا: البنى النصية الكبرى

رابعا: ترتيب الخطاب

خامسا: البنى النصية الصغرى

سادسا: العلاقات الدلالية

١– علاقة التعميم

٢– علاقة الصفة

٣– العلاقات المنطقية

٣– علاقة السبب – النتيجة

٤– علاقة الإضافة

تأسيس

اشتمل نحو النص على معايير تظهر تعالق الكلم بعضه مع بعض، منها ما تمتاز فيه عن غيرها بقوة ظهورها في النص، ومنها ما يقل الاعتماد عليه، فلا يأخذ مساحة شاسعة من اهتمام المحلل النصاني بها، ومن هذه المعايير التي مثلت أساسا لنحو النص معيارا التماسك النصي: الاتساق، والانسجام، اللذان يحققان النصية Textuality، ويتضافران معا لتحقيق التماسك في النص كله[١].

أما الاتساق فهو يتكل على أدوات أو ما يسمى بالروابط الشكلية أو الظواهر اللغوية، وهي نحوية ومعجمية، تحدث على مستوى البنية السطحية للنص، بصورة يؤدي السابق فيها إلى اللاحق فيما يدعى بالترابط الرصفي Sequential Connectivity، أي تكون الجمل على هيئة متتابعة متسلسلة مترابطة، مرتكزة على النحو من إحالة وحذف وروابط وغيرها، وتهتم بتركيب النص باعتباره جسما دلاليا، فتسنده بعلاقاتها المتشكلة بين عناصر مختلفة في داخل النص، جملًا أو أجزاء من الجمل، موزعة من أوله حتى نهايته، وأما الانسجام فأدواته دلالية تظهر الترابط بين معاني الأقوال والجمل بالاعتماد على السياق المحيط بطرفي الخطاب، ويقوم على ترابط فكري[٢] مفهومي تحققه البنية العميقة في النص، وتظهره العلاقات الداخلية فيه كالسببية والعموم وغيرها، وهي التي تنظم الأعمال والأحداث داخل هذه البنية، وإن ترحلا عن النص، وخلا من أدوات الاتساق والانسجام فما هو حينئذ إلا جسد بلا روح[٣].

وهذا نص الخطبة كما وردت في "الكامل":

" وحدثني التَّوَّزِيُّ في إسنادٍ ذَكَرَهُ آخِره عبدُ الملكِ بنُ عُميْرٍ اللَّيْثِيُّ، قال: بينما نحنُ في المسجد الجامعِ بالكوفة، وأهلُ الكوفة يومئذٍ ذَوُو حالٍ حَسَنةٍ، يَخرُجُ الرجلُ منهم في العشرة

---

[١] انظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: دراسة تطبيقية على السور المكية، ط١، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠م، ٩٣/١، ٩٨.

[٢] ارتبط التماسك بالفكر "لوجود صلة قوية بين اللغة والتفكير. فاللغة هي الأداة المحسوسة للتعبير عن الفكر": صبحي الفقي، علم اللغة النص، ٩٨/١.

[٣] انظر: دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ١٠٣. وصبحي الفقي، علم اللغة النصي، ٩٣/١-٩٥، وأحمد مداس، لسانيات النص: نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، ط٢، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠٠٩م، ٨٣.

والعشرين مِنْ مَواليهِ إذْ أتَى آتٍ فقال: هذا الحجاجُ[1] قد قَدِمَ أميرًا على العراق! فإذا به قد دخل المسجد مُعْتَمًّا بِعِمامة قد غطَّى بها أكثرَ وَجْهِه[2]، مُتَقَلِّدًا سيفًا، مُتَنَكِّبًا قوسًا، يَؤُمُّ المِنبَرَ، فقام الناسُ نحوَه، حتَّى صَعِدَ المنبرَ، فَمكثَ ساعةً لا يَتكلَّمُ، فقال الناسُ بعضُهم لبعضٍ: قَبَحَ[3] الله بني أُمَيَّةَ حيثُ تَستعْملُ مثلَ هذا على العراق! حتى قال عُمَيْرُ بنُ ضَابِئٍ[4] البُرْجُمِيُّ: أَلا أجْصِبهُ[5] لكم؟ فقالوا: أمْهِلْ حتّى نَنظُرَ، فلمّا رأى عيونَ الناسِ إليه حَسَرَ اللِّثَامَ عن فيه ونهض فقال:

أنا ابنُ جَلا وطَلاعُ الثّنايا متى أضَعِ العِمامةَ تَعرفُوني[6]

وقال: يا أهل الكوفة، إنّي لَأرَى رؤُوسًا قد أيْنَعَتْ وحان قِطافُها، وإنّي لَصَاحِبُهَا، وكأني أنظرُ إلى الدّماء بين العمائم واللِحَى، ثم قال:

هذا أوانُ الشَّدِّ فاشتدّي زِيَمْ قدْ لفّها الليلُ بِسَوَّاقٍ حُطَمْ

---

(1) هو أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن مُعَتِّب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قسيّ، ونسبه لثقيف (القبيلة المشهورة بالطائف)، وكان له في القتل وسفك الدماء والعقوبات غرائب كثيرة، وتوفي يوم الجمعة سنة ٩٥ هجري بمدينة واسط (التي سميت بذلك لأن الحجاج بناها متوسطة بين البصرة والكوفة)، انظر لمزيد القول: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص ٢٩-٥٤، وأتى تفصيل بيان عنه أثناء تحليل الخطبة في المبحث الثاني من الفصل الثاني "وسائل الانسجام النصي".

(2) يقال إنه كان متلثما بعمامة خَزّ حمراء، انظر: النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهّاب (٧٣٣هـ)، نهاية الأرَب في فنون الأدب، تحقيق عبد المجيد ترحيني، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م، ١٢٧/٢١.

(3) وردت بفتح الباء، والأصح بتشديدها: قبَّح.

(4) عمير بن ضابئ بن الحارث، أراد قتل عثمان لأنه حبس أباه، ولم يتمكن حتى استطاع أن يكسر ضلعين من أضلاعه لما قتل، وفي مقتبل البحث شرح أكثر عنه؛ انظر: ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي (٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق عادل الموجود وعلي معوض، تقديم محمد البري وعبد الفتاح أبو سنة وجمعة النجار، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م، ٤٠٣/٣-٤٠٤.

(5) يجب أن تكون بالحاء؛ أحصبه.

(6) من الوافر، وابن جلا يقصد بها الصبح؛ انظر: ابن عبد ربه، الفقيه أحمد بن محمد (٣٢٨هـ)، العِقد الفريد، تحقيق عبد المجيد الترحيني، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م، ٢٠٨/٤.

ليس بِراعي إبلٍ وَلا غَنَمْ[١] وَلَا بِجَزَّارٍ على ظَهْرٍ وَضَم[٢]

ثم قال:

قدْ لَفَّها الليلُ بِعَصْلَبِيّ اَرْوَعَ خَرَّاجٍ مِنَ الدّوِيّ

مُهاجرٍ ليس بِأعْرابيّ[٣]

وقال:

قد شّمَّرَتْ عَنْ سَاقِها فَشُدُّوا وجَدَّتِ الحَرْبُ بِكُمْ فَجِدُّوا

وَالقَوْسُ فيها وَتَر عُرُدُّ مِثْلُ ذِراعِ البَكْرِ أو أشَدُّ[٤]

إنّي – والله يا أهل العراق – ما يُقَعْقَعُ لي بالشِّنان، ولا يُغْمَزُ جانبي كتَغمَازِ التينِ، ولقد فُرِزْتُ عن ذكاء[٥]، وَفُتّشتُ عن تجربةٍ، وإنّ أميرَ المؤمنين نَثَرَ كِنانَتَهُ بين يديه فَعَجَمَ عِيدَانها فوجدني أَمَرَّهَا عُودًا، وأصلبَها مَكْسِرًا، فرماكم بي، لأنّكم طالما أوْضَعْتُم في الفتنةِ، واضطجعتُم في مراقِدِ الضّلال[٦].

والله لأحْزِمَنَّكُم حَزْمَ السَّلَمَةِ، وَلَأضْربنَّكُم ضَرْبَ غَرائِبِ الإبلِ، فإنّكم لَكَأهْلِ قريةٍ (كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رَغَدا من كل مكانٍ فكفرَتْ بِأنْعُمِ الله فأذاقها الله لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعون)، وإني واللهِ ما أقول إلا وَفَيتُ، ولا أهُمُّ إلا أمضيتُ، ولا أخْلُقُ إلا فَرَيْتُ[٧].

---

[١] ذكر ابن منظور هذا الشطر بهذه الصيغة: لستَ براعي إبل ولا غنم. انظر: اللسان، مادة "وضم".

[٢] من الرجز. " زيم: اسم فرس أو ناقة. والحطم: الراعي الظلوم للماشية. والوضم: كل ما قطع عليه اللحم": ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢٠٨/٤، وابن منظور، اللسان، مادة "وضم".

[٣] من الرجز. "العصلبي: الشديد القوي. والأروع: الذكي. والدوي: الفلاة الواسعة": ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢٠٩/٤.

[٤] من الرجز. وتعني العرد الصّلب الشديد، وقد ورد عجز البيت الأول في العقد الفريد على هذه الهيئة: (ما علَّتي وأنا شيخٌ إد)، والإد تعني الداهية، انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢٠٩/٤، وفي قوله "البَكر" الأصح بكسر الباء كما وردت في لسان العرب "البِكرُ: الفَتِيُّ من الإبل": ابن منظور، اللسان، مادة "بكر".

[٥] معنى فررت: "فَرَّ الدابةَ يَفُرُّها، بالضم، فَرًا: كشف عن أَسنانها لينظر ما سِنُّها... وفَرَرْتُ الفرس أَفُرُّه فرًّا إذا نظرت إِلى أَسنانه": ابن منظور، اللسان، مادة "فرر".

[٦] ورد في العقد الفريد معاني بعض المفردات: الشنان: القرب البالية، أوضعتم: أسرعتم. انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢٠٩/٤.

[٧] تعني السلمة: الشجر كثير الشوك، وأخلق: أقدر، وفريت: قطعت. انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢٠٩/٤.

وإنّ أميرَ المؤمنين أمَرني بإعطائكم أعْطِياتِكم، وأنْ أُوَجِّهَكُم لمحاربةِ عدوّكم مع المُهَلَّبِ بنِ أبي صُفْرَةَ. وإنّي أُقْسِمُ بالله لا أجِدُ رجلا تَخلَّفَ بعد أخذ عَطائِهِ بثلاثة أيام إلا ضربتُ عُنُقَهُ! يا غلام اقرأ عليهم كتابَ أميرِ المؤمنين، فقرأ:

" بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك أميرِ المؤمنين إلى مَنْ بالكوفةِ من المسلمين سلامٌ عليكم " فلم يَقُلْ أحد منهم شيئا، فقال الحجاجُ: اكفُفْ يا غلامُ، ثم أقبلَ على الناس، فقال: أسَلَّمَ عليكم أمير المؤمنين، فلم تَرُدُّوا عليه شيئا؟ هذا أدبُ ابن نِهْيَةَ[1]، أمَا واللهِ لأُؤَدِّبَنَّكُم غيرَ هذا الأدب أو لَتَسْتَقِيمُنَّ! اقرأْ يا غلامُ كتابَ أمير المؤمنين، فلما بلغ إلى قوله: " سلامٌ عليكم" لم يبقَ في المسجد أحدٌ إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام!

ثم نزل فوضعَ للناس أعْطياتِهم، فجعلوا يأخذونَ حتّى أتاهُ شيخٌ يرعَشُ كِبَرًا، فقال: أيها الأمير، إني من الضعفِ على ما ترى، ولي ابنٌ هو أقوى على الأسفار مني أفَتَقبَلُهُ بدلا مني؟ فقال له الحجاج: نفعل أيها الشيخُ. فلما ولّى قال له قائل: أتَدْري من هذا أيُّها الأمير؟ قال: لا، قال: هذا عُمَيرُ بنُ ضابِئٍ البُرجُمِيُّ الذي يقول أبوه:

هَمَمْتُ ولمْ أفْعلْ[2] وَكِدْتُ وليتني تركتُ على عثمان تَبكي حَلائِلُه

ودخلَ هذا الشيخ على عثمانَ مقتولا فَوطِئَ بطنَهُ فكسَرَ ضلعينِ من أضلاعهِ، فقال: رُدُّوه! فلما رُدَّ قال له الحجاجُ: أيها الشيخُ هلاّ بَعثتَ إلى أمير المؤمنين عثمانَ بدلا يوم الدار! إنّ في قتلك أيها الشيخ لَصلاحًا للمسلمين، يا حَرَسِيُّ اضْرِبَنْ عنقَه. فجعل الرجلُ يضيقُ عليه أمرهُ فيرتحلُ، ويأمرُ وليَّه أنْ يَلْحَقَهُ بزاده، ففي ذلك يقول عبد الله بنُ الزبيرِ الأسَدِيُّ:

تَجهَّزْ فَإمَّا أنْ تزورَ ابنَ ضابِئٍ عُمَيرًا وَإمَّا أنْ تزورَ المُهَلَّبا
هما خُطَّتا خَسْفٍ نَجَاؤُكَ منهما رُكوبُكَ حَوْليًّا من الثَّلجِ أشْهبَا

---

[1] وردت بالضم (ابن نُهيَّة) عند النويري ووضع معناها: هو رجل كان على الشرطة بالبصرة قبل الحجاج، انظر: النويري، نهاية الأرَب في فنون الأدب، ٢١/ ١٢٩.

[2] قصة قولها أن ضابئ البرجمي وجب عليه حبس عند عثمان بن عفان رضي الله عنه وأدب، لأنه استعار كلبا من قوم فأعاروه إياه ثم طلبوه منه، وكان فحاشا فرمى أمهم به، فقال كلاما من بينه: فأمكم لا تتركوها وكلبكم **** فإن عقوق الوالدات كبير، فدعي لعثمان بن عفان ليأخذ جزاءه مما فعله تأديبا، فلما دعي شدّ سكينا في ساقه ليقتل عثمان رحمه الله، ولكن عثر عليها، فقال قولته: هممت ولم أفعل، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢/٣٤.

فَأضحَى ولو كانت خُراسانُ دُونَهُ رآها مكانَ السُّوقِ أو هِيَ أقْرَبا"[1]

المبحث الأول: وسائل الاتساق النصي

تمهيد

يؤدي الاتساق دورا مهمًا في توطيد العلاقات بين الجمل والفقرات، ويساعد في تماسك النص، وتلاؤم أجزائه، ومن أنواعه الاتساق النحوي والمعجمي والصوتي، وتناولته الباحثة في الدراسة على النحو الآتي:

- وسائل الاتساق النحوي: الإحالة، الوصل، الحذف.
- وسائل الاتساق المعجمي: التكرار، المصاحبة المعجمية.

وسائل الاتساق النحوي

١- الإحالة

يذهب هاليداي ورقية حسن إلى أن الإحالة عبارة عن علاقة دلالية يتوافر فيها عنصر محيل وعنصر محال إليه يخضع كل منهما لقيد دلالي لا نحوي مما يستوجب التطابق في الخصائص الدلالية بين العنصرين السابق ذكرهما، وتعتمد على وسائل ثلاث[2]: الضمائر، وأسماء الإشارة، وأدوات المقارنة. وإنّ الشاوش في كتابه لم يذهب كما ذهب إليه هاليداي ورقية حسن من عد أدوات المقارنة تحت الإحالة، فالأفضل برأيه أن تقع في مطلب الحذف والاستبدال لتتناسب مع ما جاءت به العربية، لأن أدوات المقارنة تستعمل من اسمها في المقارنة والمفاضلة، وهي من مقتضيات البنية الثنائية الدلالية التركيبية للألفاظ والصيغ من قبيل "مثل" و "شبه"، الأقرب إلى السمات الدلالية من العناصر الإحالية[3]، ويضيف الشاوش قائلا: " فإذا اعتبرت هذه الظاهرة الدلالية التركيبية من قبيل الإحالة فتحت بابا يصعب عليك أن تغلقه، إذ سيدخل فيه جميع البنى الدلالية التركيبية التي تقتضي عنصرين اثنين بما في ذلك الصيغ الدالة على

---

[1] المبرد، الكامل، ٢/٤٩٣-٤٩٦.

[2] انظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ١٦- ١٨.

[3] انظر: محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ١٢٩-١٣٠.

المشاركة بل وحتى الأفعال التي لا تتحقق إلا بتوفر عدد معين من العناصر وإذا بالإحالة تبتلع جميع مقتضيات الدلالة والإعراب"[١]، وتقسم الإحالة لقسمين أساسيين هما[٢]:

أ- الإحالة المقامية (Exophora) التي تحيل إلى خارج النص، مثلا للمؤلف أو إلى القارئ، وبذلك تحيله إحالة غير مباشرة تفهم من خلال السياق.

ب-الإحالة النصية[٣] (Endophora) تحيل إلى داخل النص، وتسهم المساهمة الكبرى في اتساق النص بعكس المقامية التي تربط اللغة بسياق المقام، وتتفرع الإحالة النصية لفرعين: قبلية Anaphora (إحالة إلى سابق)، وبعدية Cataphora(إحالة إلى لاحق).

ويترك الأمر للسياق في تحديد نوعية الإحالة[٤] ، ويمكن تلخيص ما ذكر سابقا في الرسم الآتي:

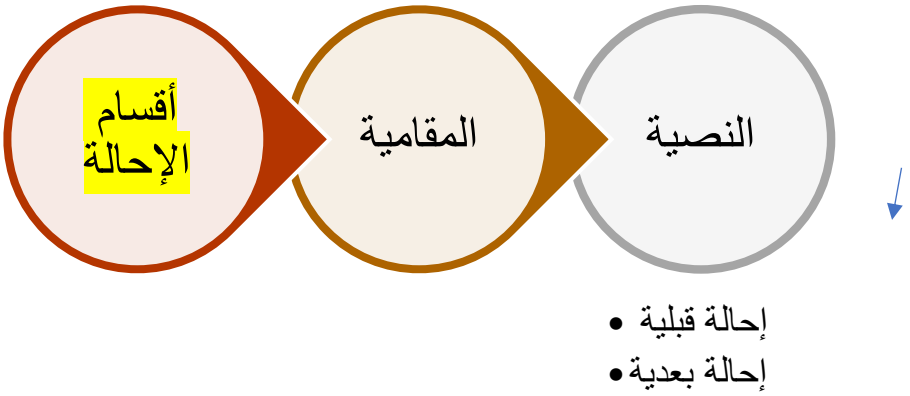

[١] محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ١٣٠.

[٢] انظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ١٦- ١٨.

[٣] أقسام الإحالة مقامية ونصية ذكرها الخطابي عن هاليداي ورقية حسن، وترجمهما الشاوش عنهما بالمقامية والمقالية: انظر: محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ١٢٧، وسماها الأزهر بالمقطعية لأنها تحيل على مقطع من ملفوظ، انظر: الأزهر الزناد، نسيج النص: بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٣، ١١٩.

[٤] انظر: محمد خطابي، لسانيات النص،١٦- ١٨، ومحمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب، ١٢٧.

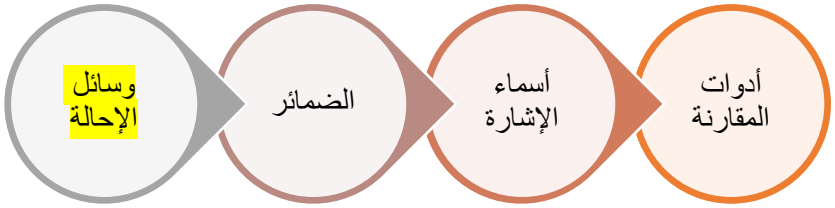

وتضمنت وسائل الإحالة أنواعًا، منها:

أ- الإحالة الضميرية

تبقى الضمائر دون معنى في ذاتها (أنا، أنت ...)، وتحمل المعنى حال دخولها في سياق خطابي، فتشير إلى مراد ما، ويصبح لها إحالة/مرجع تحيل إليه، وتعول عليه، وهذا المرجع قد يعود لمبهم واحد أو لمبهمين أو أكثر يحملان الدلالة نفسها والمعنى واحد، وقد يكون عكس ذلك، والدلالة تختلف معنى ومبنى[1]، وعند النظر للضمائر من زاوية الاتساق نلحظ أن الحجاج استخدم ضمائر تشير إليه من خلال استشهاده ببيت من الشعر:

- " فلمّا رأى عيونَ الناسِ إليه حَسَرَ اللِّثَامَ عن فيه، ونهض فقال:

أنا ابنُ جَلا وطَلاعُ الثّنايا متى أضَعِ العِمامةَ تَعرِفُوني

نجد أن الضمير (أنا) الظاهر أحال إلى ما يحيل إليه الضمير (أنا) المستتر للفعل أضع، وهو نفسه ما تحيل إليه الياء في (تعرفوني)، وهو المتكلم ذاته الحجاج، والبيت كله يحيل لقائله سُحَيم بن وثيل، وكلتا الإحالتين؛ أعني للحجاج وسحيم تدخل في نمط الإحالة السياقية إلى خارج النص.

- **وقال: يا أهل الكوفة، إنّي لَأرَى رؤُوسًا قد أيْنَعَتْ وحان قِطافُها، وإنّي لَصَاحِبُهَا، وكأني أنظرُ إلى الدّماء بين العمائم واللِحَى.**

---

[1] انظر: ذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل، ١٥٥-١٥٦.

والضمائر فيها جاءت على هذه الشاكلة: إنّ**(ي)** لَأرَى **(أنا)** رؤُوسًا قد أيْنَعَتْ **(هي)** وحان قِطافُ**(ها)**، وإنّ**(ي)** لَصَاحِبُ**(هَا)**، وكأن**(ي)** أنظرُ **(أنا)** إلى الدّماء بين العمائم واللِحَى.

نجد أن ضمير المتكلم المتصل (الياء/في إني) يحيل إلى الحجاج بشكل مباشر، وكذلك ضمير المتكلم المستتر للفعل أرى (أنا) يحيل أيضا له، أما الضمير المستتر في (أينعت) هي فيعود لرؤوس من أهل العراق، ويحيل الضمير الهاء في (قطافها) لرؤوس أهل العراق، ثم يعود ضمير المتكلم بالظهور (إني) الياء ليحيل للحجاج، وعودة مرة أخرى للرؤوس بعد التأكيد للسامع من الحجاج أنه من سيقطفها لا غيره (وإني لصاحبها) الهاء، ومرة أخرى يعود لضمير المتكلم (وكأني) الياء، ويليه أيضا الضمير المتكلم المستتر (أنظر) أنا.

في هذه المقطوعة من الخطبة تردد الضمير المحال إحالة قبلية بين نوعين: المتكلم والغائب خمس مرات مقابل ثلاث، فهيمنت الأنا سواء أكانت ظاهرة أم مستترة على النص وأدت العمل نفسه بدلالتها على الحجاج، ولا غريب في الأمر، فهو محور الحديث، ويريد في أول خطاب له أن يظهر من هو، فهو الشخصية الرئيسة في الخطبة التي يود أن يحدث عنها السامع، ويجعل المتلقي والمتلقف للخطاب يركز عليه ويهتم بشخص المستمع، ثم انتقلت الإحالة إلى أهل العراق، فهم المخاطبون، ولهم الكلام موجه، وهو الحاكم عليهم الذي سيتولى أمرهم، ويسوسهم قهرًا وعنوة بأنا صارخة مهددة باطشة.

ساعدت الضمائر الكلمات المصاحبة لها في تشكيل هذا المخطط الذي يستشفه القارئ من النص:

رؤية الحجاج ---- جزمه لتحقيق ما يراه من قطع الرؤوس ---- قطع الشك باليقين عند المستمع بتخيله للمشهد أمامه وهو ينظر إلى الدماء بصورة صورية حقيقية.

وهذا المخطط يستنتج منه أن المراوحة باستخدام الضمائر لم يفكك أجزاء المقطوعة، وجاءت على هيئة سلسلة متتابعة دون إشعار المستمع بالتنقل بين الضمائر التي أحالت لتكوين مقطوعة مترابطة الأجزاء، كل جزء فيها يمثل حبات عقد منتظمة أخذت مكانها المناسب حتى تجمعت في هذا النظم الدال على مراد المنشئ.

والضمائر في بقية المقطوعات تظهر كالآتي:

- ما يقعقع (نائب الفاعل يحيل لأهل العراق)، ل(ي) بالشنان، ولا يغمز (نائب الفاعل يحيل لأهل العراق) جانبي كتغماز التين، ولقد فُرِزْ(تُ) عن ذكاء، وَفُتّش(تُ) عن تجربةٍ، وإنّ أميرَ المؤمنين نَثَرَ كِنانَتَ(هُ) بين يدي(ه) فَعَجَمَ عِيدَان(ها) فوجدن(ي) أَمَرَّ(هَا) عُودًا، وأصلبَ(ها) مَكْسِرًا، فرما(كم) ب(ي)، لأنّ(كم) طالما أوْضَعْ(تُم) في الفتنةِ، واضطجع(تُم) في مراقِدِ الضّلال.
- والله لأحْزِمَنَّ(كُم)/ (أنا) حَزْمَ السَّلَمَةِ، وَلَأَضْربنَّ(كُم)/(أنا) ضَرْبَ غَرائِبِ الإبلِ، فإنّ(كم) لَكَأَهْلِ قريةٍ (كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رَغَدا من كل مكانٍ فكفرَتْ بِأَنْعُمِ الله فأذاقها الله لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعون)، وإن(ي) واللهِ ما أقول(أنا) إلا وَفَي(تُ)، ولا أهُمُّ إلا أمضي(تُ)، ولا أخْلُقُ(أنا) إلا فَرَيْ(تُ).
- وإنّ أميرَ المؤمنين أمَرن(ي) بإعطائ(كم) أعْطِياتِ(كم)، وأنْ أُوَجِّهَ(كُم)/(أنا) لمحاربةِ عدوّ(كم) مع المُهَلَّبِ بنِ أبي صُفْرَةَ. وإنّ(ي) أُقْسِمُ بالله لا أجِدُ (أنا) رجلا تَخلَّفَ (هو) بعد أخذ عَطائِ(هِ) بثلاثة أيام إلا ضرب(تُ) عُنُقَ(هُ)! يا غلام اقرأ (أنت) عليهم كتابَ أميرِ المؤمنين، فقرأ (هو):

" بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك أميرِ المؤمنين إلى مَنْ بالكوفةِ من المسلمين سلامٌ عليكم " فلم يَقُلْ أحد منهم شيئا، فقال الحجاجُ: اكفُفْ يا غلامُ، ثم أقبلَ (هو) على الناس، فقال: أسَلَّمَ عليكم أمير المؤمنين، فلم تَرُدُّوا (واو الجماعة) عليه شيئا؟ هذا أدبُ ابن نِهْيَةَ، أمَا واللهِ لأُؤَدِّبَنّ(كُم) /(أنا) غيرَ هذا الأدب أو لَتَسْتَقِيمُنَّ! اقرأْ (أنت) يا غلامُ كتابَ أمير المؤمنين، فلما بلغ إلى قوله: "سلامٌ عليكم" لم يبقَ في المسجد أحدٌ إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام!".

نلحظ على هذا النص المجزوء أن الحجاج قد زاوج بين الضمائر الثلاثة: المتكلم والمخاطب والغائب، وما أتى بكل واحد منها إلا بعد أن تيقن أن السامع يعلم لمن تعود، فلا يعقل أن يأتي بضمير الغائب مثلا والسامع لا يعرف من المقصود فيه، فهو معلوم ضمنًا عند متلقي الخطاب.

وكل ضمير وضع بين الأقواس واضح ومفهوم لمن يعود، وجيء في مكانه النظمي، فكل الضمائر تتعاون على إظهار الترابط بين أجزاء النص، وهذا الذي يلحظ على الضمائر السابقة، ونذكر منها على شكل مجموعات إيضاحية:

- ضمير المتكلم: فُرِرْ(تُ) – وَفُتّش(تُ) – فوجدن(ي) – ب(ي)– لأحْزِمَنَّ(كُم) / (أنا)– وَلَأَضْربنَّ(كُم)/ (أنا)– وإن(ي) – أقول– وَفَي(تُ) – أمضي(تُ)– أخْلُقُ– فَرَيْ(تُ)– أمَرن(ي) – أُوَجِّهَ(كُم)/(أنا)– وإنّ(ي)– أجِدُ (أنا)– ضرب(تُ)– لأُؤَدِّبَنّ(كُم) /(أنا).

أحالت الضمائر السابقة كلها إلى المحال إليه نفسه (الحجاج) وبالتالي نجد ضمير المتكلم السائد في الخطبة، والمتحكم فيها، والذي له السهمة الكبرى في تماسك النص وتناسقه، وذلك من خلال إحالته بين الجمل وعدم التكرار الذي يؤدي إلى الملل، فالضمير ألغى الحاجة إلى ذكر الاسم الصريح ما دامت معرفته عند السامع مفهومة ضمنا، ويقدم إفادة للسامع من خلال استحضارها في الذهن متى شاء ذلك.

- ضمير المخاطب: فرما(كم) –لأنّ(كم) –أوْضَعْ(تُم) –واضطجع(تُم) –لأحْزِمَنَّ(كُم)/ (أنا) –وَلَأضْربنَّ(كُم)/(أنا) –فإنّ(كم)–بإعطاءِ(كم) –أعْطِياتِ(كم)–أُوَجِّهَ(كُم)/(أنا) – عدوّ(كم)–اقرأ(أنت) –تَرُدُّوا (واو الجماعة) –لأُؤَدِّبَنّ(كُم)/(أنا)

نلحظ على ضمير الخطاب أنه للمستمعين من أهل العراق، بكلِّ حديّة وقوة وحزم وتأكيد وجزم لكلّ ما قاله.

- ضمير الغائب: كِنانَتَ(هُ) –يدي(ه) –عِيدَان(ها) –أَمَرَّ(هَا) –وأصلبَ(ها) – تَخلَّفَ(هو) –عَطاءِ(هِ) –عُنُقَ(هُ) –فقرأ (هو)

أما هذا الضمير فحظه من الاستعمال قليل في هذه المقطوعة، ويعود جزء منه إلى أمير المؤمنين وآخر لعيدان الكنانة، وآخر للحجاج، وآخر للفتى القارئ لرسالة أمير المؤمنين، فتفاوتت الإحالة حسب السياق ومعنى الجملة وما يناسبها من عودة الضمير لها، وفي هذا التفاوت وجدت الشدة من الحجاج أيضا في استخدام المفردات، فنجد معجمه معجم بطش وقوة وشدة وحزم فلا يلين فيه، ويسير على نهج واحد، هو دبّ الرعب في قلوب أهل العراق.

ب– الإحالة الإشارية

تحمل معنى القرب أو البعد من المشار إليه، وتحمل أيضا قيمة زمانية وأخرى مكانية حسب ورودها في السياق، ويؤول معناها حال دخولها المقام التواصلي[١]، وللإحالة الإشارية أركان يجب توافرها، وهي[٢]:

- المشير: المتكلم
- المشار إليه: الشيء في الخارج
- المشار له بالمشار إليه: المخاطب
- المشار به: عبارة الإشارة
- عمل الإشارة: الحاصل معنى وخارجا من الإشارة

وفي قول الحجاج: " يا غلام اقرأ عليهم كتابَ أميرِ المؤمنين، فقرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك أميرِ المؤمنين إلى مَنْ بالكوفةِ من المسلمين سلامٌ عليكم " فلم يَقُلْ أحد منهم شيئا، فقال الحجاجُ: اكفُفْ يا غلامُ، ثم أقبلَ على الناس، فقال: أسَلَّمَ عليكم أمير المؤمنين، فلم تَرُدُّوا عليه شيئا؟ ***هذا أدبُ ابن نهْيَةَ، أمَا والله لأُؤَدِّبَنَّكُم غيرَ هذا الأدب*** أو لَتَسْتَقِيمُنَّ! ".

قد تحققت أركان الإشارة فيها كالآتي:

(هذا الأولى)

- المشير: الحجاج
- المشار إليه: عدم رد السلام حتى نعته بأدب ابن نِهية
- المشار له: أهل العراق/المخاطَب
- المشار به: هذا
- عمل الإشارة: أحالت إلى المشار إليه لتحقيق المعنى المراد من الإشارة كلها، وهو إلقاء الانتباه على عدم رد السلام عند سماعه وهو من أمير المؤمنين.

---

[١] انظر: ذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل،١٦٢-١٦٣، ولمزيد بسط القول في مفهوم الإحالة الإشارية؛ انظر: مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، مراجعة وتنقيح عبد المنعم خفاجة، ط٣٠، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٩٤م، ١٢٧/١، ومحمد خطابي، لسانيات النص، ١٩، وعثمان أبو زنيد، نحو النص، ١٠٨.

[٢] ورد تقسيم هذه الأركان على هذه الشاكلة عند عثمان أبو زنيد، نحو النص، ١١٩.

(هذا الثانية)

- المشير: الحجاج
- المشار إليه: أدب ابن نِهية
- المشار له: المخاطب أهل العراق
- المشار به: هذا
- عمل الإشارة: أحال إلى المشار إليه بإحالة قبلية، وربطه بأدب ابن نهية، فقدمت الإحالة سهمة كبرى في ربط أجزاء النص اللاحقة بالسابقة.

كما نلحظ أركان الإحالة الإشارية قدمت سُهمة في ربط أجزاء النص اللاحقة بالسابقة، فأدت إلى اتساق نصي، ساعد على بناء النص وتوطيد أواصره.

٢- الوصل

يعد الوصل من مباحث البلاغة المهمة، وأصعبها مسلكا لدقتها التي تمتاز بها، وتعلق معاني الجمل من خلالها، واتصال بعضها مع بعض، وأكد أرسطو أهمية الوصل لقوة تماسك بنائه، ووحدة معناه، وجمال حسنه بين أجزاء الجمل[١]، وهو عطف بعض الجمل على بعضها بالواو أو بإحدى أخواتها، وعكسه الفصل، ويحدث بين المفردات أو بين الجمل و الجمل، وفائدته حدوث الشراكة بين المعطوف والمعطوف عليه في الحكم[٢]، ولا يقع العطف الموقع الحسن إلا إذ وجد بين الجملتين مثلا جهة جامعة كاتحاد في المسند إليه أو في المسند، أو تماثل واشتراك فيهما وغير ذلك[٣]، ومما يزيده حسنا اتحاد الجملتين في الكيفية؛ كأن يكون نوعهما اسمًا، أو فعلا، أو شرطًا وهلم جرا[٤].

وسنولي شطرا كبيرا من اهتمامنا في هذه الدراسة على العطف لورود أدواته بأشكال مختلفة في نص الخطبة، لارتكازه في تماسكه النصي على البنية العميقة للنص، أي على

---

[١] انظر: حسن هادي نور، الفصل والوصل في خطب نهج البلاغة، ٢١٤.

[٢] انظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ١١٨، وانظر أحمد المراغي، علوم البلاغة: البيان والمعاني والبديع، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م، ١٦٣.

[٣] انظر: أحمد المراغي، علوم البلاغة، ١٦٥.

[٤] انظر: أحمد المراغي، علوم البلاغة، ١٦٧.

أساس دلالي – محوري[١]، والعطف نوعان: عطف بيان[٢] وعطف نسق، وما يعنينا في ثني هذه الصفحات هو عطف النسق، عطف اسم على اسم، أو فعل على فعل، أو جملة على جملة[٣] بتوسط أحد هذه الحروف، وهن عشرة: (الواو، والفاء، وثم، وحتى، وأو، وإما، ولكن، وبل، ولا، وأم)[٤]، وذكرت مجموعة منها في الخطبة على النحو الآتي:

أ– الواو يَشرَكُ المعطوفَ والمعطوفَ عليه في اللفظ والمعنى[٥]، وهذا ما سنلمسه في أمثلة العطف المذكورة في خطبة الحجاج. أمثلة:

– يا أهل الكوفة، إنّي لَأرَى رؤُوسًا قد أينَعَتْ وحان قِطافُها، وإنِّي لَصَاحِبُهَا، وكأني أنظرُ إلى الدّماء بين العمائم واللِحَى.

في القسم الأول من هذا المقطع كان عطف جمل على جمل، وفي القسم الثاني عطف اسم على اسم (أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى)، فيه صوّب نظره نحو مشهد الدم وقد توزع بين العمائم واللحى، بصرف النظر عن المعنى اللغوي الذي أفادته الواو التي نعلم عنها

---

[١] انظر: سعيد بحيري، علم لغة النص، ١٠٩.

[٢] عطف البيان هو "اسم يفسره اسم، كما يفسره النعت، إلا أنه ليس مشتقا، ولا في حكم المشتق، فأشبه البدل، والفرق بينهما: أنه لا ينوى فيه إحلال الثاني محل الأول". ابن معطٍ، أبو الحسين يحيى بن عبد المعطي (٦٢٨هـ)، الفصول الخمسون، تحقيق ودراسة محمود الطناحِي، (د.ط)، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٧٧م، ٢٣٦. وأشير إلى جواز كتابتها بياء، على هذا النحو: ابن معطي، واختارت الباحثة هذا الوجه؛ ابن معطٍ بحذف الياء.

[٣] فإن وجد عكس ذلك؛ أي عطف اسم على فعل مثلا، فلا بدّ أن يكون الاسم في تقدير الفعل أو العكس الفعل في تقدير الاسم، وهذا يسري على عطف الأسماء والأفعال والجمل. انظر لمزيد بسط من القول باب العطف عند ابن عصفور، أبو الحسن علي بن علي (٦٦٩هـ)، شرح جمل الزجاجي، تقديم فواز الشعار، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ١/١٧٤–٢٢٧.

[٤] انظر: ابن معطٍ، الفصول الخمسون، ص٢٣٦–٢٣٧، وابن عصفور، شرح جمل الزجاجي، ١/١٧٤.

[٥] حروف العطف التي ذكرت في عرض الحديث عن العطف منها ما يشرك في اللفظ والمعنى كالواو والفاء وثم، ومنها يشرك في اللفظ لا في المعنى ومثالها: (أو)، و(لا) وغيرها من الحروف، انظر: ابن عصفور، شرح جمل الزجاجي، ١/١٧٨–٢٢٧.

أنها تفيد الجمع[١] بين المعطوف والمعطوف عليه، والعطف في الجملة الأخيرة قد يحتمل ثلاثة معانٍ، أولها أن نظرته التي كونت صورة وهو ينظر للدماء وهي تسيل من العمائم قبل اللحى، وجواز كون النظرة للدماء وهو يسيل على اللحى قبل وصولها للعمائم بمهلة أو غير مهلة[٢]، أو أن الحجاج تمثل صورة الدماء وقد لطخت في الوقت ذاته العمائم واللحى معًا[٣]، واختيار حرف العطف كان اختيارا صائبا، فإن العطف هنا لا يمكنه أن يؤدي معناه في السياق إلا بالواو خاصة، فاستقلّ الكلام وأخذ معناه بوجود المعطوف "اللحى" والمعطوف عليه "العمائم" بواسطة حرف العطف، والعامل في المعطوف والمعطوف عليه هو الفعل "أنظر" فكانت متماسكة المبنى والمعنى.

ومعنى الجملة لو أخذناها وحدة واحدة هو الثبات في فعله وعدم التراجع عنه، حيث يصف حاله معهم، فأوجب العطف لتوالي الأفعال التي سيقوم بها، فالجملة العاطفة على الجمل الأخرى أدى وجودها لوجود الجمل الأخريات متماسكات في المعنى والتركيب، متعلقة كل واحدة فيهن بالأخرى، وحصول الأول يستدعي حصول الثانية، وكذلك دواليك، فبين الجمل التي أمامنا علاقة ارتباط نتيجة وسبب بحرف العطف الواو الذي أفاد الجمع والمشاركة بالأفعال التي سيقوم بها الحجاج، والتي صورها على شكل مشاهد يمكن تخيلها وتجسيدها، فجاءت في مقام التأكيد على صنيعه.

- **إنّي – والله يا أهل العراق – ما يُقَعْقَعُ لي بالشِّنان، ولا يُغْمَزُ جانبي كتَغمَازِ التينِ، ولقد فُرِرْتُ عن ذكاء، وَفُتّشتُ عن تجربةٍ، وإنّ أميرَ المؤمنين نَثَرَ كِنانَتَهُ بين يديه فَعَجَمَ عِيدَانها، فوجدني أَمَرَّهَا عُودًا، وأصلبَها مَكْسِرًا، فرماكم بي، لأنّكم طالما أوْضَعْتُم في الفتنةِ، واضطجعتُم في مراقِدِ الضّلال.**

---

[١] حروف العطف جميعها " يشترك ما بعدها مع ما قبلها ... إلا بالواو فإنها تنقسم قسمين: جامعة غير مشرّكة وجامعة مُشرّكة" ابن عصفور، شرح جمل الزجاجي،٢٢٦/١. والجامعة المشركة حيث يشترك المعطوف مع المعطوف عليه في العامل، فلو قال الحجاج: "أنظر إلى الدماء بين العمائم، وأنظر إليه بين اللحى" لساغَ.

[٢] يجوز تقديم المعطوف على المعطوف عليه في الواو خاصة، ولكن بشروط ثلاثة، للاطلاع عليها ومعرفتها بشرح مستفيض انظر: ابن عصفور، شرح جمل الزجاجي، ٢٠٥/١-٢٠٨.

[٣] انظر المثال الذي جاء به ابن عصفور في مطلع شرحه عن (الواو): ابن عصفور، شرح جمل الزجاجي، ١٧٩/١.

الجمل العاطفة هنا تشارك بعضها في الحكم الإعرابي، وبالوصل تحقق تمام المعنى المراد، وهو المبالغة في توبيخهم في معرض ذمهم وتحقيرهم، و"من حق الجمل إذا ترادفت ووقع بعضها في إثر بعض أن تربط بالواو لتكون متسقة منتظمة"[١].

ب- الفاء: **وإنّ أميرَ المؤمنين نَثَرَ كِنانَتَهُ بين يديه، فَعَجَمَ[٢] عِيدَانها، فوجدني أَمَرَّهَا عُودًا.**

أمامنا ثلاثة أفعال كنحو ما نرى قولا واحدا، متفقة في الصِّيَغ مع اتفاقها في الزمان، فقدم "نثر" و "عجم" على "وجدني" ومعلوم أنّ الاختبار أولا ثم النتيجة وعكسها صعب متعذر، فيكون ترتيبها هكذا: نثر ----فعجم ----- فوجدني[٣]، والفاء فيما استقرّ عليه باب العطف يفيد الترتيب في موضعه، وذلك نحو قول الحجاج، حيث الفعل يتطلب إلقاء ما في جعبة الجلدة أو الخشبة التي تجعل فيها السهام، ثم اختيار الأفضل منهن استخداما والحجاج كان أفضل المتقدمين للاختبار حكمة ووفاء ورجاحة عقل لاستلام زمام الإمارة كما رآه أمير المؤمنين، فكان إيجاده إياه من سبب الاختيار، وهذا الترتيب يشبه ما نراه في وقت امتحان الممتحن حيث نقوم بتوزيع الورقة عليه، ثم تصحح الأوراق وفيها التقويم، وكل له علامته، والمجتهد هو من يكرم في الامتحان.

٣- الحذف

ظاهرة لغوية تشترك فيها جميع اللغات، وتبدو واضحة في اللغة العربية لميلها للإيجاز والاختصار في الكلام، ويكون الحذف في موضعه أفصح من ذكره، فترك "الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة"[٤]، وتناولها القدماء بالدراسة، ونعتوها

---

[١] أحمد المراغي، علوم البلاغة، ١٦٧.

[٢] أي اختبرها.

[٣] تشير الباحثة إلى أن الفاء في (فوجدني) تحمل معنى إضافيًا على الترتيب، وهو معنى النتيجة والسببيَّة.

[٤] الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (٤٧١هـ)، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد وفايز الداية، ط١، دار الفكر، القاهرة، ٢٠٠٨م، ١٠٤.

بالحذف والإضمار[١]، وقد سئل أبو عمرو بن علاء: "أكانت العرب تطيل؟ فقال نعم لتبلغ، قيل: أفكانت توجز؟ قال: نعم ليحفظ عنها، فالعرب إلى الإيجاز أميل، وعن الإكثار أبعد"[٢]. ويكون الحذف حين يشعر المخاطِب أن المتلقي عالم بما حذف من كلام ويستطيع تأويله بوجود قرينة دالة على المحذوف[٣]، وتقسم القرينة إلى لفظية وحالية، أو مقالية ومقامية، أو إلى قرينة عقلية[٤].

وكما حدده هاليداي ورقية حسن علاقة تحدث داخل النص، وعادة تكون قبلية، ولا يحل محل المحذوف عنصرٌ آخر كالاستبدال، ويبقى فراغه موجودا يهتدي إليه القارئ لملئه، ويقسم لأنواع ثلاثة[٥]:

- الحذف الاسمي: حذف الاسم داخل المركب الاسمي.
- الحذف الفعلي: حذف الفعل داخل المركب الفعلي.
- الحذف القولي: الحذف الواقع داخل شبه الجملة.

وحقٌّ على الباحثة التنويهُ أن الحذف يقوم بدور معين في اتساق النص، فقد يكون في مواضع لا تسهم في اتساق النص وترابطه، وما ستتناوله الباحثة في هذه الجزئية يخدم التناسق، ويساعد على بناء النص، ويترك أثرا في ذلك، ومما جاء في خطبة الحجاج نحوُ قوله: "وإني واللهِ ما أقول إلا وَفَيتُ"، وقوله: "والله لأحزمنكم حزم السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل".

نجد الحذف هنا وسيلة لتسريع الحدث، فقد سقط المفعول به في الجملة، إذ المعنى: "وإني واللهِ ما أقول إلا وَفَيتُ وعدي/قولي/فعلي/..."، وفائدة ذاك "لتتوفر العناية على إثبات

---

[١] انظر: طاهر حمودة، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، ط١، الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ١٩٩٨، ٩، ١٩، هناك من عدهما – الحذف والإضمار– مرادفتان لنفس المعنى، وهناك من ذهب لإعطاء كل منهما معنى يختلف عن الآخر.

[٢] ابن جني، أبو الفتح عثمان (٣٩٢هـ)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩١٣م، ٨٤/١.

[٣] انظر: سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان (١٨٠هـ)، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨م، ٢٤/١.

[٤] انظر: طاهر حمودة، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، ١١٦.

[٥] انظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ٢١–٢٢.

الفعل لفاعله"[١] وذكر المحذوف وعدمه واحد، لمخالفته للغرض المرمى له، فما صح إلا حذفه في الجملة، أوَ لَيْس الحذف هو الأوجبَ؟ حيث "ترى تَرْكَ الذكر أفصحَ من الذكر، والامتناعَ من أن يَبْرُزَ اللفظُ من الضمير أحسنَ للتصوير"[٢].

وحذف آخر وقع في قوله: "والله لأحزمنكم حزم السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل"، فلفظ الجلالة (الله) لم يذكر قبل الفعل "لأضربنكم"، والسبب وجود حرف العطف الواو الدال على الجمع والمشاركة في الجملة السابقة التي دلت على المحذوف في الجملة التالية لها، مما أدى إلى عدم تكرارها.

ب- الاتساق المعجمي

التكرار

المظهر الأخير من مظاهر اتساق النص، وأقسامه التكرير والتضام[٣] هو الاتساق المعجمي؛ أي الربط المعجمي، إنَّ التكريرَ أو التكرار Recurrence ارتبط "في التراث النحوي بالتوكيد اللفظي، وفي التراث البلاغي بالتوكيد لنكتة: كتأكيد الإنذار، أو الإيغال، أو زيادة المبالغة، أو غير ذلك مما نص عليه البلاغيون، وأوردوا عليه الشواهد"[٤]، ويقتضي "إعادةَ عنصر معجمي، أو ورود مرادف له أو شبه مرادف أو عنصرٍ مطلقٍ[٥] أو اسمٍ عامٍّ"[٦]، وهو

---

[١] الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد وفايز الداية، ١٦١.

[٢] الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد وفايز الداية، ١٧٢.

[٣] انظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ٢٤.

[٤] انظر: سعد مصلوح، نحو أجرومية للنص الشعري، ١٥٧.

[٥] العنصر المطلق هو اسم مطلق أو عام يضم تحته عناصر معجمية مرادفة أو شبه مرادفة.. وما شابه ذلك.

[٦] محمد خطابي، لسانيات النص، ص٢٤، ويقصد هاليداي ورقية حسن بالاسم العام مجموعة صغيرة من الأسماء تحيل على شيء عام مثل اسم الإنسان واسم الحيوان واسم النبات واسم المكان وكذلك دواليك، حيث لها إحالة معممة كالناس والطفل والشخص وغير ذلك. انظر: المرجع نفسه، ٢٥. وقد ورد لفظ التكرير في لسان العرب ومعجم العين بمعنى كرر أي أعاد الشيء مرة بعد أخرى، انظر: لسان العرب ومعجم العين، مادة " كرر".

بذلك إعادة اللفظ في العبارات السطحية بما يدعى "الإحالة التكرارية" قصد التأكيد وصنع الترابط بين أجزاء النص[١]، وللتكرار أنواع عدة[٢]، وهي:

- التكرار المحض Full Recurrence (التكرار الكلي): ويعنى به إعادة لأعيان الألفاظ، كتكرار لفظ (القدس) مرتين أو أكثر في النص، وله مظاهر أخرى، حيث يقسم قسمين:

أ- التكرار مع وحدة المرجع (يكون المسمى واحدا).

ب-التكرار مع اختلاف المرجع (يكون المسمى متعددا) ويشبه الجناس التام.

- التكرار الجزئي Partial Recurrence: تكرار عنصر معجمي استعمل سابقا في النص بصورة أشكال مختلفة، كتكرار (لمت.. تلوم) (الهم.. الهموم).
- المرادف، أي الترادف وشبه الترادف: حيث يكون " للشيء المسمى وجوهٌ وصفات كثيرة، ويمكن أن يسمى بأكثر من صفة من صفاته، وأن يشتق له من الألفاظ كلمات متعددة تبعا لتلك الوجوه والصفات ومن هنا ينشأ الترادف وهو تعدد اللفظ للمعنى الواحد وهو عكس الاشتراك"[٣].
- شبه التكرار: يتواجد عادة في مستوى التشكل الصوتي.

---

[١] انظر: أحمد عفيفي، نحو النص، ١٠٦، وقد ورد عند الخطابي مثال على التكرير من كتاب هاليداي ورقية حسن، وهو:

I turned to the ascent of the peak (the ascent \ the climb\the task\the thing\it) is perfectly easy.

انظر محمد خطابي، لسانيات النص، ٢٤-٢٥، وهناك مثال آخر ورد عند هاليداي ورقية حسن:

Wash and Care six cooking apples. Put the applies into a fireproof dish.

انظر: أحمد عفيفي، نحو النص، ١٠٦، وانظر أمثلة مجلية عنه: دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ٣٠١-٣٠٦.

[٢] انظر: سعد مصلوح، نحو أجرومية للنص الشعري، ١٥٧-١٦١، وقد قسم التكرار في النحو العربي لنوعين اثنين: اللفظي بإعادة اللفظ مفردا أو جملة، ومعنوي تكمن فائدته في رفع توهم المجاز، وإزالة الشك عن المُحدَّث عنه، ويكون تأكيده بتكرار المعنى باستخدام الألفاظ: نفس، عين، كل، أجمع، أكتع، أبتع، أبصع وغير ذلك انظر: ابن عصفور، شرح جمل الزجاجي، ١/٢٣٣-٢٣٦، ابن معطٍ، الفصول الخمسون، ٢٣٥.

[٣] محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية: دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد والتوليد، ط٢، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٦٤م، ٢٠٠.

وللتكرار أهمية تعمل على زيادة ترابط النص بإعادة المعنى باللفظ أو بالمعنى دون اللفظ[١]، وله أغراض تسهم في اتساق النص وترابطه، من أهمها التوكيد، والقسم، إذ هما يشكلان بنية قوية تساعد في تشابك النص، ويأتيان في مقام الوعيد والتهديد[٢]، نلمسهما من خلال التكرار المحض (الكلي) في نص الخطبة، ومظاهره المتمثلة في الإحالة لمرجع واحد وهو تكرار اللفظ، ومثاله من الخطبة تكرار الكلمات الآتية: أهل / إني / المقسم به، وسيأتي تفصيل يبرز مدى تحقق النصية من خلال تلكم الأغراض، ونبدأ بالغرض الأول "التوكيد":

وهو المتمثل في تحقيق المعنى عند السامع[٣]، ويقسم لتوكيد تكرار وتوكيد إحاطة، أما توكيد الإحاطة فهو التوكيد المشتمل على كل وأجمع وفائدته رفع توهم التجزي، وما يهمنا في مبحثنا الجزء المتعلق بتوكيد التكرار لا الإحاطة، ونبدَؤه بالتوكيد المحض، وهو التوكيد اللفظي الذي يكون بإعادة اللفظ ذاته، وفائدته رفع توهم عدم سماع السامع، ويأتي مفردا وجملة [٤]، وهذه أمثلة من نص خطبة الحجاج توضحه وتفسره:

- أهل

تردد لفظ (أهل) مرتين متغايرتين في موضعيهما، بدأ بخاص ثم تكرر في جزء آخر من النص بشكل عام، وبمجموع الجزأين ينتج عندنا نصٌّ متكاملٌ يعطي معلومات مترابطة للقارئ، وفي تتبع اللفظين في مطلع الخطبة نجدهما كالآتي:

- **" يا أهل الكوفة، إني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها ... "، وتلاها الحجاج بقوله: "إني – والله يا أهل العراق – ما يقعقع لي بالشنان ... "**، فلم التكرار المغاير، وهل أسهم في ترابط النص؟

---

[١] انظر: مراد عبد الحميد عبد الله، من أنواع التماسك النصي: (التكرار، الضمير، العطف)، مجلة جامعة ذي قار، العدد خاص، المجلد٥، ٢٠١٠، ٥٣.

[٢] يوجد مقامات أخرى يأتي بها التكرار ويشمل جزءا من أغراضه، كمقام التهكم والسخرية أو المدح والتعظيم وغير ذلك، انظر: ابن رشيق القيرواني، العمدة، ٢/٧٣-٨٢.

[٣] انظر: ابن معط، الفصول الخمسون، ٢٣٥، وانظر: ابن عصفور، شرح جمل الزجاجي، ١/٢٢٨.

[٤] انظر: ابن معط، الفصول الخمسون، ٢٣٥-٢٣٦، وعبد السلام هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، ط٥، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠١م، ١١٢- ١١٧.

أفضى تكرار لفظ "أهل" في كل مرة معنى آخر يضاف إليه، مما كان له بالغ الأثر في تماسك النص رغم أن المعنى الأول خاص، والثاني عام، فلفظ أهل الأولى عند إضافتها للكوفة خصصت لأهل الكوفة، وتلاها ترهيب وتخويف وتهديد مما سيلحقهم، وفي الثانية أضافها للعراق فعممت، وعند العودة إلى المعنى الأول نجد أن الحجاج قد بدأه بالنداء وأعقبه بأسلوب التحذير والترهيب مستخدما أداة التأكيد والتوكيد، موجها كلامه لأهل الكوفة خاصة، وأعقب ذلك بصور بيانية كأنها أمامهم قد وقعت وانتهت، مثلت وجسدت ولا مفر منها، وما كان له أن يحقق الترهيب لو لم يستخدم بداية تشع قوة وفطنة ودهاء يمتلك فيها العقول ويشد الانتباه، فمقدمة كل شيء مفتاحه الذي يشد المستمع لسماعه، فلو كانت مقدمة هزيلة ضعيفة البنيان، ركيكة المعنى والمبنى والأسلوب لما استرعت انتباه المصغي لها، وما كان بمكنتها أن تحقق الهدف المرجو، فأي شجاعة وفصاحة بيان امتلكهما الحجاج وقتئذ؟

وفي لفظ "أهل" الثانية سبقت بأداة التوكيد "إن واسمها"، وقد فصل خبرها عنها بلفظ القسم (والله) وأعقبها بالنداء، ليكون بهذا قد استخدم ببضع كلمات ثلاثة أساليب معًا، وإذا دل على شيء فإنه يدل على الشدة التي يمتلكها الحجاج، وينماز بها؛ إذ إنه استطاع أن يلفت انتباه السامعين، ويجعل بنيان النص متماسكا باستخدام النداء مع أسلوب تحذير وتنبيه، ولم يوجه ذاك التحذير لأهل العراق عامة إلا بعد أن خاطب الخاصة منهم وامتلكهم الرعب، فتيقن أن البقية من أهل العراق مستعدون للإصغاء إليه رهبة وخوفا، وإن من البداهة أن يمتلك الخوف قلوب الآخرين، فما يقع على الخاصة يقع على العامة إن لم يمتثلوا للأوامر والتعليمات، ناهيك عن قدرة الحجاج على لفظ ما لفظه من خطاب بكل صرامة وشجاعة وحزم وشدة، حتى أصبح الخوف خوفين والرهبة مرتين تدبّان في القلوب، إذ إن أمامهم خطبة قوية أولا ورجلا لا يهابهم ثانيا.

- إني

تكررت في نص الخطبة أربع مرات، تحيل لمنشئ الخطاب (الحجاج) مما كان له أكبر المساندة في دعم أواصر النص وتعضيده بتوجيه الكلام منه شخصيا، وليس على لسان غائب عن الحضور، مما يزيد من وقْع الرعب والخوف في قلوب الحاضرين، ومن خلال (إني) أكد وشدد على حضوره باستخدام التوكيد، فأولها كانت موجهة لأهل الكوفة خاصة، والكلام لهم،

وثانيها موجهة لأهل العراق عامة، والكلام لهم، وثالثها سرت مسرى العام لأهل العراق أيضا كما الثانية والرابعة.

إذن نلحظ على خط سير (إني) تجاهه من الخاص إلى العام في توجيه الكلام للمستمع، وما كان ذلك كذلك، لو لم ينظم القائل أفكاره وكلامه قبل النطق بها وخروجها من فيه كما خرجت، كل منها يفضي إلى الآخر، وبهذا التنظيم استطاع أن يبني نصه بشكل متماسك عصي على الانكسار، فلفظ (إني) كله متشابك وفيه صلة ربط قوية، والسابق فيه يحيل على اللاحق والعكس صحيح، وحين وضْعِها على شكل نقاط مرقّمة تظهر لنا بشكل متسلسل، تظهر معها علاقة الترابط محملة بعنوان عريض ينصّ على التحذير والترهيب، موزعة في ثني الكلام بشكل محكم، وفي مكانها الصحيح كما يأتي:

١- **إني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها ...**
٢- **إني – والله يا أهل العراق – ما يقعقع لي بالشنان....**
٣- **وإني والله ما أقول إلا وفيت، ولا أهم إلا أمضيت ....**
٤- **وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه !**

وزادت درجة التوكيد في قوله "إني"[١] في الأمثلة الواردة آنفا مع توكيدها بلفظ الجلالة، المقسم به، وهذا اللفظ المكرر سأتناوله على حدة مبينة سبب تكراره، وسهمته في تماسك النص.

- **المقسم به – لفظ الجلالة**

وجاء داخل النص في هذه العبارات:

١- إنّي – والله يا أهل العراق – ما يُقَعْقَعُ لي بالشِّنان.....
٢- والله لأحْزِمَنَّكُم حَزْمَ السَّلَمَةِ.....
٣- وإني واللهِ ما أقول إلا وَفَيتُ.....
٤- أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمُنّ !
٥- وإنّي أُقْسِمُ بالله لا أجِدُ رجلا تَخلَّفَ بعد أخذ عَطائِهِ بثلاثة أيام إلا ضربتُ عُنُقَهُ..

---

[١] لمزيد بسط البيان في "إن" ومجيئها للتأكيد، انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ٣٢٥-٣٢٦.

المعنى المحاط بأسلوب القسم هو الحلف واليمين، وهو ضرب من ضروب الإنشاء غير الطلبي[١]، وأدواته المستخدمة في المقطوعات النصية السابقة: الواو (والله) والباء (بالله)، والأخيرة" هي الأصل في القسم؛ لأنها حرف الجر الذى يعدَّى به الحلف، يقال: أحلف بالله، وأقسم بالله"[٢]، استخدمها الحجاج زيادة في الترهيب وتأكيدا أن قوله سيقلب فعلا.

بإلقاء النظر على الأمثلة السابقة نجد القسم ورد جملة فعلية نحو المثال الرابع، وجملة اسمية نحو المثال الأول والثاني والثالث، وجميع الأمثلة وضع فيها القسم موضع الإخبار المؤكد للجواب، فالحجاج استخدمه تأكيدا لقوله: ما يقعقع ...، ولأحزمنكم ... ونحو ذلك مما قصد به تأكيد جوابه، وزاد تأكيد القسم بتكرار (إني)، فأصبح المؤكد مؤكدين وبذلك أزال الشك من قلوب السامعين، وجَزَمَ على قوله بمربط الحقيقة الواقعة فعلا.

قد تكرر لفظ الجلالة (والله) المقسم به أربع مرات موزعة على النص، ومرة واحدة مختلفة عن الأخريات وردت مع فعل القسم ملصقة بالباء (أقسم بالله)، وكل لفظ تكرر عند جمعه مع ما يشبهه نجده وقد كوَّن مجموعة متحدة عنوانها التخويف والترهيب، وهذا التوزيع بوقعه المطرد جرى في النص بحركة سلسلة لا تشعر القارئ/السامع بتشتت أو انتقال مفاجئ من القائل يحدث خللا في تكوين النص، بل كانت حركة النص بلفظ المقسم به نابعة عن حركة ذات القائل، معبرة عما يريده، ومحققة هدفه من خلال كسر الرتابة الناتجة عن التكرار بتغيير القول بعد كل لفظ (والله)، وكسرت الرتابة مع نهايات خطبته بالتغيير الحاصل في أدة القسم (أقسم

---

[١] انظر: عبد السلام هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، ١٦٢.

[٢] عبد السلام هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، ١٦٢.

بالله)، وذلك أدى لكسر جمود القالب التكراري، وعدم بقائه على النمط ذاته، حيث نستطيع أن نمثله برسم بياني نوزع فيه ما اقتطعناه من النص مصاحبا للفظ المذكور آنفا:

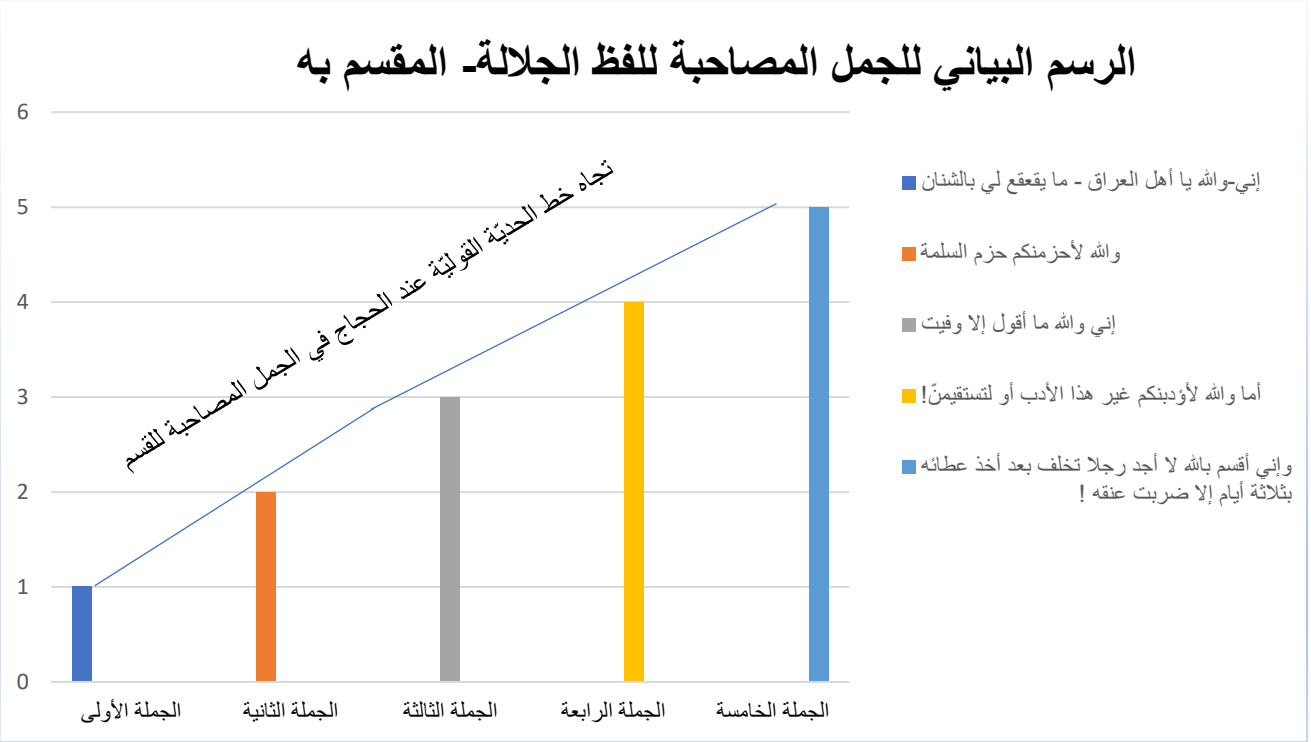

هذا الرسم البياني يسهم في إيضاح مدى ترابط الجمل المصاحبة للقسم ومدى تجاهها نحو حدية القول التي تزداد كلما قيل (والله) حتى وصلت للفظ (أقسم بالله)، ومع بدء القسم كانت الحدية أقل، وكلما تكرر اللفظ نتج عنه تغيير يجري على نبرة الحجاج نحو الأعلى في خطابه، متخذا اتجاها فوقيا يسهم في كسر الرتابة المتولدة عن التكرار، حيث ورد اللفظ مع كل الجمل المصاحبة بما يتلاءم مع سياق الحديث الذي يعمد فيه الحجاج التدرج في تلفظ القول ليصلَ للمتلقي بنمط إيقاعي يتناسب والقسم بأبعاده الدلالية وبنيته الشكلية النابعة من طبيعة الحجاج وشخصيته الطاغية على كل الخطبة.

إن الجمل الإنشائية الطاغية على الخطبة ما هي إلا وحدة البناء الأولية لتشكيل أي خطاب، لما تحتويه من قدرة على التأثير، فتصنف على أنها أفعال كلام جادة وحقيقية الوقوع[1]، وقد جاءت مع صيغة القسم فزادت تأكيد المعنى عند السامع دفعًا لأي لبس، وزادتها

[1] انظر: سارة ميلز، الخطاب، ٧٢-٧٤.

توكيدا بنون التوكيد الثقيلة ولحاقها بالفعل الإنشائي[١] نحو (لأحزمنكم، لأضربنكم...)، فهذان فعلان باتصالهما بالنون أخذا معنى الاستقبال، والحجاج لم يقم بعد بتنفيذ قوله، فلذا صحَّ فيهما المعنى والتوكيد، وهذا الفعل نوع من "المضارع الواقع في جواب القسم غير مفصول من لامه بفاصل، وبشرط أن يكون مثبتا مستقبلا"[٢] نحو ما ضربناه من أمثلة اتصلت بنونَي التوكيد.

- تكرار الجمل

١- يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين

٢- اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين

هذه أمثلة من نص الخطبة، كان حضورها مؤثرًا في ظاهرة التئام جزيئات النص، وعند الوقوف عليها نجدها توكيدًا لفظيًّا، تكرارًا للجملة، يراد به تمكين المعنى في نفس السامع[٣]، وتثبيته في ذاكرته. وهاتان الجملتان الفعليتان من التوكيد الإنشائي الطلبي، الغرض منه الأمر المبني على الطلب، وكررت الجملتان للربط بين معانيها اللاحقة لهما، فالأولى تعطي تفاصيل معلومات بعدها؛ إذ يطلب الحجاج من الغلام أن يقرأ كتاب أمير المؤمنين، وفي أثناء قراءته ترد تحية الأمير للمستمعين ولا يتجاوبون معها ويعتليهم الصمت، حتى اضطر الحجاج أن يوقف الغلام، ويعود لمذهبه في طريقة الخطاب بزجرهم ولومهم على ما آل أدبهم إليه، فما أَوشك الغلام أن يعيد القراءة – كما طلب منه الحجاج – ويصل إلى التحية حتى ردوا جميعهم التحية على أمير المؤمنين، فكانت الحاجة إلى تكرارها لاستمرار عملية سبك النص وإعادة ارتباطها بالمضمون؛ فالجملتان متماسكتان بموضوع واحد وهو رد السلام، وهما بمثابة السبب والنتيجة، والتحليل السابق يظهر ذلك.

---

[١] جميع الأساليب الإنشائية تخضع لنظام التوكيد بالنونين: الخفيفة أو الثقيلة، ولا كذلك الأساليب الخبرية التي يندر فيها التوكيد، وقد يمتنع فلا نجده البتة، انظر: عبد السلام هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، ١٧٣-١٧٤.

[٢] عبد السلام هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، ١٧٢.

[٣] انظر: ابن عصفور، شرح جمل الزجاجي، ٢٣١/١.

التكرار الجزئي

له مسمى آخر منعوت بالتكرار الاشتقاقي الذي كان له أكبر الأثر في السبك الشكلي للنص بإيراد مجموعة من الألفاظ تشترك بأصل لغوي واحد[١]، ومثاله من الخطبة نحو:

- يغمز – تغماز.
- عيدانها – عودا.
- لأحزمنكم – حزم.
- لأضربنكم – ضرب.
- بإعطائكم – أعطياتكم – عطائه.

بالتأمل في الألفاظ السابقة، نجد كل جذر لغوي منها قد وردت منه صيغتان أو أكثر، من مادة (غمز، ضرب، حزم...) ووردت بعض هذه التكرارات موزعة في أجزاء النص، فمنها تكرار مادة (عطي) حيث تولدت منها صيغ عدة:(بإعطائكم، أعطياتكم، عطائه) وأكدت المعنى المراد بأنهم سيأخذون أعطياتهم إن خاضوا الحرب مع المهلب بن أبي صفرة، وهو أيضا يريد أن يرسل رسالة للمتلقي أنه وال ينفذ أوامر أمير المؤمنين ولا يأخذ القرارات وحده وعلى عاتقه، فكما هو ينفذ ما يطلب منه فعليهم أيضا أن ينفذوا ما يأمره منهم وخاصة إن كان من أمير المؤمنين على وجه الخصوص، وهذا ينطبق على بقية الألفاظ المكررة التي أحدثت سبكا نصيا ورابطا قويا من خلال حسن وضعها في موضعها الملائم لها، وأما لغة الحجاج القوية التي سنحت له باستخدام الجذر ذاته بصيغ مختلفة فهي تحمل في طياتها مضمون النص، وتسهم في إيصال المعنى بشكل أوضح للقارئ، فأكثرها موجهٌ للمتلقي، مشتمل على تحذير وترهيب من الوالي لرعيته.

أدى هذا التكرار دورا مهما في كل جزء من النص، وأثبت أن الاشتقاق من الجذر اللغوي الواحد يضفي على النص طابع التنوع، وينفي عنه ما يسمى بالرتابة التكرارية[٢]، وقد أدى

---

[١] انظر: باقر فرج، السبك والحبك في جزء المجادلة، رسالة ماجستير بإشراف محمود اللامي، جامعة المثنى، العراق، ٢٠١٨م، ٩٥

[٢] انظر: باقر فرج، السبك والحبك في جزء المجادلة، ٩٨.

وظيفة أخرى في تقوية المعنى، وإزالة الشك عن الحديث، وخاصة عند توكيده بالمصدر[١] كقولنا: أكل محمد التفاحة أكلا، وضربت زيدا ضربا، فيكون الأكل والضرب قد وقعا حقيقة بخلاف قولنا: أكلت التفاحة؛ إذْ لم تؤكل كاملة بالكمال والتمام، ومنه قول الحجاج "لأضربنكم ضربا" و" لأحزمنكم حزم" و" بإعطائكم –أعطياتكم"، وغيرها حيث سيقع الضرب حقيقة لا مجازا، فالتوكيد باستعمال المصدر ساعد الحجاج في نزع الشك عن حديثه أولا، وفي ذهن المتلقي ثانيا[٢]، وتكرار "يغمز/تغماز، عيدانها/عودا" أدى أيضا للتأكيد وربط الجمل السابقة مع اللاحقة في تناسق منتظم، مما أظهر التماسك والتلاحم بين جزيئات النص مع أن الحجاج قد بالغ في المجاز في لفظ "عيدانها – عودا" حيث أكد فعل أمير المؤمنين حين اختاره واليا على العراق من خلال استخدامه العيدان، وهذا من المجاز رغم عدم حصوله حقيقة، لتقريب الصورة للأذهان ولتأكيد أن اختياره واليًا لم يكن سهلا يسيرًا.

٢– المصاحبة المعجمية

أما القسم الثاني من الاتساق المعجمي فهو التضام أو ما يسمى بالمصاحبة المعجمية Collocation، ويطلق عليه تمام حسان اصطلاح التوارد، ويكون بهذه التسمية أقرب لدراسة الأسلوب التركيبي البلاغي الجمالي منه إلى دراسة العلاقة النحوية والقرينة اللفظية[٣]، واصطلاح التوارد يشكل الوجه الأول للتضام، وستتناوله الباحثة في دراستها، ولن تتناول الوجه الثاني من التضام الذي يسمى بالتلازم[٤] لبعده عن مضمون الدراسة، وعليه يكون التضام حسب هاليداي ورقية "توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة نظرا لارتباطها بحكم هذه العلاقة أو تلك"[٥]، فتكون الكلمة التي وقع فيها التضام أقوى ارتباطا وتماسكا بمجوعة معينة من مجموعة أخرى، وأضرب مثالا عليه:

---

[١] هذا النوع من التكرار يصنف تحت قائمة التكرار المعنوي في النحو، انظر: ابن معط، الفصول الخمسون، ٢٣٥.

[٢] انظر: ابن عصفور، شرح جمل الزجاجي، ١/٢٣١–٢٣٣.

[٣] انظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، (د.ط)، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٩٤م، ٢١، ٢١٦–٢١٧.

[٤] انظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ٢١٧ وما بعدها.

[٥] محمد خطابي، لسانيات النص، ٢٥، والعلاقة بين الألفاظ تكوّن علاقة تضاد أو علاقة تقابل أو علاقة جزء بكل أو جزء بجزء وغير ذلك.

– متى ستزول عتمات ليلي المتكررة؟

– لا تخف سيدي؛ وماذا يفعل النهار.. سوف يجليها ولو بعد حين.

المثال المذكور آنفا يوضح معنى التوارد الذي يتداعى في ذهن السامع، الذي يُسهم في تماسك النص وفي بناء النصية، فإنْ ذُكِرَ الليلُ ذُكِرَ النهارُ لا إراديًّا من الشّخصِ، فهما أزواج كلمات تكون العلاقة بينهما علاقة تعارض مثل قولنا: (شرق/غرب)، (يمين/شمال)، (طويل/قصير) وهلم جرًّا[١].

ولا يفهم من الأمثلة السابقة أن التضام يقف عند حدها، ويمكن استخراجها بكل سهولة، فهناك أزواج من الكلمات مثل: (محاولة/نجاح)، (المرض/الطبيب)، (النكتة/الضحك)، فمن الصعوبة الكشف عنهما في التحليل دون اعتماد القارئ على حدسه اللغوي، ومعرفته بمعاني الكلمات، وإيجاد صلة الترابط بينهما[٢].

وبعد تلك المقدمة التمهيدية على التضام (المصاحبة المعجمية) لا بد من أن نلقي النظر على خطبة الحجاج لاستخراج ما فيها من ألفاظ مفردة أو جمل فيها الضمائم تحقق السبك النصي من خلال ما تكونه من علاقات لغوية عدة، مثلت على النحو الآتي:

- **علاقة التلازم الذكري[٣]**

أينعت / حان قطافها: استدعى الفعل الأول وجود الثاني فجاء ملازمًا له[٤].

---

[١] ومثال التضام الوارد في كتاب الخطابي:

–why does this boy wriggle all the time? – Girls don't wriggle.

وقع التضام في المثال بين لفظ الولد والبنات، مع أنهما ليستا مترادفتين وليس لديهما المحال إليه نفسه، ومع ذلك ورودهما في النص نفسه يسهم في النصية، انظر محمد خطابي، لسانيات النص، ٢٥.

[٢] انظر: محمد خطابي، لسانيات النص، ٢٥.

[٣] ورد المصطلح عند البلاغيين بمعنى مراعاة النظير، وهو الجمع بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد، فإن ذكر استدعى مصاحبه فيما يجمعه من ألف ومنطق: انظر جاسم علي جاسم، أبحاث في علم اللغة النصي وتحليل الخطاب، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٤م، ٧٣–٧٤.

[٤] وقد تكون العلاقة بين الينع والقطف علاقة ترتيب؛ الينع ثم القطف.

- **علاقة التضاد**

أوضعتم واضطجعتم: علاقة تشكلت بجلب اللفظة وعكسها أو ما ينافرها؛ أوضعتم التي تعني الإسراع في إحداث الفتن، مقابل الفعل اضجعتم الذي يعني استلقى ووضع جنبه على الأرض؛ وهذا التضاد جلب معه السبب والنتيجة، فمن أوضع في الفتنة سيؤدى به في نهاية المطاف الوصول إلى مراقد الضلال.

- **علاقة التراتب**

لأجمعنكم جمع السلم، ولأضربنكم ضرب الإبل: جمل متتابعة بحسب الأقدمية، إذ إنّ عملية الجمع تسبق عملية الضرب؛ فلا يكون الضرب في واد والمضروب في واد آخر، فلا بد من جمعهم في بؤرة واحدة، كما يفعل مع شجر السلمة " يشد بعضها إلى بعض ثم يضربها الخابط فيتناثر ورقها"[١].

- **علاقة الجزء بالكل**

قوله "العود والعيدان" فالعود جزء من مجموعة كبيرة تدعى باسم العيدان، فمفرد اللفظ جزء من جنسه الجمعي، وأوردهما معًا لزيادة أهميتهما والتأكيد على اختياره بالفرز وعن دراية وعلم. وقوله "لأؤدبنكم ولتستقيمنّ" الأدب وهو التهذيب جزء من الاستقامة، وهذان اللفظان زادا من التماسك النصي بربط أول الجملة بآخرها، فاكتمل المعنى وأعطى صورة كاملة للمتلقي بجعله كلا موحدا. وقوله "أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال" كأن الحجاج انتقل من التخصيص إلى التعميم، واحتوى التقابل بين جملتي الفعلين المذكورين آنفا علاقة أخرى، وهي جزء بكل، فالفتنة جزء من الضلال، تشكلان مع بعضهما علاقة احتواء وتضمين، وتسهمان بقدر لافت للنظر في كمية السبك النصي الذي منحتاه للخطاب.

---

[١] المرصفي، رغبة الآمل من كتاب الكامل، ٣/٧٦.

المبحث الثاني: وسائل الانسجام النصي

- تمهيد

أولا: السياق وخصائصه

١- طرفا الخطاب: المتكلم والمتلقي

٢- ثنائية الزمان والمكان

٣- نقطتا الابتداء والانتهاء

ثانيا: البنية الكلية (موضوع الخطاب)

ثالثا: البنى النصية الكبرى

رابعا: ترتيب الخطاب

خامسا: البنى النصية الصغرى

سادسا: العلاقات الدلالية

١- علاقة التعميم

٢- علاقة الصفة

٣- العلاقات المنطقية

أ- علاقة السبب – النتيجة

ب- علاقة الإضافة

المبحث الثاني: وسائل الانسجام النصي

تمهيد

إن الانسجام مرتبط بالجانب الدلالي وأدواته التأويل والسياق[١]، ونوع الدلالة دلالة نسبية؛ "أي أننا لا نؤول الجمل أو القضايا بمعزل عن الجمل والقضايا السابقة عليها"[٢]، بخلاف الاتساق المتعلق بالجانب النحوي التركيبي، وبرغم ذلك فكل منهما يسهم في تكوين الصورة الكلية للنص، والعلاقة بينهما علاقة عام بخاص، فالانسجام أعم لتعمقه في العلاقات غير المرئية التي تنظم النص، فضلا عن اختصاصه بالعلاقات المصاحبة لإنتاج النص التي تضفي عليه صفة الترابط والتماسك بما تستدعيه من علاقات[٣] تختص بالاستمرارية "الدلالية التي تتجلى في منظومة المفاهيم والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم. وكلا هذين الأمرين هو حاصل العمليات الإدراكية المصاحبة للنص إنتاجا وإبداعا أو تلقيا واستيعابا، وبها يتم حبك المفاهيم من خلال قيام العلاقات أو إضفائها عليها إن لم تكن واضحة على نحو يستدعى فيه بعضها بعضا، ويتعلق بواسطته بعضها ببعض"[٤]، وسنتناول وسائل الانسجام في خطبة الحجاج على هذا النحو:

أولا: السياق (Context) وخصائصه

إن السياق يشكل أحد طرق فهم المعنى المقصود لدى المتكلم، والوصول إليه، ولا غنى عنه في إظهار التماسك النصي الملازم للسياق، فمعرفة محلل الخطاب النصاني المتكلم من يكون، والمتلقي من هو، يختصر وقتا في التحليل، فتوقع أحداث السياق وما يؤول إليه تكون متيسرة وأكثر دقة وأقرب للصواب، "فكلما زادت معرفة المحلل بخصائص السياق زادت قدرته

---

[١] انظر: حمودي السعيد، الانسجام والاتساق النصي المفهوم والأشكال، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح، الجزائر، ع١٦، ٢٠١٢، ١١٣.

[٢] الخطابي، لسانيات النص، ٣٤.

[٣] انظر: الخطابي، لسانيات النص، ٥-٦، ولمزيد بسط القول انظر: حسام فرج، نظرية علم النص: رؤية منهجية في بناء النص النثري، تقديم سليمان العطار ومحمود حجازي، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٧م، ١٢٧-١٢٨.

[٤] سعد مصلوح، نحو أجرومية للنص الشعري، ١٥٤.

على التنبؤ بما يمكن قوله"[١]، ناهيك عن الدور الفعال الذي يلعبه في حصر التأويلات الممكنة أثناء التحليل[٢]، ويعتمد المحلل النصاني في تحليله على أنواع السياق، وهما نوعان: لغوي، وغير لغوي، فأما اللغوي فالنظر إلى السياق اللغوي(المقالي)Verbal Context الذي ترد فيه الكلمة لمعرفة دلالتها، فهي تتجلى حال استعمالها في اللغة، فيختلف معنى الكلمة باختلاف السياق الواردة فيه، وأما السياق غير اللغوي (المقامي)Context of Situation ويسمى بسياق الحال، وهو الذي يعنينا في هذا المبحث، يتطلب تحليلا للسياق والموقف الذي يتم فيه الحدث اللغوي، ويضم في جنباته السياق العاطفي الذي تختلف فيه درجة الانفعال، فكلمة يبغض غير كلمة يكره في الاستخدام، وسياق الموقف الذي يعنى به الموقف الخارجي الذي تقع فيه الكلمة، فكلمة يرحمك الله قد تقال في مقام الدعاء له بالخير "تشميت العاطس"، وقد تقال عند الترحم على الميت، والسياق الثقافي الذي يعني معرفة المحيط الثقافي والاجتماعي للكلمة في السياق، فكلمة جذر عند المزارع معناها يختلف عند اللغوي وعند عالم الرياضيات، وهذا ما ذهب إليه فيرث صاحب النظرية السياقية ذات المنهج السياقي أو ما يسمى بالعملي[٣].

وبالإضافة إلى معرفة المتكلم والمخاطب معرفة الموضوع الذي يدور حوله النص، والزمان والمكان للحدث، ونقطة البداية والنهاية التي تسهم في فهم النص وإعادة إنتاجه بصيغة مشابهة للأصل الذي طبع في ذهن المتكلم، وهذا يتأتى للمحلل النصاني بعد نظرته لقناة الاتصال والسؤال بينه وبين نفسه عن كيفية التواصل بين الأطراف المشاركة في الخطاب أكانت كتابة أم لفظا أم إشارة أم بوسيلة أخرى، والسؤال أيضا عن لغة التواصل أهي العربية أم غيرها، ونوع النص هل هو رسالة أم شعر أم خطبة وعلى هذا المنوال، والحدث المتضمن للنص[٤]، ولو نظرنا إلى خطبة الحجاج للإجابة عن هذه الأسئلة بعجالة من أمرنا، نجد أن القناة المستعملة هي اللفظ، والشفرة اللغوية العربية، وصيغة الرسالة المؤداة هي خطبة، والحدث الذي تضمن هذه الخطبة تعيين الحجاج واليًا على العراق، وسيأتي المبحث بتفصيل على هذا الموجز الكلامي، مع تحديد طرفي الخطاب، ونقطتي البداية والنهاية.

---

[١] براون ويول، تحليل الخطاب، ٥٠.

[٢] انظر: الخطابي، لسانيات النص، ٥٢.

[٣] انظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ط٥، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م، ٦٩-٧١.

[٤] انظر: ج.ب.براون وج.يول، تحليل الخطاب، ٤٧-٤٩.

لفهم نص الخطبة بشكل عام قبل الكشف عن العلاقات الداخلية التي تحدث في النص ظاهرة أو خفية هناك أسئلة على المحلل أن يجيب عنها ويولي شطرا من اهتمامه في البحث والتنقيب إليها، وهي: "التساؤل عمن فعل؟ وماذا فعل؟ وأين؟ ومتى؟ وكيف؟ ولماذا... الارتباط المعجمي بنوعيه الكبيرين: التراكمي والتقابلي... الارتباط التركيبي الحاصل بالضمائر، وبأداة التعريف..."[١]، والكلام كما نعلم "مركب من ثلاثة: من القائل، ومن المقول فيه، ومن الذي إليه القول" [٢]، والغاية منه هي السامع[٣]، وتتكون كل خطبة من أركان ثلاثة: الخطيب، والموضوع، والمستمع[٤] وأضيف إليهم ثنائية الزمان والمكان، ونقطتي الابتداء والانتهاء، فهما لا تقلان أهمية عن الأركان السابقة، وللخطاب أنواع ثلاثة: مشوري[٥]، ومشاجري[٦]، وتثبيتي[٧]، وتصنف الخطب حسب موضوعاتها إلى سياسية ودينية واجتماعية[٨]، وهذا بيان لما ذكر آنفا:

أركان نص خطبة الحجاج	
المتكلم	الحجاج بن يوسف الثقفي
المتلقي	حشد من أهل العراق

[١] محمد مفتاح، دينامية النص، ط٢، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٠م، ٥٢-٥٣.

[٢] أرسطو طاليس، الخطابة: الترجمة العربية القديمة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، ١٩٧٩م، ١٦.

[٣] انظر: أرسطو طاليس، الخطابة، ١٦.

[٤] انظر: محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي: مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجا، ط٢، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٢م، ٣٨.

[٥] الإشارة تكون في العوام أو الخواص لأخذ إذن أو لمنع من المخاطب.. انظر: أرسطو طاليس، الخطابة، ١٧.

[٦] أشخاص يتشاجرون لشكاية أو اعتذار. انظر: أرسطو طاليس، الخطابة، ١٧.

[٧] المثبت فيه المدح والذم، وسماه العمري بالبرهانية (أي البراهين) بدل تسمية المثبت، انظر: أرسطو طاليس، الخطابة، ص١٧، ومحمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ٣٨.

[٨] انظر: محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ٤٠.

الزمان	الماضي، في وضح النهار، حين سار في اثني عشر راكبا على النجائب[1].
المكان	أحد مساجد الكوفة في رجب سنة خمس وسبعين عندما ولاه عبد الملك بن مروان على العراق[2].
الابتداء	**الاستشهاد ببيت الشعر** أنا ابنُ جَلا وطَلاعُ الثّنايا متى أضَعِ العِمامةَ تَعرفُوني
الانتهاء	قراءة رسالة أمير المؤمنين
الموضوع فكرة وغاية	– إقامة العدالة على أرض العراق، وتغييب الفساد في المجتمع. – وعيد وتهديد للوصول إلى طاعة الوالي، والوفاء له.

وشرح ما جاء به الجدول هو موضع مُحْوِج إلى فَضلِ تأمُّل، نأتيه في الحديث ممّا هو تالٍ له ومحمول في الحاجة إليه، فلا بدّ معه من تفصيل مجمل يقتضي تمهيدًا يومئ ويشير نحو خصائصه التي تظهر عوالمه وترسم طريقه.

١– طرفا الخطاب: المتكلم والمتلقي

إن قراءة السياق تتحتّم على المحلل النصاني أن يعرف من المتكلم، ومن المتلقي، وخاصة إن كانت الخطبة لَمْ توجه إلى عامة الناس، بل وجهت إلى فئة معينة سكنها العراق، فمن

---

[1] انظر: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ١٢٧/٢١، والنجائب هي خيار الإبل.

[2] انظر: خليفة بن خياط، أبو عمرو العصفري (٢٤٠هـ)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم العمري، ط٢، دار طيبة، الرياض، ١٩٨٥م، ٢٩٣، والنويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ١٢٧/٢١، وابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق محمد عبيد، ٣٠٥/٩.

الصعب في هذه الحالة فهم النص دون البحث عن أصلهما ومن يكونان، وما موقعهما من الخطاب.

الحجاج الثقفي له نسب طويل، وهو "الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن عامر بن مسعود بن متعب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف أبو محمد الثقفي"[١]، كان شابا لبيبا فصيح اللسان بليغ القول حافظا للقرآن[٢]، ولي العراق بأمر من عبد الملك بن مروان، وألقى في أول يوم ولايته خطبته المشهورة التي نقف عليها، وبقي واليا عليها لمدة عشرين سنة حتى توفاه الله في رمضان عام خمسة وتسعين للهجرة[٣]، واتصف بالشدة والصرامة، إلا أنه عرف عنه لين القلب بذكر الموت والقبر، فكان يبكي ويستبكي من حوله[٤]، وكان يتصف بالشجاعة والحزم والصرامة وحبه للقتل وسفك الدماء وسرعة في تنزيل العقوبات في أهل العراق، ومنهم من يرجع السبب في هذا الحبّ أنه وفي أثناء رضاعته سقوه دم جدي

---

[١] ابن الأثير الجزري، أبو الحسن عز الدين (٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، مراجعة وتصحيح محمد الدقاق، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ٢٨٤/٤، وانظر: البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (٢٥٦هـ)، التاريخ الكبير، تحقيق هاشم الندوي وآخرين، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ٢٠٠٤م، ٢٧٣/٢، النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٢٠٠/٢١، ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق محمد عبيد، ٢٩٨/٩، وقد ورد نسبه عند ابن خلكان برواية أخرى: "أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن مُعَتِّب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قسيّ–وهو ثقيف": ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٢٩/٢.

[٢] انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق محمد عبيد، ٣٠١/٩.

[٣] انظر: البلاذري، أبو بكر أحمد بن يحيى(٢٧٩هـ)، جُمل من أنساب الأشراف، حققه سهيل زكاره ورياض زركلي، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م، ٣٧٤/١٣، والبلاذري: بفتح الباء وضم الذال وكسر الراء، نسبة لشجر البلاذر، يقال إنه كان يشرب نقيع ثمر البلاذر لتقوية الذاكرة، لذلك عرف بالبلاذري، وهو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود، ولد في بغداد، وهو من أبرز مؤرخي الفتوحات في القرن الثالث الهجري، وقيل عن وفاته أنها كانت في شوال سنة خمس وتسعين، انظر في ترجمته: البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، ١/المقدمة، والنويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ١٨٦/٢١، ٢٠٠–٢٠١.

[٤] انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، ٢٨٤/٤، ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق محمد عبيد، ٢٩٩/٩، ووردت أخبار عنه في اتخاذه العفو والمسامحة بدل القتل في عدة قرارات كان يعطى الأمر فيها بالقتل، ومنها عندما جاءه كتاب عبد الملك بقتل أسلم بن عبد الله البكري لشيء بلغه عنه، فأحضره الحجاج وعندما سمع قصته بكى وقال: والله لا أعنت الدهر عليكن ولا زدتكن تضعضعا، انظر المراجع السابقة، بالإضافة إلى النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٢٠١/٢١–٢٠٢.

ودما شديد السواد يقال له السالخ فارتضعه ولطخ به وجهه[١]، فنشأ وترعرع على ذاك، وكانت فيه "شهامة عظيمة، وفي سيفه رَهِقٌ، وكان كثير قتل النفوس التي حرمها الله بأدنى شبهة، وكان يغضب غضب الملوك"[٢].

إذن، يشهد للحجاج أنه متعطشٌ للقتل وسفك الدماء، فسيفه ظمآن جائع، إن ضرب قطع، لا ينظر لمنصب المقتول ولا لنسبه، يقتل وليس في القتل عنده مثنويّة، الدم له محلل، وضرب العنق عنده لذة يستلذ بها، وهذا من جراءته، وسبب إقدامه على ذاك عدم وجود من يردعه على فعله الشنيع، فهو جبار شقي، قال فيه عبد الملك بن مروان مخاطبا إياه: إن بينك يا حجاج وبين إبليس نسبًا[٣]، ومن المواقف الظريفة التي حدثت مع الحجاج وتؤكد خوف النّاس منه، وتصف الرعب الذي دبّ في قلوب المتكلمين معه أثناء الحديث المتبادل بين الطرفين يرويها البلاذري في كتابه: "وحدثني الحرمازي عن أبي اسماعيل الثقفي قال: خرج الحجاج إلى ظهر الكوفة في غُبَّ مطر، فرأى رجلا واقفا في طرف الحيرة فقال له: ما تقول في أميركم؟ قال: الحجاج؟ قال: نعم. قال: زعموا أنه من ثمود، وكفى بسوء سيرته شراً، فعليه لعنة الله، فقال الحجاج: أتعرفني؟ قال: لا، قال: أنا الحجاج. قال: أفتعرفني أنت، أصلح الله الأمير أنا مولى بني فلان أُجنُّ في كل شهر ثلاثة أيام، فاليوم آخرهنَّ وهو أشدهنّ، فضحك ولم يعرض له"[٤].

وعودة على بدء، لم تكتف خطبة الحجاج الأولى له بالتهديد والوعيد لأهل العراق، تلك التي ألقاها عند مقدمه إلى الكوفة، بل قام بمثيلها عندما قدم البصرة إذ خطب بمثل ما خطبه في الكوفة، بلسان عربي فصيح عرف عنه، فخطبه تدل على فصاحته وما يمتلكه من حسن بيان[٥]، وأما أقواله فكانت كما الخطب شديدة عنيفة، نذكر منها على سبيل المثال قوله لأنس

---

[١] انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان،٣١/٢، والنويري، نهاية الأرب في فنون الأدب،١٣٥/٢١، وابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق محمد عبيد، ٣٠٠/٩.

[٢] ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق محمد عبيد، ٣٠٠/٩، ٣١٦.

[٣] انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق محمد عبيد، ٣١٥/٩.

[٤] البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، ٣٩١/١٣، وفي رواية ابن خلكان إضافة، ومن تلكم الإضافة قول الرجل في الحجاج: لعنه الله، المبيد المبير الحقود، عجل الله الانتقام منه، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان،٣٩/٢-٤٠.

[٥] قيل على لسان أبي عمرو بن العلاء عن فصاحة الحجاج:" ما رأيت أفصح من الحجاج "، انظر: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٢٠١/٢١.

بن مالك _رضي الله عنه_[١] عندما دخل عليه فقال له الحجاج :" لا مرحبا ولا أهلا، إيه يا خِبْثة؛ شيخ ضلالة، جوّال في الفِتن، مرّة مع أبي تُرَاب، ومرّة مع ابنِ الزُّبيرِ، ومرّة مع ابن الجارود؛ أما واللهِ لأجردنّك جَرْدَ القضيبِ، ولأعصبنّكَ عَصب السّلمة، ولأقلعنّك قلعَ الصّمغة"[٢]، وهذا أنس! وتجرأ عليه في القول! فما بالنا في غيره؟!! لنتوصل مما ذكر عنه من خطب ومن أقوال ومن أحداث أنه يرى أن دواء الأمة بالسيف حتى تستقيم ويصلح أمرها، وتصبح كلها موالية له، تحبّ ما يحبه وتكره ما يكرهه[٣].

إن خطبة الحجاج الأولى جاءت جملةً واحدة، وفي زمان واحد، وفي مكان واحد، قالها قولا واحدا لم يجد فيه من يَنفيه ويَرُدّه، مستعينا بلسانه لأنه "أسرع الأعضاء حركةً وقبولا للترداد"[٤]، وباب القول ههنا على قوة خطابه، أيقف أحدهم وراءه سندا ودعما له؟

إن الحجاج اتخذ الخليفة عبد الملك بن مروان داعما له، فسانده لثقته فيه، وديمومة لاستمرار ولايته على أهل العراق، ومما جاء في وصيته لبنيه عند موته: "وأكرموا الحجاج فإنه الذي وَطَّأ لكم المنابر ودَوَّخ لكم البلاد، وأذلّ لكم الأعداء..."[٥]، ولا عجب أن يذكره في وصيته لأنه كان كمثل الحجاج محبا لسَفْك الدماء، مُقْدِمًا عليه[٦].

---

[١] أنس بن مالك من الأنصار، مات وكان عمره ستا وتسعين سنة، انظر: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ١٩٣/٢١.

[٢] النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ١٣٤/٢١، ومعنى يا خبثة: أي يا خبيث، وأبو تراب: كنية علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) والسلمة: شجر من العضاه يدبغ به، وانظر نفس المرجع نفسه تتمة الحديث الذي جرى بينهما حتى الصفحة ١٣٦.

[٣] انظر النصوص التي وردت عن الحجاج من خطبه وأقواله وما ذكر عن مقتله لسعيد بن جُبَير الذي لم يفارق منامه وهو يأخذ بمجامع ثوبه، ويقول: يا عدو الله، لم قتلتني؟ وغير ذاك مما قيل عند: انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٢٠٤/٤-٢١٢، النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ١٢٧/٢١-١٣٧، ١٤٢، ١٩٥-١٩٦

[٤] السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرح وضبط وتعليق محمد المولى بك ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، (د.ط)، المكتبة العصرية، بيروت،١٩٨٦م، ٣٦/١.

[٥] النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ١٦٩/٢١.

[٦] انظر: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ١٧٠/٢١ .

إن معرفة سيرة الحجاج تساعد في الكشف عن المعاني المتخفية في سياق الخطبة، وما تحتويه من دلالات نصية داخلية وخارجية تنتحيها من منحى وثيق الصلة بالإبانة عن القائل ومعرفة نسبه، فوحدة النص وتماسكها أظهرت مؤشرا سياقيًّا يعطي معلومات عن القائل ويعضد مما عرفناه عنه سابقا، ففي قوله (أنا ابن ...) تشير إلى الحجاج ونسبه المذكور آنفا بموجب التماسك، كما يتضح لنا أن بداية كل فقرة تصدر عن المتحدث هي تعبير عن سلسلة كلامية ترجع بصلتها للقائل[1]، وهذا ما نتمثله من نص الخطبة:

- "وقال: يا أهل الكوفة، إنّي لَأَرَى رؤُوسًا قد أَيْنَعَتْ وحان قِطافُها..."
- "إنّي – والله يا أهل العراق – ما يُقَعْقَعُ لي بالشِّنان..."
- "والله لأَحْزِمَنَّكُم حَزْمَ السَّلَمَةِ، وَلَأَضْربنَّكُم ضَرْبَ غَرائِبِ الإبلِ..."
- "وإنّ أميرَ المؤمنين أمَرني بإعطائكم أعْطِياتِكم..."

كل تلك الإشارات في بداية كل فقرة معزوة إلى قائلها الحجاج، وأن التعابير الكلامية فيها سيكون هو المسؤول عن بنائها ببداية ونهاية محددة حتى ينتهي الأمر إلى إنتاج النص معنى ودلالة.

إن خطاب الحجاج يتبلّر بين طرفين اثنين من العلاقات اللغوية (أنا) المتكلم و(أنت) المتلقي للخطاب، فحين يبدأ (أنا) بالتحدث تتحول اللغة إلى خطاب، يتجلى في إشارات تبين عن طبيعة العلاقة بين الطرفين[2]، وقد فرض الحجاج نفسه ووجوده وذاتيته بلفظ (أنا)، فخطاب الحجاج لا يمكن أن يؤدى بعيدًا عن متلق له، فلا يعقل أنه يقوم بمخاطبة ذاته بهذه الحديّة من الكلام، وأن يستخدم ضمير الجمع لا المفرد في المخاطبة، فالتواصل هدف الخطاب، وركنه الأساس وجود السامع، وأن يكون له غاية يريد إيصالها منشئ الكلام بنص/خطاب معين.

والسؤال الذي يطرح في هذا المقام: ما العلاقة بين طرفي الخطاب كما يظهر على نص الخطبة؟ يبدو أنها مشحونة ومليئة بالغضب عند المتكلم ويقابلها الخوف الشديد عند المتلقي،

---

[1] انظر: جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس الوهاب، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،١٩٨٧م، ٢١٨-٢٢١.

[2] انظر: ذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل،١٥٧.

مما يؤدي إلى أن "تفقد حريتها إذ تخضع لسلطة أعلى"[١]، فخطابه يصطبغ بصبغة سلطيَّة دكتاتورية، فالرعية عليها الإصغاء والاستجابة للأوامر الملقاة عليها دون مناقشة، وهو كما أطلق عليه فوكو تسمية "الفرضية القمعية" التي تحد من حرية الشعب ومن تحقيق ما يريدونه، والذي يساعد على ذلك أن يكون منشئ الخطاب[٢] الحاكم في السلطة[٣]، ويُرجع أحد الباحثين لغة الحجاج الخطابية التي اتصفت بالاتهام والتهديد والوعيد إلى زمن علي بن أبي طالب حينما اتهمه جنوده بسوء التدبير لينشقوا ويكونوا حزبا مستقلا بهم، بالإضافة إلى التخاذل الذي منحوه إياه، وهذا التخاذل أدى فيما بعدُ إلى انهزام الشيعة وقتل زعمائهم، وزرع في نفوس العراقيين شعورًا بالذنب، وكان له عظيم السهمة في توسيع الهوة بين الخطيب الأموي وجمهوره من أهل العراق عامة، والكوفة خاصة[٤].

وهذا المخطط يقف عند حدود المقام في خطب الحجاج مفصلا وموضحا العلاقة بين الحاكم والرعية[٥]:

---

[١] ذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل، ١٠٠.

[٢] منشئ الخطاب أي منتجه.

[٣] انظر: سارة ميلز، الخطاب، ٣٢..

[٤] انظر: محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ٥٥-٥٦.

[٥] محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ٦٠-٦١.

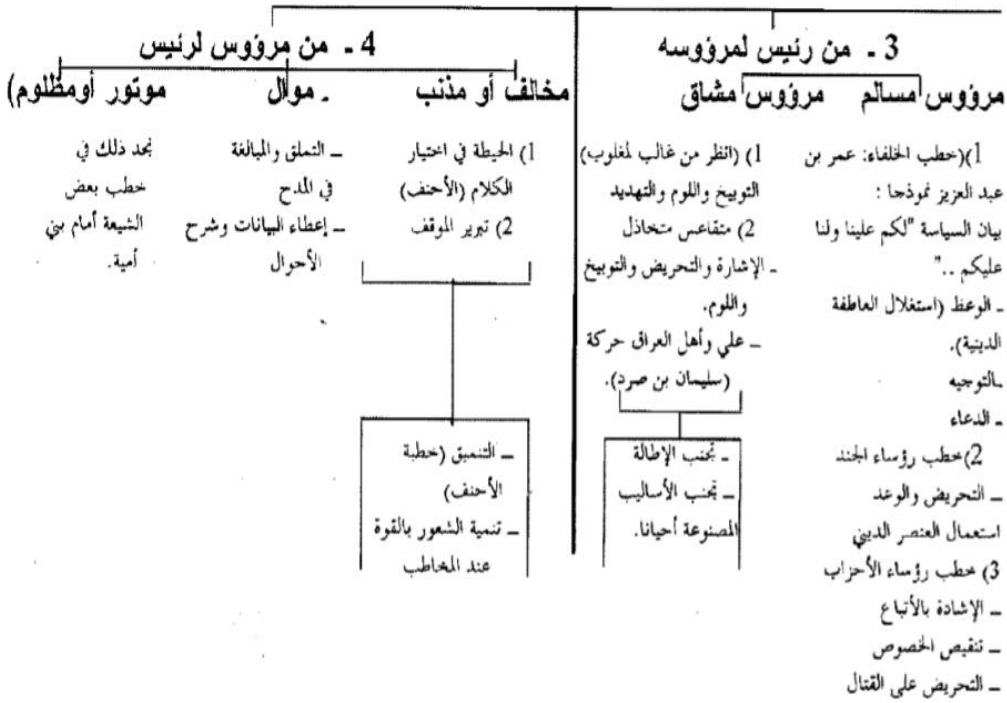

إن المخطط قد أوضح صورة الشعب المغلوب، واعتماد الحاكم على صور الاتهام وإقامة الحجة عليهم، فأوجز في إعطاء الصورة عن العلاقة التي كانت بينهما، ونشأت منذ ولاية الحجاج العراق، والرؤية الغالبة على الخطبة الصفة الأكثر شيوعة عند بني أمية، إذ يقول أحد الباحثين عن الصفة السائدة شيوعة "التهديد بالحرمان والقتل عند خطباء بني أمية خاصة مع تشخيص العقاب، وتسود، بصفة عامة، مفاهيم الراعي والرعية والعلاقة المتوترة بينهما؛ الرعية الغافلة عن عبادة الله الثائرة على (الخليفة)، والراعي الذي يحمل وزر الفتنة الكبرى، باغتصاب الحق"[1].

٢ – ثنائية الزمان والمكان

إن فضاء الزمكانية يتكون من الزمان والمكان، ولاجتماعهما وعدم تفرقهما في أي نص خطابي، ارتأيت الخروج بهذا العنوان الدامج على الفصل بينهما، وابتدئ بالزمان، إن الزمن الخطابي في متن النص قد روي أنه كان في الفترة الصباحية، وفي الزمن الماضي الذي قيس

[1] محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ٥٩.

طوله "بمقدار المدة التي تستغرقها العودة إلى ماضي الأحداث"[١] زمن عبد الملك بن مروان، حيث كان يستهدي بنصائحه، وهذا جدول يوضح ما تذهب إليه الباحثة:

الزمن	موضوع الزمن
الماضي	جرت فيه جميع الأحداث وقيلت فيه الخطبة.
صباحًا	توقيت سماع الخطبة الأولى للحجاج في مسجد الكوفة.

وحين نتأمل موضوع الخطبة نلحظ عليه أنه أعطى عدة إشارات للقارئ غير الزمن الماضي، منها: الإشارة الزمنية للزمن الحاضر (إني لأرى رؤوسا قد أينعت...)، وأخرى لزمن المستقبل (وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى)، وهذه الإشارة كانت إجابة على ما رمقوه به من نظرات صامتة، وتمتمات تخصه قبل أن يبدأ بالتعريف عن نفسه، وكان ذلك في أول لقاء يجمعه وإياهم، وهاتان الإشارتان الزمنيتان (الحاضر والمستقبل) يفصل بينهما فاصل قصير بدليل قوله (حان قطافها) التي تدل على الآن المستعجل، وقوله (وكأني أنظر) الدالة على تجسيد المشهد وتحويله واقعا على أرضية الحقيقة برسمه ما سيقوم به من فعل، فهو يركز على الفعل أكثر من القول، وترى كلامه يعصر حقيقة المستقبل القريب، لنجد أن الخطبة احتوت إشارات زمانية مختلفة ومتنوعة، وكل منها يدل على قول أو فعل يختلف عن الآخر، وهذا يتأتى لخطيب بصير بالأمور، عالم بما يصنع.

أما العنصر الثاني فهو المكان، وقد قيل في مكان خطبة الحجاج الأولى: "خرج الحجاج يريد العراق واليا عليها في اثني عشر راكبا على النجائب، حتى دخل الكوفة (فجأة) حين انتشر النهار... فبدأ الحجاج بالمسجد فدخله، ثم صعد المنبر وهو ملثَّم بعمامة خزّ، فقال: عليّ بالناس، ... حتى إذا اجتمع الناس في المسجد، قام، ثم كشف عن وجهه"[٢].

---

[١] حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي: الفضاء–الزمن–الشخصية، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٠م، ١٣١، وانظر في ذات المصدر عن الزمن وتجلياته بنماذج تطبيقية: ١٠٥–١٥٥.

[٢] ابن عبد ربه، العِقد الفريد، ٢٠٨/٤.

إن المكان الذي أودعه الحجاج في خطبته وهو (الكوفة)، كما تبين لنا من القول السابق، أكسبه بعدا دلاليا تمثل في أن الخطاب سيتوجه لأهل هذا المكان، فخصهم في الحديث، لأنهم الهدف من الخطاب كله الذي لم يأت من فراغ، ولم يشكل عنصرا زائدا، بل تضمن معاني عديدة من بينها التوكيد والجزم أنه الوالي عليهم، والكوفة ستكون مكان إقامته، فغدت عنصرًا مهما في النص، تستمد اسمها من الوالي عليها، الحجاج، فهي مكان التناقضات بين الظلم والحق، وتتلون على حسب نفسية الحجاج وحسب ما يذهب إليه من مذهب في قراراته الإدارية وممارساته على الشعب، وإن تشكيل الفضاء الخطابي لخطبته خضع لتفكيره المسبق عنه. أما مكان الانتقال وهو المسجد فقد مثل مساحة لتحرك الوالي فيه وتواجد أهل العراق، وكذلك غدا مكانًا يجمعهم كلما غادروا أماكن إقامتهم الثابتة، أي بيوتهم مع العائلة، فكان المكان الذي يجمعهم خارج بيوتهم، لما غلب عليه من صفتي الانتقال والحركة، غير أنه يشكل فضاء مغلقا يجمع الحاضرين تحت سقف واحد لمحدودية المكان، مما يسمح للخطيب أن يوصل صوته للجميع، فيغدو المكان مصدرا لنقل الأخبار والتأثير على المتلقي، وهذا ما قام به الحجاج، ووراء مظاهر الانفتاح المكاني بلفظة (العراق) ثمة انغلاق داخلي متأصل في لفظة (الكوفة) تسلب منه العامية وتوجهه لجماعة خاصة في مكان محدد من ذاك المكان الواسع، فتغدو الكوفة البوصلة التي سيرتكز الحجاج فيها، ويتحكم في اتجاهاتها التي تصوب هدفها نحو العراق أجمع[١].

ونستنتج مما سبق أن الزمان والمكان عنصران مهمان، متلازمان لا يفترقان في أي نص مهما كان نوعه، وقد كانا مرآة عاكسة لشخصية الحجاج، فكيف ساهما في تماسك النص؟

إن العلاقة الدلالية بين المتكلم والمخاطب يطغى عليها حزمة من الصفات، منها علاقة كراهية وتباغض وانفصال، فالاتصال بينهما معدوم كما نراه على البنية السطحية للنص، فلا يوجد تفاعل وتواصل واندماج يجمعهما، وتبقى علاقة الانفصال هي التي تطفو على تشكلات المعنى الدلالي للخطبة[٢]، فما فائدة معرفة ذاك في إظهار عنصري الزمان والمكان؟

---

[١] لمزيد بسط القول في المكان، وتجليته في الأمثلة التطبيقية، انظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ٣٣-١٠٤.

[٢] انظر: محمد مفتاح، دينامية النص، ٦٧.

إن هذه العلاقة تتم في زمن معين يستخلص من نص الخطبة، أحده يدعى بالكلامي النحوي، يتجلى من خلال السياق، ففي مطلع الخطبة يقول: إني لأرى رؤوسا قد أينعت ... يدل الفعل المضارع على استشراف المستقبل والزمن الحالي الدال على الاستمرارية غير الثابتة في زمن معين، وكأنه يقول في كل وقت سأرى رؤوسا قد أينعت ويحين قطافها ...، وفي قوله: ولقد فرزت عن ذكاء، وفتشت عن تجربة دل على الزمن الماضي حيث كانت عملية تعيينه واليًا على الكوفة، وفي استخدامه لجملة ضربت عنقه الدالة على الزمن الماضي لكنها مستمرة في الزمن الحاضر لتؤدي غرضا مفاده إرسال رسالة للمتلقي أنه لو لم يؤد ما أمر به فليتأكد أن عنقه ستطير في جواء العراق.

إن مقاطع النص تمتزج فيها الأزمنة الثلاثة: الماضية والحالية والمستقبلية، دلت عليها الأفعال النحوية المستخدمة من المخاطب، والتي تشكل كل منها بهيئة مختلفة مرة على شكل تشبيه وأخرى استعارة ومنها بأسلوب إنشائي وآخر خبري وغير ذاك، ولا ننسى أثناء تأديتها لوظيفتها أنها ضمنت حركة النص وتطوره وثراء خطبته[١].

إن هذه التفاعلات الزمنية الثلاثة أعطت وصفا لوضع العراق مع الوالي الجديد، وكلها تصب في منبع واحد ينعت بالزمن الاجتماعي الذي يعطي صورة عن الزمن الماضي والحاضر، وهذه جمل اجتزأتها من النص جمعت اللحظة الاجتماعية التي عاشها العراق والحجاج في زمني المضي والحضور: "فإنكم لكأهل قرية (كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رَغَدا من كل مكانٍ فكفرَتْ بِأنْعُمِ الله فأذاقها الله لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعون)"، وفي قوله: "هذا أدب ابن نِهية[٢]، أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن"، في هذين القولين يلحظ أن الاستمرارية الدلالية خالية من الوقفات والفواصل، وكأن قوله قول واحد، يكمن الزمن الاجتماعي فيه بصورة معبرة عن الحال وموجزة الزمن التاريخي في بضع كلمات، بشكل مكثف يعبر عن سنوات تاريخية مديدة قضاها أهل العراق في نظره بهناء دون ترقب وتتبع حركاتهم، لتأتي عليهم سنوات عجاف من الظلم والحصار الحجاجي الذي سينعكس على الحالة النفسية لأبناء مجتمع العراق[٣].

---

[١] انظر: محمد مفتاح، دينامية النص، ٦٨.

[٢] ورد الحديث عنه في صفحات البحث، انظر في نص خطبة الحجاج كاملة.

[٣] انظر: محمد مفتاح، دينامية النص، ٦٨-٦٩.

إن تمت العلاقة في زمن معين فمن البَدَهِيّ أن هناك إطارا مكانيا يجمعها والحدث التاريخي المنجز فيها، يحيا به الإنسان ويتأثر ويؤثر فيه، ويتكيف بعلاقات اتصالية تواصلية مع المجتمع، وكما الزمان يقسم المكان، حيث يصنف لمكان لغوي، وآخر اجتماعي[1]، فمن ناحية لغوية ظرفية نحوية يبدأ خطابه بتصوير دماء أهل الكوفة التي ستتجمع في بؤرة مركزية بين العمائم واللحى، ثم ذكر موقعهم قبل مجيئه إليهم في قوله "واضطجعتم في مراقد الضلال"، وفي ذكر كيفية اختياره واصفا نفسه بالعود الصلب وموقعه بين يدي أمير المؤمنين في قوله عنه: "نثر كنانته بين يديه"، ومن منظور المكان الاجتماعي يبدأ بالتخصيص ثم التعميم:

- الكوفة / بين العمائم واللحى: مكان خاص مقابل خاص
- العراق/ اضجعتم في مراقد الضلال: مكان عام مقابل عام

جاء المكان محدود المساحة، ثم توسع ليمتد ويصل العراق أجمع، بصفات مختلفة تجمعها الظرفية النحوية؛ لأن البطش سيطغى عليها كلها، يبدأ خفيفا ثم يكبر مع الزمن ليصبح بطشا شديدا، فالمكان الاجتماعي يلتحم مع الزمن الاجتماعي ليخترق البنية الدلالية السطحية، ويخرج محمولات البنية العميقة المتمثلة في دلالاتها ومعانيها، فوضع المكان الكوفة خاصة والعراق عامة في الزمن الماضي يختلف عن وضعه زمن الحجاج، استقرار مقابل هلاك ودمار.

تبين من الزمكانية النصية أن الصراع قائم على مر العصور، والتاريخ يبرهن ذاك، وعموده اللغة ومستوياتها والمجتمع وأفراده يشتغلان في الفضاء النصي ليبثا الحياة فيه، ثم يتحكمان في حركته الدائرية مرة تميل على الزمان، وأخرى على المكان، وأخرى تميل إحداهما على الأخرى ممتزجتين بصورة كلية تبادلية بين التأثير والتأثر والأخذ والعطاء...

٣- نقطتا الابتداء والانتهاء

إن نقطة الابتداء محور النص، وعموده الفقري الذي تقف عليه، وعلى فقراته يبنى ويتشكل حتى يصل نقطة النهاية، وما بين النقطتين جسر تواصل من الأفكار الفرعية المتصلة

[1] انظر: محمد مفتاح، دينامية النص، ٦٩-٧٠.

بهما، وهذا الجسر يكوّن نصا متكاملا متماسك الأطراف مع البداية والنهاية النصية[١]، وفي خطبة الحجاج نجد أن البداية توجت في نصه باستشهاده ببيت الشعر:

أنا ابنُ جَلا وطَلاعُ الثّنايا متى أضَعِ العِمامةَ تَعرفُوني

فاتحة الكلام ومستهله، و"الوحدة البنائية الأولى من النص... تفتح للخطاب قناة الاتصال"[٢]، وقد كان مناسبا مع نزعه اللثام عن وجهه، فحركته التي قام بها تتلاءم مع معنى البيت، فهم لم يتعرفوا عليه بلثامه إلا بكشفه فما عاد يخفى عليهم، وأحس الحجاج أن عليه أن يقدم الخطبة بكل شدة وحزم ليمسك زمام السلطة، ويبقى المستمع تحت ولايته، فعدّه نكرة لا شيء، وعليه أن يجبله من جديد، على الهيئة التي يرتضيها.

وهذا المطلع مقتبس عن الشاعر سُحيم بن وَثيلٍ الرِّياحي أَحَدُ بني حِمْيَر، وهو شاعر مخضرم عاش أربعين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام، تحدياه الشابان اليافعان الأخوصُ والأُبَيْرِدُ في الشعر وهو ابن الخمسين سنة فأراد أن يظهر لهما حنكته وقوته ودهاءه، فقال هذا البيت يقارع به هذا التحدي، ويفخر بأبيه وعشيرته وشجاعته، فقوله: طلاع الثنايا، ما هو إلا تأكيد لهما على جلده الذي يتمتع به، وتقال للنافذ في الأمور، والثنايا: الطريق في الجبل، فهو يريد أن يقول إنه جَلْدٌ يطلع الجبال بصعوبتها بكل شجاعة ، ولا عجب من ذلك، فنسب أبيه سبقه، ومكانته مرموقة ذات شرف عال[٣]، أما العمامة المذكورة في البيت فيقصد بها: "أي متى أسفرْ وأحدرْ اللثام عن وجهى تنظروا إلى فتعرفوني"[٤]، وفي ربط المناسبتين، مناسبة قوله من سحيم ومناسبة قوله من الحجاج، كلاهما في صراع وتحد مع المتلقي، ويريدان إثبات نفسيهما، وتهميش من يقف أمامهما، فجاء البيت ملائما مع ما يحمله الحجاج من فكر سلطيّ، فابتدأه بالتعريف بنسبه العريق من جهة أبيه: (أنا ابن جلا ....) نتحدث هنا عن الذاتية في

---

[١] انظر لمزيد بسط القول عن موقف القدماء بالنسبة لشروط استحسان المطلع، ونقطتي التخلص والانتهاء: محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ط١، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ٢٠١٤م، ٩١، ٩٣-٩٤، ولابن الأثير أمثلة مجلية في حسن التخلص من القرآن والشعر والنثر، وقد أورد نماذج للتخلص القبيح بعد عرضه الحسن، انظر: ابن الأثير، المثل السائر، ٣/١٢١-١٣٩.

[٢] محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ٩٢.

[٣] انظر: الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيب (٢١٦هـ)، الأصمعيات، تحقيق وشرح أحمد شاكر وعبد السلام هارون، ط٥، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥م، ١٧-١٨.

[٤] الأصمعي، الأصمعيات، ١٨.

الخطاب، فذاتية الحجاج لعبت دورا منتجا لإبراز الذات، فقوله (أنا ...) تأكيد للسامع أنه من قام بفعل التحدث لا غيره، فهو الذات المتحدثة والمتمثلة بصورة عاكسة لذاته[١]، هذا الخطاب الذي اتخذه الحجاج، وانطلق منه يحدد طريقة تفكيره السُّلطِيَّة، ونظرته لمن يحكمهم من الشعب.

والمؤشر الثاني فيما ذهب إليه القدماء هو حلقة الوصل بين تَيْنِكَ النقطتين: مبدأ التخلص، الذي نعت بأسماء عدة منها التخلص والخروج والتوسل على سبيل الحبك بين معنيين اثنين أو غرضين، ينتقل المخاطب من أحدهما إلى الآخر بصلة لطيفة لا تشعر السامع بها[٢]، ولما شعر الحجاج باتعاظ الناس بما يقوله تحذيرا، عقبه بالوعيد والتهديد إن لم تطع أوامره، فينتقل في كل فقرة إلى المقصود دون شعور السامع بخلل في الانتقال إلى الغرض التالي، والمعنى المراد المتصل بسابقه، فهو وصلة تربط النصوص مع ما قبلها وما بعدها بكل خفة دون ترك أي أثر سلبي يظهرها مفككة الأجزاء مبنًى ومعنًى.

وأما نقطة الانتهاء فهي آخر ما يتبقى من الخطبة في الأسماع، فإن كان الابتداء مفتاح النص، فالانتهاء قفلته المحكمة على عناصره البنائية[٣]، وهو "إحكام معناه بما يكون نتيجة لما قبله، وتدعيما له، ولمقصد النص الكلي في آن معًا؛ وذلك أن القاعدة لا تكون قاعدة إلا إذا كانت مرتبطة بما فوقها ارتباطا دلاليا بعلاقة ما، وهي غالبا علاقة السبب–النتيجة"[٤]، فمن أسباب الخطبة فضلا عما سبق قراءة كتاب أمير المؤمنين وما جاء فيه، وبقراءة الكتاب يقوى ويحقق ما يصبو إليه من قمع الشعب واستجوابهم لمطالبه؛ فكان يسترفد المعاونة من أمير المؤمنين قوة له، واستجوابا لمطالب مسؤوله.

وخُلاصَةُ القَولِ أن الحجاج قد أحسن فاتحة خطبته بما يناسب الغاية المنشودة، وبرع في الاستهلال والابتداء؛ لعلمه ما لها من وقع على السمع، وإقبال السامع إليها، وحسن إصغائه

---

[١] انظر: ذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل، ٩٥.

[٢] انظر: ابن رشيق القيرواني، العمدة، ٢٣٦/١ – ٢٤٠، ومحمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ٩٦، ١٠١.

[٣] انظر: ابن رشيق، العمدة، ٢٣٩/١–٢٤١، وسماه ابن رشيق–أي الانتهاء– قاعدة القصيدة.

[٤] محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ١٠٢.

لما بعدها[1]، حتى يقع المعنى من السامع في أُنُفِ الفهْمِ، بالإضافة لاستطاعته أن يجهر بقوله دون رهبة، وأن يسكن قلوب رعيته الخوف بهذا الخطاب.

ثانيا: البنية الكلية (موضوع الخطاب)

مبدأ يجد صداه في انتظام المعنى ورتابته عند محللي الخطاب هو الوحدة البنيوية، ينظر لها من منظور الحبك الدلالي، ومن الموضع الذي يوضع فيه المعنى مكانه المناسب ملاءمة وتجانسا بين عناصر المنطوق، فيلحظ عليه استقامته من بداية تكوينه حتى ختامه، وقد ورد عن القدماء في صناعة الكلام ونحوه أنّ خير الكلام عندهم المسبوك المحبوك الذي يكشف عن علاقات دلالية بين النصوص[2].

ويتمحور موضوع نص الخطبة حول فكرة أساسية تشكل نواة المضمون، يطلق عليها تسمية "الثيمة" أي موضوع التصور اليومي لحدث ما، يستخلصها القارئ من خلال فهمه للنص بكليته، ولا يعدل عنها الخطيب، وتبقى محورا رئيسا يدور حوله نظم الجمل من بدايتها حتى قفلتها، تتجلى من خلال جملة معينة تؤخذ من النص أو من خلال العنوان، أو ما يتحقق لنا من خلال تجريد المضمون، واستخراجه بعبارة موجزة، تعد ملخصا لكل ما ذكر فيه، تنشأ من الموضوعات الفرعية المتدرجة في الموضوع الرئيس[3]، وللتوصل للموضوع الرئيس ومعرفته من وجهة تحليلية نصية نأخذ نص خطبة الحجاج على هذه الهيئة:

- **(١) يا أهل الكوفة، إنّي لَأرَى أنا رؤُوسًا قد أيْنَعَتْ. (٢) وحان قِطافُها. (٣) وإنّي لَصَاحِبُهَا. (٤) وكأني انظرُ أنا إلى الدّماء بين العمائم واللِحَى. (٥) إنّي – والله يا أهل العراق – ما يُقَعْقَعُ لي بالشّنان. (٦) ولا يُغْمَزُ جانبي كتَغمَازِ التينِ. (٧) ولقد فُرِرْتُ عن ذكاء. (٨) وَفُتّشتُ عن تجربةٍ. (٩) وإنّ أميرَ المؤمنين نَثَرَ كِنانَتَهُ بين يديه.(١٠) فَعَجَمَ عِيدَانها. (١١) فوجدني أَمَرَّهَا عُودًا. (١٢) وأصلبَها مَكْسِرًا. (١٣) فرماكم بي. (١٤) لأنّكم طالما أوْضَعْتُم في الفتنةِ. (١٥) واضطجعتُم في مراقِدِ**

---

[1] انظر: الخطيب القزويني، أبو المعالي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن (٧٣٩هـ)، التلخيص في علوم البلاغة، ضبط وشرح عبد الرحمن البرقوقي، ط٢، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٣٢م، ٤٢٩، ٤٣١.

[2] انظر: محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ٨٨–٩٠.

[3] انظر: كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص: مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، ترجمه وعلق عليه ومهد له سعيد بحيري، ط١، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٥م، ٧٢–٧٥.

الضّلال.(١٦) والله لأحْزِمَنَّكُم أنا حَزْمَ السَّلَمَةِ. (١٧) وَلَأَضْرِبنَّكُم أنا ضَرْبَ غَرائِبِ الإبلِ.(١٨) فإنّكم لَكَأهْلِ قريةٍ (كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رَغَدا من كل مكانٍ فكفرَتْ بِأنْعُمِ الله فأذاقها الله لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعون). (١٩) وإني واللهِ ما أقول أنا إلا وَفَيتُ. (٢٠) ولا أهُمُّ أنا إلا أمضيتُ. (٢١) ولا أخْلُقُ أنا إلا فَرَيْتُ. (٢٢) وإنّ أميرَ المؤمنين أمَرني بإعطائكم أعْطِياتِكم(٢٣) وأنْ أُوَجِّهَكُم أنا لمحاربةِ عدوّكم مع المُهَلَّبِ بنِ أبي صُفْرَةَ (٢٤) وإنّي أُقْسِمُ أنا بالله لا أجِدُ أنا رجلا تَخلَّفَ هو بعد أخذ عَطائِهِ بثلاثة أيام إلا ضربتُ عُنُقَهُ.

يمثل النص السابق من وجهة تواصلية براجماتية أفعالا معلوماتية يرسلها الباث للمتلقي لتعريفه على موضوع ما، يعين من خلال تتبع الإعادة النصية التكرارية في الخطبة، التي تبرزها الوحدات المعجمية لتحديد الموضوع المحوري للنص[١]:

أ- الحجاج – مرجع ١

ذاك المرجع الذي يمثله الحجاج يظهر بشكل واضح في الضمائر المتصلة أو المستترة التي تحيل عليه في صورة جمل خبرية وأخرى إنشائية، أشير إليها في النص آنفا باللون الأحمر.

ب-أهل الكوفة خاصة وأهل العراق عامة – مرجع ٢.

المرجعان المذكوران آنفا ذكرهما الحجاج بالاسم الظاهر لهما، أو عن طريق الاستتار بالضمائر التي تحيل عليهما، وقد قدما للقارئ معلومات مكانية عن موقع الخطبة باعتبارها قائمة وواقعة تاريخيا، فالتحديد المكاني تمثل في ذكر لفظة (العراق) وأشير إليهما باللون الأخضر في النص السابق.

انطلاقا من هذين المحورين نستطيع استنباط الموضوع الرئيس للنص أنه متمحور حول الحجاج وأهل العراق، حيث سيقوم النص بتتبع كلا الموضوعين؛ إذ إن الحجاج مثل الأجزاء النصية المفصلة المتمثلة في: ١، ٢-٨، ١١، ١٣، ١٦-١٧، ١٩-٢٤: أما أهل العراق فمثلوا الأجزاء المرقمة آنفا: ١- ٢ ،٥، ١٣-١٨، ٢٢-٢٤، والنسبة بينهما غلبت للحجاج (١٨ جزءا) مقابل (١٢جزءا) لأهل العراق. ونلاحظ على الأرقام السابقة أن هناك خمسة

---

[١] انظر: كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص، ٧٥-٧٦.

أجزاء ثانوية تعود لأمير المؤمنين مُثلت بالأرقام: ٩-١٣، ارتبطت بالأجزاء الأخرى من النص ارتباطا وثيقا عن طريق الوحدتين المعجميتين: الحجاج وأهل العراق، وكان الربط ضمنيا، فمن ضمن الولاية أن تنفذ أوامر أمير المؤمنين على الوالي وأهل العراق، فلا مناص من الحجاج أن يذكره في خطابه، وخاصة أنه هو عيّنه، ومنه يستمدّ قوته وتعليماته التي يلقيها على مسامع المتلقي.

ونستطيع أن نجمل الأجزاء التي التصقت بالموضوع الأساس بجمعها وإيجازها تحت عناوين فرعية توضع تحتها أسباب أدت لذكرها ونتائج حققت، أو ستحقق كما في المخطط الآتي:

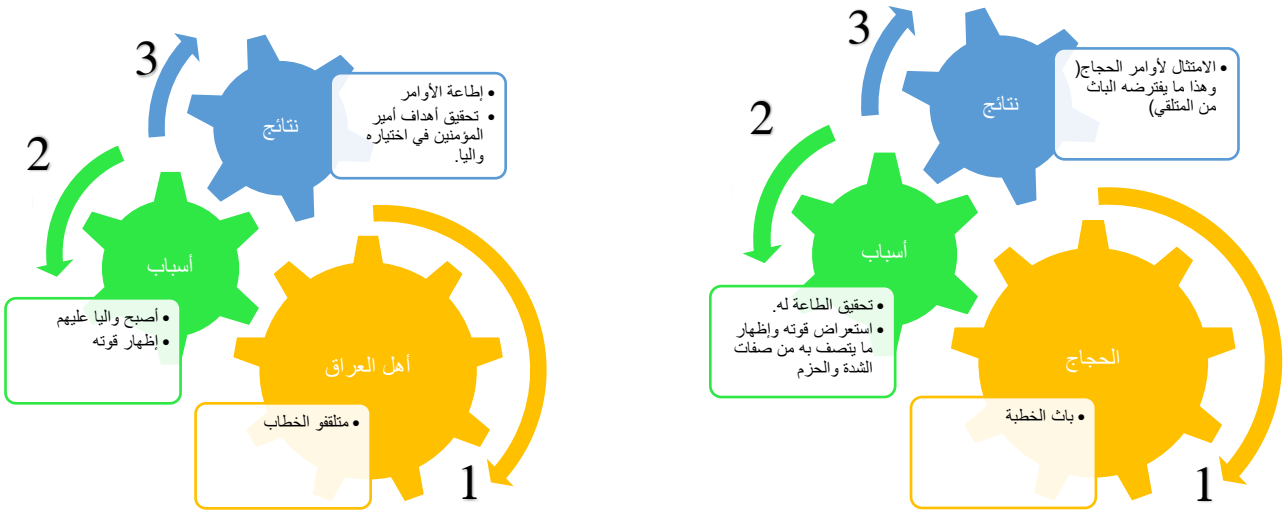

تجلية لما سبق، وبعد معرفة العناصر الرئيسة التي ستدور حولها الخطبة في موضوعها، لا بد من التنويه إلى أن موضوع خطبة الحجاج سياسي اجتماعي، يندرج في الخطابة السياسية لعلاقته القوية في بناء الدولة وبسط نفوذها لمكانة المخاطب وحِدة كلامه دون حساب لأي أحد من السامعين، ولا سيما الموضوع التي ختم فيه خطبته، وهو قتال عدوهم مع المهلب بن أبي صفرة، وإذ نظرنا للغرض التي ترمي إليه فهو دبّ الرعب في قلوب السامعين، وتنفيذ الأوامر سمعا وطاعة، فاعتبرت على هذا النهج اجتماعية، حيث تناولت "العلاقة بين الناس وتنظيم المجتمع مثل خطب الإملاك، والصلح والمخاصمات القضائية، وهي في أغلبها ذات طبيعة موضوعية"[1]، والحديث الذي صار بين الحجاج ورعيته في نهاية الخطبة كان فيه

[1] محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ٦٢.

الحجاج الحاكم الناظر في شأن رعيته، وقد وضع موضع التحليل والتأويل[١] لما يسمعه في الاحتكام إليه، ولبس الحجاج في الموضوعين لباس الوعد والوعيد، والتخويف والترويع!

ثالثا: البنى النصية الكبرى

إن البنية الكلية، مدار الحديث آنفا، يمكن توزيعها إلى بنيتين كُبريين، هما نتاج تراكم سلسلة من الجمل في النص[٢]؛ فالبنية الكلية هي "حصيلة العمليات الدينامية التي تجري في ذهن المتلقي في أثناء تحليل النص بوجهات نظر متنوعة، وصولا إلى المآل الذي ترتبط فيه كل القضايا لتؤلف بنية النص الكبرى أو موضوعه الأصل"[٣]، وأما البنية الكبرى الأولى فهي مفتاح الخطبة الذي تمثلت ببيت من الشعر، يحمل دلالات دالّة على الفخر والمديح بذاته ونسبه، وترسل موجات من القوة والهيبة للمتلقي عن الخطيب، غير ما تشكله من معالم النص، وتهيئة نفسية المتلقي على سماع ما سيأتي من بقية الخطاب الموجه له، وأما البنية الكبرى الثانية فهي تشكل الدلالات التالية لافتتاحية الخطاب، أي لبيت الشعر أنا ابن جلا...، وهي على النحو الآتي:

- العلاقة بين الوالي والرعية: علاقة سلطية بحتة، بطش وسفك دماء، وقد تمثلت في قول الحجاج: "يا أهل الكوفة، إنّي لَأرَى رؤُوسًا قد أيْنَعَتْ وحان قِطافُها، وإنّي لَصَاحِبُهَا".
- صفات الوالي: أصلب الناس، وأمرهم عودا، والقائد الذي سيخمد نار الفتنة التي حدثت في العراق، ويقطعها من شرايينها، إذ يقول واليهم الحجاج: "وإنّ أميرَ المؤمنين نَثَرَ كِنانَتَهُ بين يديه فَعَجَمَ عِيدَانها، فوجدني أَمَرَّهَا عُودًا، وأصلبَها مَكْسِرًا، فرماكم بي، لأنّكم طالما أوْضَعْتُم في الفتنةِ، واضطجعتُم في مراقِدِ الضّلال".

---

[١] يوضع المخاطب في الحكم على الأمور موضع التحليل والتأويل في الخطابة الاجتماعية المركزة على التنظيم الاجتماعي ليلقي حكمه دون تعسف؛ انظر لمزيد بسط القول: محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ٦٢-٦٥.

[٢] انظر: خالد مزعل، مصطلحا البنية الكبرى والبنية العليا عند فان دايك: مقاربة في المفهوم والمعيار والوظيفة، مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية، جامعة الكوفة، مج١٠، ع١٨، ٢٠١٦م، ٣٧٦، وعماد نعامنة، عناصر الانسجام النصي في خطبة البيعة، ٣٦٠.

[٣] خالد مزعل، مصطلحا البنية الكبرى والبنية العليا عند فان دايك، ٣٨٠.

- طاعة الوالي: اتسمت بالتهديد والتحذير، فطاعته واجبة، ومن يخالف أمره فمصيره الضرب المبرح، شديد الإيلام، على حد قول الوالي: "والله لأَحْزِمَنَّكُم حَزْمَ السَّلَمَةِ، وَلَأَضْربنَّكُم ضَرْبَ غَرائِبِ الإبلِ، فإنّكم لَكَأَهْلِ قريةٍ (كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رَغَدا من كل مكانٍ فكفرَتْ بِأَنْعُمِ الله فأذاقها الله لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعون)".
- حرب الخوارج: ومع أول خطبة للحجاج في الكوفة أمر الرعية بالانضمام إلى جيش المهلب لقتال الخوارج، قال: "وإنّ أميرَ المؤمنين أمَرني بإعطائكم أعْطِياتِكم، وأنْ أُوَجِّهَكُم لمحاربةِ عدوِّكم مع المُهَلَّبِ بنِ أبي صُفْرَةَ"، وخطب في البصرة كما فعل في الكوفة لحشد الناس لقتالهم، فكان المهلب يحارب بجيشه، وعبد الرحمن بن مخنف يحارب من جهة أخرى بجانب المهلب، وهو القائد الذي أرسله الحجاج لقتال الخوارج مع جيش يساند جيش المهلب[١].

رابعا: ترتيب الخطاب

جاءتِ الخطبةُ مرتبةً على هيئة سلسلة منظمة، تجاهها من العام إلى الخاص، وهذا الترتيب يسهم إسهاما كبيرا في التماسك النصي، لأن الخطيب "يرتب المعاني في نفسه، وينَزِّلها، ويَبْني بعضها على بعض... يرتِّب الفروعَ على الأصول، ويتبع المعنى المعنى، ويلحق النظيرَ بالنظير"[٢]، وهذا ما وجدناه في البنية الكبرى للنص، فالسابق فيها يتبع اللاحق، ولا يكاد يخرج عنه، وكل فقرة متماسكة مع الفقرة السابقة، ومترابطة معها.

إن المتأمل في نص الخطبة يجد الحجاج سلك فيها مسلك العام في رصّ الجملة لأختها الجملة وتلاحمهما معًا، ثم انتقل فيها إلى الخاص، فالعام ظهر مع بداية الخطبة، الذي آل إلى زرع الرهبة والخوف في قلب السامع من شخص الحجاج، فقال: "أنا ابن جلا ..."، وأردفه بقوله: إني لأرى رؤوسا قد أينعت.." والخاص إظهار ملامح منهجه في التصرف مع الرعية واليًا عليهم، كما في قوله: "والله لأَحْزِمَنَّكُم حَزْمَ السَّلَمَةِ، وَلَأَضْربنَّكُم ضَرْبَ غَرائِبِ الإبلِ"، ثم أتبع ذلك بموضوع خاص يتعلق بأمرهم وهو محاربة الخوارج مع المهلب، والقضاء عليهم،

---

[١] انظر: أحمد محمد كامل، الحجاج بن يوسف الثقفي: بين الطاغية ورجل الدولة، ط١، مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٩م، ١٢٨.

[٢] الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ٥٣.

فقال: "وإنّ أميرَ المؤمنين أمَرني بإعطائكم أعْطِياتِكم، وأنْ أُوَجِّهَكُم لمحاربةِ عدوِّكم مع المُهَلَّبِ بنِ أبي صُفْرَةَ"، ونلحظ على هذا الترتيب في النص أنه متماسك الفكرة، لا يكاد يجد المتلقي فيه أي فراغ أو ثغرة، فكله مشدود بعقد له بداية وفيه نهاية، تفصله قطع خرزٍ اجتزئت من أصله، فما عاد يفصل بينها الناظر وبين قطعها، وكأنها قطعة واحدة انتظمت أجزاؤها، واستوى خلفها مع أمامها، وتماثلت في المقاصد، وسيتضح التماسك النصي بشكل أوضح عند تفكيك النص إلى بنى نصية صغرى، وتوزيع الوحدات اللغوية توزيعا مفككا[١].

خامسا: البنى النصية الصغرى

تتفتق البنى الصغرى من البنى النصية الكبرى التي خرجت من لدن البنية الكلية للنص، ورسمت معالمها، ولم تكتف بهذا، بل حضنت البنى الصغرى للنص، وأضافت تماسكا بينها وبين البنية الكبرى، فكانت الوسط الجامع الذي يجمع تحت جناحيه العريضين البنيتين النصيتين: الصغرى، والكبرى، وللوصول إلى مكونات البنى الصغرى نعيد توزيع الوحدات اللغوية وتفكيكها للاستدلال على العلائق الدلالية الموجودة بين مكونات النص، وللحصول عليها يستعان بمبدأ التأويل[٢] الذي يسمى بالتأويل المحلي Local Interpretation، وإن هذا المبدأ "يعتبر تقييدا للطاقة التأويلية لدى المتلقي باعتماده على خصائص السياق، كما أنه مبدأ متعلق أيضا بكيفية تحديد الفترة الزمنية في تأويل مؤشر زمني مثل "الآن"، أو المظاهر الملائمة لشخص محال إليه بالاسم "محمد" مثلا"[٣]، والبنى الصغرى في خطبة الحجاج جاءت على هذه الهيئة:

- **هذا الحجاجُ قد قَدِمَ أميرًا على العراق! فإذا به قد دخل المسجد مُعْتَمًّا بِعِمامة قد غطَّى بها أكثرَ وَجْهِه، مُتَقَلِّدًا سيفًا، مُتَنَكِّبًا قوسًا، يَؤُمُّ المِنبَرَ، فقام الناسُ نحوَه، حتَّى صَعِدَ المنبرَ، فَمكثَ ساعةً لا يَتكلَّمُ، فقال الناسُ بعضُهم لبعضٍ: قَبَحَ الله بني أُمَيَّةَ حيثُ تَستعْملُ مثلَ هذا على العراق! حتى قال عُمَيْرُ بنُ ضَابِئٍ البُرْجُمِيُّ: أَلَا أُحْصِبُهُ لكم؟ فقالوا: أَمْهِلْ حتّى نَنظُرَ، فلمّا رأى عيونَ الناسِ إليه حَسَرَ اللِّثَامَ عن فيه ونهض.**

---

[١] انظر: عماد نعامنة، عناصر الانسجام النصي في خطبة البيعة، ٣٦٢.

[٢] انظر: عماد نعامنة، عناصر الانسجام النصي في خطبة البيعة، ٣٦١-٣٦٢.

[٣] الخطابي، لسانيات النص، ٥٦.

هذه البنية الخارجة عن النص، لا علاقة لها بنص خطبة الحجاج، ولكن جيء بها قبل بدء الخطبة، فاستحقت منا وقفة عليها مجلية لدلالاتها المبطنة في مضامينها، ويكفينا منها الإشارات المصاحبة لها، والتي تبين وتجلي حدة الخطبة التالية لها، فهي تصور هيئة الحجاج حينما قدم العراق: شخصية على أُهْبَةِ الاستعداد، وكامل التجهيزات لخوض حرب كاملة ضدهم، فأقبل عليهم وهو يتقلد سيفه، يتنكب قوسا على مَنْكِبِه، يصعَد على المنبر دون أن يهمس بِبِنْتِ شَفَةٍ، وليس من العادة أن يصل الخطيب المنبر فلا يتكلم، ويبقى صامتا ولا يتلفت لمن حوله، ولا يلقي السلام عليهم، وهم ينتظرونه ليخطب فيهم وما خطب! فأي حقد وأي شجاعة امتلكها الحجاج وقتئذ؟! ونترك هذا السؤال جانبا لنلتفت إلى ما جاء بعده من كلام يظهر حقد الناس على بني أمية، فقالوا لبعضهم بعضا وهم ينتظرون الحجاج ليخطب فيهم، وبعد إنكارهم عليه سكوته عن الكلام: طمس الله بني أمية لولايتها لشخص لا يستحق الولاية، وهذا دليل أن أهل العراق في عداء مع بني أمية، فودّ أحدهم أن يحصبه.

- **أنا ابنُ جَلا وطَلاعُ الثّنايا متى أضَعِ العِمامةَ تَعرفُوني**

بيت من الشعر[١] يقتبسه كما جاء على لسان سُحيم بن وثيل[٢] ليدخل باب التناص الأدبي المباشر، دون أن يعمل فيه أي تغيير في صدره أو عجزه، ويعود ذلك لرؤية الحجاج أنه يعبر عن المقام الذي يسوده التوتر والخوف، فيجدها فرصة ليطبع في أذهانهم تعريفا عنه في أول لقاء بهم، يحيطه بهالة من الهيبة والخوف والرعب والفزع من شخصه، وليكون مرآة عاكسة لشخصيته القادمة في قابل الأيام.

- **يا أهل الكوفة، إنّي لَأرَى رؤُوسًا قد أيْنَعَتْ وحان قِطافُها، وإنّي لَصَاحِبُهَا، وكأني أنظرُ إلى الدّماء بين العمائم واللِحَى.**

وبعد أن قام بالتعريف عن نفسه، بدأ بمخاطبة المستمعين وهو يقصد أهل الكوفة منهم، ليحيل عليهم ما سيأتي من صور تعسفية، وفي استخدامه أداة النداء يثير انتباههم إلى ما سيلقيه عليهم من خطاب، ويدخل هذا النداء باب المجاز المرسل ذي العلاقة الكلية والمراد بها الجزئية، فهو يخاطب المستمع من أهل الكوفة في تلك اللحظة، ولكنه لم يلق بالا لهذه الجزئية منهم، بقدر اهتمامه بجماعة الكوفة كلهم، لينتقل الحديث إليهم جميعا، فاستخدامه

---

[١] تقدم الحديث عنه، وعوزه لصاحبه، ارجع لنقطتي الابتداء والانتهاء.

[٢] تقدمت ترجمته.

للمجاز هو رأس الفصاحة والبلاغة[١]، و"في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة، وأحسن موقعا في القلوب والأسماع"[٢]، وبعد هذا النداء المقصود من الحجاج، تبدأ الصور الفنية بالهطول على رؤوسهم، وإحداث أثر في النفس، فالاستعارة المكنية المستخدمة في تشبيهه رؤوسَهم بثمار أينعت وحان قطافها، دلّت على قوة التخيل التي يمتلكها الخطيب، وقوة الصورة المحاكة بتفاصيلها في مخيلته، فالاستعارة كما التشبيه "يُخرِجان الأغمض إلى الأوضح، ويقربان البعيد"[٣]، وبذلك تتضح معاملة الحجاج لهم مع بداية رسمه لمعالمها من بحار الظلم وممارسة العنف.

ولا يخفى على متأمل لهذه البنية النصية أنها حملت إشارات دلالية مصاحبة للغة المنطوقة، تشير على أن لغة الجسم عند الحجاج أدت تعابير ومقاصد كما أدى لسانه ما أملاه عليه من نطق، فقوله: "أرى.. أنظر" لا بد أنها صحبت معها نظرة فيها حقد وشدة وبغض للطرف المقابل له، وربما أيضا صحبتها حركة في اليدين فيها قوة وتملؤها الجدية ويكتنفها الغضب، "وقالوا: مبلغ الإشارة أبلغ من مبلغ الصوت... وقيل: حسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان"[٤].

- **هذا أوانُ الشَّدِّ فاشتدّي زِيَمْ قدْ لفّها الليلُ بِسَوَّاقٍ حُطَمْ**
  ليس بِراعي إبلٍ وَلا غَنَمْ وَلَا بِجَزَّارٍ على ظَهْرٍ وَضَم

ثم قال:

قدْ لَفَّها الليلُ بِعَصْلَبِيّ اَرْوَعَ خَرَّاجٍ مِنَ الدّوِيّ
مُهاجرٍ ليس بِأعْرابِيّ

وقال:

قد شّمَّرَتْ عَنْ سَاقِها فَشُدُّوا وجَدَّتِ الحَرْبُ بِكُمْ فَجِدُّوا
وَالقَوْسُ فيها وَتَر عُرُدُّ مِثْلُ ذِراعِ البَكْرِ أو أشَدُّ

---

[١] انظر: ابن رشيق، العمدة، ٢٦٥/١.

[٢] ابن رشيق، العمدة، ٢٦٦/١.

[٣] ابن رشيق، العمدة، ٢٨٧/١.

[٤] ابن رشيق، العمدة، ٣٠٩/١.

وبعد أن خاطبهم باسمهم، ومناداتهم بالقولِ: يا أهل الكوفة، ندبهم لقتال الخوارج، وهو هدفه الأسمى، الساعي إليه، والطامح لتحقيقه لإخماد مواطن الفتن وبؤرها المرتكزة في العراق، فتكاثفت الاقتباسات من الشعر تناصا أدبيا مباشرا؛ ضمنه في خطبته لسببين، أحدها رسالة يريد أن يودعها في نفوسهم، وثانيها لِيُعلِمَ المتلقي عما يمتلكه من مخزون ثقافي، يعدّ في ذاك الوقت أهمَّ العلوم التي يتباهون بها، وبدرايتهم فيها.

ولإظهار الانسجام في الأبيات وعلاقة السابق فيها باللاحق، يسلّط الضوء على كل مجموعة من الأبيات على حدة؛ كي يظهر الانسجام والترابط المتلاحم فيها على النحو الآتي:

المجموعة الشعرية الأولى[١]

هذا أوانُ الشَّدِّ فاشتدِّي زِيَمْ قدْ لفّها الليلُ بِسَوَّاقٍ حُطَمْ
ليس بِراعي إبلٍ وَلا غَنَمْ وَلَا بِجَزَّارٍ على ظَهْرٍ وَضَمم

هذه الأبيات لِلْحُطَمِ الْقَيْسِيِّ[٢]، وقيل لِأَبِي زُغْبَةَ الْخَزْرَجِيِّ، وقيل لرُشيدِ بنِ رُمَيضٍ العَنزِيّ[٣]، وفي قوله: "قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَّاقٍ حُطَمْ"، هو مثل يضرب لوالي السوء وأشر الرّعاء؛ بسبب تعامله مع الرعية بكل ظلم وتعسف وجور وعنف، فيكسر ويحطم كل ما يقع تحت يده، فيكون كالنار التي سميت بالحطمة لتحطيمها كل شيء[٤]، فيسوقهم سوقا عنيفا لينجوَ ومن معه[٥]، ولذا يسوق هذا البيت للمتلقين ليحركهم لقتال الخوارج[٦]، وفي البيت الثاني دلالة على شرفه وتعاظمه بأناته التي تعلو على الشعب، وهذا ينسجم مع مستهل خطبته: أنا ابن .. التفاخر والتبجّح والتكبر والتباهي بنفسه.

---

[١] تطلق الباحثة عليها مصطلح "شعر" تجوّزًا، فهي من الرجز الذي يعدّه بعض الدارسين غير الشعر.

[٢] واسمه "شريح بن ضبيعة" ولقب بالحطم لقوله الشطر هذا: قد لفها الليل بسواق حطم، انظر: أبو عُبيد البَكري، عبد الله بن عبد العزيز (٤٨٧هـ)، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق إحسان عباس وعبد المجيد عابدين، ط٢، دار الأمانة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧١م، ٤٠٤.

[٣] انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "حطم".

[٤] انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "حطم".

[٥] انظر: عمر شرف الدين، بين زياد بن أبيه في خطبته "البتراء" والحجاج في خطبته "أنا ابن جلا"، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، أسيوط، ع١٣، ١٩٩٣م، ٣٧١.

[٦] انظر: أبو عبيد البكري، فصل المقال، ٤٠٤.

المجموعة الشعرية الثانية

قدْ لَفَّها الليلُ بِعَصْلَبِيّ اَرْوَعَ خَرَّاجٍ مِنَ الدّوِيّ[١]
مُهاجرٍ ليس بِأعْرابيّ[٢]

أول ما يشد الانتباه ههنا تكرار "قد لفها الليل" لورودها في المجموعة الشعرية الأولى بقوله: "قد لفها الليل بسواق حطم"، وكلاهما من الأمثال التي تتداول على الألسن، وكأنه أراد أن يقرب الصورة للمتلقي بربطها بثقافته المتداولة، ويؤكد مرة أخرى مدى ثقافته التي يمتلكها، فما عندهم عنده، وأراد أيضا بالتكرار هذا أن يصل الأبيات بعضها ببعض، ويربطها بالفكرة من خلال تأكيد المعنى نفسه بقوله: "قد لفها الليل بعصلبي"، فهو مثل يضرب في الراعي الشديد الذي يسوق رعيته[٣]، وأكد الصورة هذه بردفها بعجز البيت "أروع خراج من الدوي"، المؤكدة خبرته في سوق الرعية بذكاء ونباهة، وهذا يحيل الذاكرة إلى المثل القائل: " فلانٌ خرّاج ولاَّج: يضرب في العارف الخبير بالأمور"[٤]، ولم يكتف بهذه المؤكدات، بل أضاف إليها خبرته في السير بالفلوات، فالدوي "يَعْنِي الْفَلَوَاتِ جَمْعُ دَاوِيَّةٍ، أَرَادَ أَنَّهُ صَاحِبُ أَسْفَارٍ وَرِحَلٍ، فَهُوَ لَا يَزَالُ يَخْرُجُ مِنَ الْفَلَوَاتِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِهِ أَنَّهُ بَصِيرٌ بِالْفَلَوَاتِ فَلَا يَشْتَبِهُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا. وَالدَّوُّ: مَوْضِعٌ بِالْبَادِيَةِ، وَهِيَ صَحْرَاءُ مَلْسَاءُ"[٥]، ودلل بالشطر الأخير على معنى الشطر السابق بقدرته على التنقل من مكان لآخر.

المجموعة الشعرية الثالثة

قد شّمَّرَتْ عَنْ سَاقِها فَشُدُّوا وجَدَّتِ الحَرْبُ بِكُمْ فَجِدُّوا
وَالقَوْسُ فيها وَتَر عُرُدُّ مِثلُ ذِراعِ البَكْرِ أو أشَدُّ

---

[١] ورد الرجز في اللسان على هذه الهيئة: قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِعُصْلُبِيّ أَرْوَعَ خَرَّاجٍ مِنَ الدَّاوِيّ : ابن منظور، اللسان، مادة "دوا".

[٢] مهاجر عكس لفظة أعراب، فالمهاجرة أو الحاضرة هم الذين استوطنوا المدن والقرى وهاجروا إليها، والأعراب هم من نزلوا البادية؛ انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "عرب".

[٣] انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "عصلب".

[٤] أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٨م، مادة "خرج".

[٥] ابن منظور، اللسان، مادة "دوا".

مع إلقاء النظرة على صدر هذا الرجز والتمعن فيه، نجده تشابه مع صدر الأول في المجموعة الشعرية الأولى: "هذا أوانُ الشَّدِّ فاشتدِّي زِيَمْ"، والذي يحيلنا إلى قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ**﴾[1]، والكشف عن الساق هي أشد ساعة يوم الحساب، وفي تفسيرها أن المرء إن وقع في مصيبة أو كرب أو شدة لا بدّ أن يشمر عن ساقه، ويجدّ في الأمر حتى يكشف له[2]، فشبه وتر القوس بشدته وغلظته بذراع البِكر في توترها[3]، فاستعماله لهذا اللون البياني وإدخاله على خطبته؛ أعني التشبيه، "مما اتفق العقلاء على شرف قَدْرِه، وفخامة أمرِه في فنِّ البلاغة، وأن تعقيب المعاني به _ يُضاعف قُواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحًا كانت أو ذمًّا، أو افتخارًا، أو غير ذلك"[4]، وأحسب أن الحجاج هيَّج النفس وأثار غضبها واستفزها لفعل ما يريد.

إذن، الأبيات تلتقي على الفكرة ذاتها، وهي قتال الخوارج، وتنسجم مع بعضها بعضا، وتحرك الأنفس لتجتمع كلها نحو هدف واحد.

- **إنّي – والله يا أهل العراق – ما يُقَعْقَعُ لي بالشِّنان، ولا يُغْمَزُ جانبي كتَغمَازِ التينِ، ولقد فُرِرْتُ عن ذكاء، وَفُتّشتُ عن تجربةٍ.**

قول الحجاج ههُنا: "ما يقعقع لي بالشنان، ولا يغمز جانبي كتغماز التين"، كناية عن نسبة لشيء من متعلقات الموصوف، فالشنان وهي القربة يحركها صاحبها لتخويف الإبل للسير بسرعة، فالقربة من متعلقات الناقة، وهي كناية عن الخوف، فقام بنفيها، لينفي عن نفسه صفة الخوف، والكناية الثانية التي هي تشبيه في الأصل: كتغماز التين، بها ينفي عن نفسه

---

(1) الآية (القلم، ٤٢).

(2) انظر: فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر (٦٠٤هـ)، مفاتيح الغيب، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨١م، ٣٠/ ٩٤.

(3) انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "عرد"، التي تعني القوة والشدة والغلظة.

(4) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ١٦٤.

صفة الليونة، فالتين كناية عن اللين، فهو من أبرز ما تتصف به هذه الثمرة[١]، والكناية نوع من أنواع الإشارات التي يشير بها إلى نفسه[٢]، وهو ما يلحظ على الكنايات المستخدمة آنفا.

وأما الاستعارة ففي قوله: "لقد فررت عن ذكاء"، حيث شبه نفسه بالفرس التي ينظر لأسنانها ليعرف سنها، فنظرة واحدة عليه كفت الأمير لمعرفته.

- **إنّ أميرَ المؤمنين نَثَرَ كِنانَتَهُ بين يديه فَعَجَمَ عِيدَانها فوجدني أَمَرَّهَا عُودًا، وأصلبَها مَكْسِرًا، فرماكم بي، لأنّكم طالما أوْضَعْتُم في الفتنةِ، واضطجعتُم في مراقِدِ الضّلال.**

ولينفي الشك عن كلامه السابق، أعلم السامع عن كيفية اختياره، فأخبرهم أن أمير المؤمنين نثر كنانته، واختار أقواها عودا في حمل السلاح والتصدي للخوارج، فلفظة (عود) فيها تورية تثير ذهن السامع، وتحمل معنيين أحدهما قريب، والآخر بعيد، فأما القريب فبمعنى العود المتعارف عليه، أي غصن الشجر اليابس، أما البعيد وهو المقصود فيعني به السلاح[٣]، وبعد نفيه للشك أظهر ما يضمره في نفسه من حقد عليهم، فالفعل (رماكم) يحمل الغضب الشديد على العراق وأهلها لكرههم بني أمية، والحجاج وجدها فرصة للانتقام منهم، وإعادة الخلافة لسلالته، وبدا لهم مظهرا السبب في هذا الرمي، وما خجل من إظهاره.

- **والله لأحْزِمَنَّكُم حَزْمَ السَّلَمَةِ، وَلَأضْربنَّكُم ضَرْبَ غَرائِبِ الإبلِ، فإنّكم لَكَأهْلِ قريةٍ ﴿كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رَغَدا من كل مكانٍ فكفرَتْ بِأنْعُمِ الله فأذاقها الله لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعون﴾**[٤].

وفي هذه البنية يظهر الحجاج أقوى من ذي قبل في حدة كلامه بعد أن احتمى بأمير المؤمنين، فكان يكفيهم من القول ما سبق: "رماكم بي.."، فيفهم من هذا الفعل أن الأمير في صفه ومعه في تصرفاته، وسيشدّ أزره فيما يذهب إليه، فَعَلَتْ عنده النبرة مع إيقاع خطابي عال، يأتي بالفعل ومطلقه، ويأتي بالصورة تلو الصورة بحركة سريعة تجمعها

---

[١] انظر: عصام أبو شندي، خطب الحجاج بن يوسف: دراسة بلاغية، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، مج٣٣، ع١٣٢، ٢٠١٥م، ١١٨.

[٢] انظر: ابن رشيق، العمدة، ٣٠٥/١.

[٣] انظر: عصام أبو شندي، خطب الحجاج بن يوسف، ١٢٣.

[٤] الآية (النحل، ١١٢).

أداة الربط العاطفة بينها، وكأنهم في أهوال يوم القيامة، ومن ورائهم جهنم تنتظرهم، فيشدهم شدًّا كأوراق السَّلَم، فيضربهم بالسيف لتتساقط رؤوسهم على الأرض كما تتناثر أوراق السلم عند ضربها، وضربه يشبهه بالمثل القائل "لأضربنكم ضربة غرائب الإبل"[١]، أي "أن الإبل إذا وردت الماء، فدخلَ عليها غريبةٌ من غيرها، ضُربتْ وطُردت حتى تخرجَ عنها"[٢]، وهذا الحزم والضرب تشبيه تمثيلي يحمل معاني الوعيد والتهديد وخاصة أنه ألحقه بمؤكدات وأردفه بأفعال مطلقة من الفعل ذاته، وقد أتبع الحجاج هذا المثل بمثل آخر، يقتبسه من القرآن الكريم، من باب التناص الديني المباشر، الذي يضاف إلى حصيلته الثقافية والمعرفية، فهو يريد أن يعلم السامع عن معرفته بأهم مرتكزات العلوم وقتها وهي الشعر والقرآن، فيضرب لهم مثلا ضرب بأهل مكة أو أي قرية كانت فيها هذه الصفات، وهي الصفات التي ذكرها الله في الآية، أنها آمنة معظمة فلا يغار عليها، ويعيش أهلها باطمئنان، فلا يجتاحهم الخوف ويستدعيهم أي سبب للانتقال منها إلى مكان آخر، حتى كفروا بأنعم الله فلم يشكروه ولم يطيعوه، ولم يأدوا حق أهلها عليهم من مواساة الفقير وذوي الحاجات فأذاقهم؛ أعني أهل القرية، الجوع والخوف[٣]، وإني أجنح إلى ما ذهب إليه الماوردي[٤] أن القرية هي المدينة التي "آمنت برسول الله ﷺ، ثم كفرت بأنعم الله بقتل عثمان بن عفان وما حدث بعد رسول الله ﷺ بها من الفتن، وهذا قول عائشة وحفصة رضي الله عنهما"[٥]، فبعد مقتل عثمان بن عفان وقعت الفتن[٦]، وعذبهم الله بالجوع والخوف، ليتعلموا كيف يبطروا النعمة التي أنعمها الله عليهم، والحجاج يرى رعيته بطرت معيشتها، فلم يعرفوا قيمة الأمويين، فلم يحترموهم ويقدروهم، فكان منه أن يعذبهم بالسيف وبالقوة ليصل بهم إلى ذروة الطاعة له أولا ولبني أمية ثانيا.

---

[١] انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "غرب".

[٢] ابن منظور، اللسان، مادة "غرب".

[٣] انظر: الماوردي، النكت والعيون، ٢١٦/٣-٢١٧، وفخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ١٢٩/٢٠-١٣١.

[٤] سبقت ترجمته.

[٥] الماوردي، النكت والعيون، ٢١٧/٣.

[٦] لمزيد بسط القول عن فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه وعن سيرته، انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق حسان، ٤٠٥-٤٠٧، ٤١٥-٤٢٥.

وهذه الأمثلة التي احتوت على القسم والمؤكدات باللام الواقعة في جواب القسم والنون الثقيلة والفعل المطلق تبين عن سياسة انتهجها الحجاج مع الرعية، تقوم على البطش والظلم، فما هي إلا أساليب غرضها تقرير القول عند السامع.

- **وإني واللهِ ما أقول إلا وَفَيتُ، ولا أهُمُّ إلا أمضيتُ، ولا أخْلُقُ إلا فَرَيْتُ.**

وأتبع الحجاج تهديده ووعيده السابق بقسم يؤكد فيه كلامه السابق، وأن قوله نافذ ومغلف بالصدق، فإن هم بفعل شيء فإنه يفعله، ولا يقف أحد في طريقه، ولكي يؤثر في السامعين أكثر، ويوحي لهم بسلاسة تنفيذ ما يقوله استخدم السجع قبل كل فاصلة (وفيت، أمضيت، فريت)، وهو إيقاع خطابي له وقعه في النفوس.

- **وإنّ أميرَ المؤمنين أمَرني بإعطائكم أعْطِياتِكم، وأنْ أُوَجِّهَكُم لمحاربةِ عدوّكم مع المُهَلَّبِ بنِ أبي صُفْرَةَ. وإنّي أُقْسِمُ بالله لا أجِدُ رجلا تَخلَّفَ بعد أخذ عَطائِهِ بثلاثة أيام إلا ضربتُ عُنُقَهُ!**

ولم ينس الحجاج في ثني تهديده واحتقاره للرعية أن يسلط الضوء على رسالة أمير المؤمنين التي أرسلها معه لأهل العراق، وكأنه يقول: وإن أمير المؤمنين أمرني بعد الخطاب الوعيد أن أعطيكم ...، وهذا ليس مستبعدا أنه تم التخطيط عليه بينهما، كيف تبدأ الخطبة، وكيف تنتهي، فلا يعقل أن يأتي بداية الخطاب والشعب لا يريد سماعه، ويقول لهم: اسمعوا كتاب أمير المؤمنين، بل مكن نفسه في النفوس، وأحرز فيها ما يطمح له، وأسكتهم بالأعطيات، فهو عالم بنفوس الرعية وما يروي ظمأهم، وحالهم التي كانوا عليها من فقر وغيره، ولا مفر مع الأعطية إلا تنفيد الأوامر والاستجابة للمطالب، وهي اللحاق بجيش المهلب لقتال الخوارج.

وتضمنت البنية لفظة (أمرني)، فمع بشاعة الموقف والعلاقة بين الوالي ورعيته، ظل الحجاج ملتزما لحدوده ولم يتجبر على سيده أمير المؤمنين، فناسب المقال المقام باستخدامه الأمر، فالسيادة العليا لسيده، فاحترم هذا الشيء، ولم يتكالب عليه.

- **يا غلام اقرأ عليهم كتابَ أميرِ المؤمنين، فقرأ:**

"بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك أميرِ المؤمنين إلى مَنْ بالكوفةِ من المسلمين سلامٌ عليكم" فلم يَقُلْ أحد منهم شيئا، فقال الحجاجُ: اكفُفْ يا غلامُ، ثم أقبلَ على الناس، فقال: أسَلَّمَ عليكم أمير المؤمنين، فلم تَرُدُّوا عليه شيئا؟ هذا أدبُ ابن نِهْيَةَ، أمَا واللهِ

لأُؤَدِّبَنَّكُم غيرَ هذا الأدب أو لَتَسْتَقِيمُنَّ! اقرأْ يا غلامُ كتابَ أمير المؤمنين، فلما بلغ إلى قوله: " سلامٌ عليكم" لم يبقَ في المسجد أحدٌ إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام!"

ختم الحجاج خطابه بتلاوة لكتاب أمير المؤمنين، وهذا يعيدنا إلى بداية الخطبة وما حملته الأبيات الشعرية من شد العزائم وإيقاظ الهمم لقتال الخوارج، فهذا المقطع من النص مع الأبيات السابقة له، يوحيان بغيظ شديد يحمله الحجاج وأميره على الخوارج، فيريد القضاء عليهم، وألا يبقي نسلاً يقال عنه هذا من الخوارج، ولهذا بقي الحجاج والغلام يقرأ متيقظا للسامعين، مركزا على ما يدور من أحداث، فنهاهم عن فعلهم في عدم رد السلام، ليظلّ متحكما في أمرهم، ويظلوا تحت سيفه موالين له ولبني أمية، فقوله لهم "لتستقيمن"، وهو فعل مضارع مقترن بلام واقعة في جواب القسم، ملحقة بنون التوكيد الثقيلة، وتحقيق لغرض التهديد والتحقير، ونجد هذا الغرض الختامي من كلامه توافق مع نسيج النص جميعه، ويظهر في كل بنية سبق ذكرها.

وبعد هذه الوقفة المجلية عند البنية النصية الكبرى والصغرى، نلحظ أنها ضمت: القصدية، والإعلامية(الإخبارية)، والمقامية، والتناص، والمقبولية الواردة مرتين، مرة في البنية الشكلية الخارجية قبل أن تبدأ الخطبة، والأخرى في البنية النصية الداخلية لها.

سادسًا: العلاقات الدلالية

علاقات تحدث في داخل النص، تربط السابق باللاحق، وتقدم محتواه بمساندة السياق، وهذه العلاقات يختلف وجودها من نص لآخر، وفي خطبة الحجاج بدت هذه العلاقات بحاجة إلى الحديث عنها، وهي:

١- علاقة التعميم

تسمى علاقة التخصيص والإجمال أو التفصيل، تردف المعنى بالشرح والتفصيل والتخصيص[١]، وهي" إحدى العلاقات الدلالية التي يشغلها النص لضمان اتصال المقاطع ببعضها عن طريق استمرار دلالة معينة في المقاطع اللاحقة"[٢]، ومثال ذلك: كان أبوه صالحا، فما كادت تمضي ليلة دون أن يتفقد جيرانه وأهل الحي بما يحتاجونه من مؤونة، فالعبارة الثانية

---

[١] انظر: جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ١٤٦.

[٢] محمد خطابي، لسانيات النص، ٢٧٢.

جاءت مفصلة للجملة الأولى المجملة المكثفة الدلالة والمعنى، ومن الأمثلة المجلية لها من نص الخطبة التي ذكرت فيها الجملة المثبتة، وقد أردفت بالجملة المفسرة لتفصيل ما أجملته سابقتها على النحو الآتي:

أ- إنّي – والله يا أهل العراق – ما يُقَعْقَعُ لي بالشِّنان، ولا يُغْمَزُ جانبي كتَغمَازِ التينِ **(الجملة المثبتة)** = فُرِزْتُ عن ذكاء، وَفُتِّشتُ عن تجربةٍ **(الجملة المفسرة)**.

ب- والله لأحْزِمَنَّكُم حَزْمَ السَّلَمَةِ، وَلَأضْربنَّكُم ضَرْبَ غَرائِبِ الإبلِ**(الجملة المثبتة)** = فإنّكم لَكَأهْلِ قريةٍ (كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رَغَدا من كل مكانٍ فكفرَتْ بِأنْعُمِ الله فأذاقها الله لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعون) **(الجملة المفسرة)**.

إن المتفحص لكل مثال من الأمثلة المذكورة يضع يده صوب علاقة تربط بين الجزأين بعضهما ببعض في إطار الوحدة النصية والتماسك الدلالي ليحقق الوحدة النصية الكبرى.

٢- علاقة الصفة

تكون هذه العلاقة للكل أو الجزء[١]، ومثالها من الخطبة:

- **"إنّي لَأرَى رؤُوسًا قد أيْنَعَتْ وحان قِطافُها"**

شكلت الجملة الفعلية (أينعت) صفة للرؤوس، وهي علاقة جزء من كل، فالرأس جزء رئيس من جسد الإنسان، فلم تذكر بلا جدوى من بين أجزاء الجسد؛ لأنه إن قطع ما عادت الروح تجري في مجراها وستنتقل لبارئها، فوصفت الرؤوس أنها قد أينعت، وحان قطافها، فكانت وصفا للهيئة التي أصبح الرأس عليها في عبارة صلة تجمع الصفة مع الموصوف مما منح النص تماسكا وارتباطًا.

[١] انظر: جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ١٤٦.

٣- العلاقات المنطقية

أ- علاقة السبب – النتيجة

علاقة تربط بين جملتين، تكون إحداهما نتاج الأخرى وسببا في حدوثه، "وهذه العلاقة لا تكتفي بالربط بين أجزاء النص، بل تتعدى ذلك إلى ربط النص بالسياق"[١]، ومثال هذه العلاقة قول الحجاج:

- إنّ أميرَ المؤمنين.. رماكم بي **(النتيجة)**= لأنّكم طالما أوْضَعْتُم في الفتنةِ، واضطجعتُم في مراقِدِ الضّلال.**(السبب)**

إن أمير المؤمنين عين الحجاج واليا على أهل العراق بسب اضطجاعهم في مراقد الفتن والضلال، وهذه العلاقة أنشأت خيط ترابط متينا حقق الاستمرارية للنص معنى ودلالة، وأبقى على عنصر التشوق حاضرا في ذهن متلقفيه لمعرفة النتائج المترتبة على تلك الأسباب.

وأردف الحجاج السبب في هذه البنية بنتيجة أتبعت في الفقرة اللاحقة لها، بقوله:

- **والله لأحْزِمَنَّكُم حَزْمَ السَّلَمَةِ، وَلَأضْربنَّكُم ضَرْبَ غَرائِبِ الإبلِ = فإنّكم لَكَأهْلِ قريةٍ (كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رَغَدا من كل مكانٍ فكفرَتْ بِأنْعُمِ الله فأذاقها الله لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعون).**

فالسبب السابق (لأنّكم طالما أوْضَعْتُم في الفتنةِ، واضطجعتُم في مراقِدِ الضّلال) تلاحم مع النتيجة (والله لأحْزِمَنَّكُم حَزْمَ السَّلَمَةِ، وَلَأضْربنَّكُم ضَرْبَ غَرائِبِ الإبلِ)، واقتبس آية من القرآن تلائم ما سبقها من سبب ونتيجة، فالآية تبدأ بالسبب وتنتهي بنتيجة (فأذاقها الله لباس الجوع ...)، وانسجام الآية مع ما سبقها من وحدات لغوية لم يأت من فراغ، بل قصد به الحجاج أن لكل نتيجة أسبابًا تسهل مطلبها وترشد إلى فعلها، فلولا أنكم تستحقون ذلك لما ذقتم عذابي، كما استحقه أهل القرية فأذاقهم الله مرّ العذاب، وألبسهم لباس الخوف والجوع.

---

[١] باقر فرج، السبك والحبك في جزء المجادلة، ١٥٢ بتصرف من: علم لغة النص النظرية والتطبيق:٢٠٨.

ب- علاقة الإضافة

تعني الوصول بالمعنى إلى غايته، والاقتراب من المبالغة في استقصائه[1]، فما إن يذكره حتى يأتي بكل ما يتصف به من صفات يتبعها بصفات أخرى، يعبر عنها بأدوات العطف كحرفي الواو وأو[2]، ومثالهما:

أ- حرف العطف (الواو):

- "**يا أهل الكوفة، إنّي لَأَرَى رؤُوسًا قد أَيْنَعَتْ وحان قِطافُها، وإنّي لَصَاحِبُهَا، وكأني أنظرُ إلى الدّماء بين العمائم واللِحَى**".

عطفت الواو الجمل بعضها على بعض، وكانت الجمل تتقدم إحداها على الأخرى لشيء لا يخلو من فائدة وحكمة، وعند الوقوف عليها تكون الرتبة هي المعللة سبب ذلك، فكان ترتيب الجملة بحسب الثقل في الفعل تقديم الأثقل من إيناع الرؤوس أولى من الأخف لسرعة قطعها، وتقدم الإيناع معلوم بضرورة العقل لأنه لما أينع حان قطافه، فخرجت متماسكة البنيان كما في قوله:

- "**والله لأَحْزِمَنَّكُم حَزْمَ السَّلَمَةِ، وَلَأَضْرِبنَّكُم ضَرْبَ غَرائِبِ الإبلِ**".

قدم الجملة الأولى على الثانية بالرتبة أيضا، لأن الضرب الجماعي مترتب على حصر وجود المضروب في مساحة محددة، ومما قدم للرتبة وللفضل والشرف قوله:

- "**وإنّ أميرَ المؤمنين أمَرني بإعطائكم أعْطِياتِكم، وأنْ أُوَجِّهَكُم لمحاربةِ عدوّكم مع المُهَلَّبِ بنِ أبي صُفْرَةَ. وإنّي أُقْسِمُ بالله لا أجِدُ رجلا تَخلَّفَ بعد أخذ عَطائِهِ بثلاثة أيام إلا ضربتُ عُنُقَهُ!**"

بدأ الخطاب بذكر ما أملاه عليه أمير المؤمنين، ثم انتقل لخطاب المتلقي أهل العراق لما اقتضاه حسن النظم تقديمها من المرسل الأعلى فضلا وشرفا لما هو دونه رتبة ومكانة[3]، وجمع بين هذه الدلالات بأداة العطف الواو التي بدأت بدرجة خالية من الحدية، وبعدها بدأت

---

(1) الاستقصاء: تتبع الأمر حتى الوصول إلى الغاية المنشودة منه؛ انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "قصا".

(2) انظر: حسام فرج، نظرية علم النص، ١٣٨.

(3) انظر: السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (٥٨١هـ)، نتائج الفكر في النحو، حققه وعلق عليه عادل الموجود وعلي معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ٢١٠-٢١٣.

تتصعد هذه الحدية حتى وصلت ذروتها بالوعيد والتحذير من مخالفة الأمر، وعدم الاستجابة الفورية.

ب- حرف العطف (أو):

- أَسَلَّمَ عليكم أمير المؤمنين، فلم تَرُدُّوا عليه شيئا؟ هذا أدبُ ابن نِهْيَةَ، أَمَا واللهِ لأُؤَدِّبَنَّكُم غيرَ هذا الأدب أو لَتَسْتَقِيمُنَّ.

حرفُ العطف (أو) في النص السابق دال على أحد الشيئين المذكورين معه: تأديب العراق غير أدبهم أو الاستقامة، فيبقى الأمر بينهما مترددا من غير ترجيح لأحدهما على الآخر[1]، ولفائدة أخرى، وهو أن الخطبة كانت الأولى للحجاج وإن لم يقف لهم منذ البداية على كل أمر يراه غير لائق فلن يمتلك زمام الأمور، وإحكام السيطرة عليهم، وفائدة أخرى، أن الحجاج لو لم يظهر قوته أولا من بين الخِيارات فلن يأخذوا كلامه على محمل الجِدِّ وبعين الاعتبار والأهمية، وفائدة أخرى، وهي أن الاستقامة أنبأت عن المعنى الباطن، الذي يشترط فيها التحلي بالأدب، فجعلت متممة لمعناه؛ إذ لا تصح الاستقامة الظاهرة إلا بالاعتدال الباطن، وإجادة الأدب في الحديث، وأبانت الجملة التي تلاها الحجاج بعدها مرادنا بما قصدناه من قول، ألا تراه يقول: (اقرأْ يا غلامُ كتابَ أمير المؤمنين، فلما بلغ إلى قوله: "سلامٌ عليكم" لم يبقَ في المسجد أحدٌ إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام): يعني رد السلام، وهذا لا يتعلق إلا بالاستقامة الظاهرة المشروطة بأدب باطن ينسَلّ إلى أعماقهم خُفيَةً، ويبصر بعين اليقين أن الاستقامة مع الحجاج لا بُدّ مما ليس منه بُدٌّ، ويجب أن ندركها بفترة زمنية قصيرة لنتدارك سيفه المَضاء في حدته وسرعة قطعه.

---

[1] انظر لمزيد بسط من القول عن حرف العطف (أو)، "مسألة في وضع (أو)": السهيلي، نتائج الفكر في النحو، ١٩٨-١٩٩.

الفصل الثالث: استشراف الأبعاد التداولية في خطب الكامل: دراسة تطبيقية تداوليّة

- نظرية الأفعال الكلامية.
- الاستلزام الحواري.

نظرية الأفعال الكلامية

- تقديم
- المبحث الأول: التصنيف الثلاثي للأفعال الكلامية الإنجازية.
- المبحث الثاني: أنواع الأفعال الكلامية الإنجازية ومستوياتها.
- المبحث الثالث: مجالات الأفعال الكلامية الإنجازية

نظرية الأفعال الكلامية

تقديم

يتناول هذا الفصل نظرية الأفعال الكلامية دراسة تطبيقية، تركز على الأفعال الإنجازية المنبثقة من لدن سياقات اجتماعية تواصلية، وذلك عبر خطب مختارة من كتاب الكامل، تجلت فيها تلكم الأفعال التي صنفها سيرل إلى مباشرة وغير مباشرة، والمباشرة كما دللنا عليها سابقا تعرف من محتواها القضوي والقوة الإنجازية الحرفية فيها (مثل الاستفهام، والأمر ...)، وكل تلك الصيغ من استفهام ونداء ومدح وتعجب وغيرها صيغ مباشرة، ما لم يعط السياق معنى آخر، فتخرج من دائرة الأفعال الإنجازية المباشرة إلى غير المباشرة[1]، ولتوضيح ذلك جملة وتفصيلا ستقوم الباحثة في تطبيق هذا على خطب مختارة من كتاب الكامل، **وهي:**

١- خطبة أبي طالب في تزويج رسول الله_ صلى الله عليه.
٢- خطبة لعمر بن الخطاب حين سمع أن قومًا يفضلونه على أبي بكر.
٣- خطبة لأبي بكر احتوتها خطبة عمر بن الخطاب السابقة الذكر.
٤- خطبة لعمر بن عبد العزيز.
٥- خطبة أعرابي بالبادية.

وقد قُسم الفصل إلى مباحث على هذا النحو:

المبحث الأول: التصنيف الثلاثي للأفعال الكلامية الإنجازية.

المبحث الثاني: أنواع الأفعال الكلامية الإنجازية ومستوياتها.

المبحث الثالث: مجالات الأفعال الكلامية الإنجازية.

---

[1] انظر: الفصل الأول من الكتاب، وعلي محمود الصراف، في البراجماتية: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، دراسة دلالية ومعجم سياقي، ط١، مكتبة الآداب، جامعة الكويت، ٢٠١٠م، ٩٨-١٠٠.

وهذه نماذج الخطب المختارة:

١: خطبة أبي طالب في تزويج رسول الله _صلى الله عليه_

"وخَطب أبو طالب بنُ عبد المطّلبِ[١] لرسول الله ﷺ في تزويجهِ خديجة بنتَ خُويلدٍ[٢] رحمة الله عليها، فقال: الحمدُ لله الذي جعلَنا من ذرية إبراهيم وَزَرْعِ إسماعيلَ، وجعلَ لنا بلدًا حرامًا وبيتًا محجوبًا[٣]، وجعلنا الحُكّامَ على الناس، ثم إنَّ محمدَ بنَ عبدِ الله[٤] ابنَ أخي مَنْ لا يُوازَنُ به فتًى من قريشٍ إلا رَجَحَ[٥] به بِرًّا وَفَضْلا وَكَرَمًا وعقلا ومَجْدًا ونُبْلا[٦]، وإنْ كانَ في المالِ

---

[١] أبو طالب بن عبد المطلب: اسمه عبد مناف، سيد بني هاشم، من أشراف قريش وأثريائها في مكة، وكافل الرسول وحاميه وناصره على قريش. انظر: الزّبَير بن بكار، أبو عبد الله القرشي (٢٥٦هـ)، جَمهرة نَسب قُريش وأخبارها، تحقيق عباس الجراخ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠م، ٢/٢٠٥-٢٠٦.

[٢] خديجة بنت خويلد بن أسد بن قصي القرشية، خير نساء العالمين، وأفضلهن نساء في الجنة، كانت تدعى بالطاهرة في الجاهلية، تزوجها النبي محمد ﷺ وعمرها أربعون سنة وعمره إحدى وعشرون سنة، وأنجبت منه أربع بنات، وهن: زينب، وفاطمة، ورقية، وأم كلثوم، وولدين، هما: القاسم (وبه يكنى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم)، وعبد الله (يقال له الطاهر أو الطيب) وعاشت مع الرسول أربعًا وعشرين سنة، وكانت أول من آمن به من الرجال والنساء، وعند وفاتها كانت بنت أربع وستين سنة وستة أشهر؛ انظر: الزبير، جمهرة نسب قريش وأخبارها، ٢/٢١٣-٢١٤، ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله (٤٦٣هـ)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق محمد البجاوي، ط١، دار الجيل، ١٩٩٢م، ٢/١٨١٧- ١٨٢٥.

[٣] محجوب بمعنى مستور، وفي الحديث "قالت بنُو قُصَيٍّ: "فينا الحِجابةُ"، يعنون حِجابةَ الكَعْبةِ، وهي سِدانَتُها، وتَولّي حِفْظِها، وهم الذين بأَيديهم مِفتاحُها": ابن الأثير الجزري، أبو السعادات مجد الدين (٦٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، إشراف وتقديم علي عبد الحميد، ط١، دار ابن الجوزي، الدمام، ٢٠٠١م، ١٨٧، وانظر: ابن منظور، اللسان، مادة "حجب".

[٤] انظر ما جاء في سيرة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم): أبو زُرعة، عبد الرحمن بن عمرو (٢٨١هـ)، تاريخ أبي زرعة الدمشقي، وضع حواشيه خليل المنصور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م، ٧-٣٠، وابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ١/ ٢٥-٥٣.

[٥] رجح تأتي بمعنى فاقه في الرجاحة والرزانة والقيمة، انظر: ابن منطور، اللسان، مادة "رجح".

[٦] النُّبل؛ أي السمو والشرف، انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "نبل".

قُلٌّ فإنّما المالُ ظِلٌّ زائلٌ، وَعاريّةٌ مُسْترْجَعَةٌ[١]، وله في خُوَيلدٍ رغبةٌ[٢]، ولها فيه مثلُ ذلك، وما أحْبَبتُم مِنَ الصِّداقِ[٣] فَعَلَيَّ"[٤].

٢+٣: خطبة لعمر بن الخطاب حين سمع أن قومًا يفضلونه على أبي بكر

" قال: وحدثني مُحمَّد بنُ إبراهيمَ الهاشميُّ في إسناد ذكره قال: بَلَغ عمر بن الخطاب[٥] رحمه الله أن أقوامًا يُفضِّلونه على أبي بكر الصِّديقِ[٦] رحمه الله، فَوَثبَ مُغْضَبًا حتَّى صَعِدَ المِنبرَ فَحَمِدَ الله، وصلَّى على نبيِّه ﷺ ، ثم قال: أيُّها الناس إني سأُخْبِرُكُمْ عني وعن أبي بكر: إنّه لمَّا تُوُفِّي رسولُ الله ﷺ ارتَدَّتِ العربُ، وَمَنَعتْ شاتَها وبعيرَها، فأجْمَعَ رأيُنا كلّنا أصحابَ محمد ﷺ أنْ قلنا له: يا خليفةَ رسولِ الله، إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يقاتلُ العربَ بالوحْيِ والملائكةِ يُمِدُّهُ الله بهم، وقد انقطع ذلك اليومَ، فالزَمْ بيتَك ومسجدَك، فإنَّه لا طاقة لك بقتال العرب، فقال أبو بكرٍ: أوَكُلّكُمْ رَأيُهُ على هذا؟ فقلنا نعم! فقال: والله لَأنْ أَخِرَّ من السماء

---

[١] يقصد بالعارية المسترجعة أن المال يتداوله الناس فيما بينهم، فهو كالإعارة تعطيه لغيرك، ويعيده إليك، انظر ما قيل في معنى العاريَّة، المنسوبة إلى العارَة، جمع عَوار: ابن منظور، اللسان، مادة "عور".

[٢] قالها عم الرسول في حق خديجة لفظة "رغبة" لأنها رفضت كثيرا من الرجال، "ولما تأيمت كان كلُّ شريف من قريش يتمنى أن يتزوجها": ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ١٠١/٨، وأضاف ابن حجر:" وكان سبب رغبتها فيه ما حكاه لها غلامها ميسرة مما شاهده من علامات النبوة قبل البعثة، ومما سمعته من بحيرا الراهب في حقه لما سافر معه ميسرة في تجارة خديجة": ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ٩٩/٨، و"من حديث نفيسة أخت يعلى بن أمية.. فأرسلتني خديجة إليه دسيسًا أعرض عليها نكاحها، فقبل، وتزوجها وهو ابن خمس وعشرين سنة": ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ١٠٠/٨.

[٣] وردت في الكامل بالكسر، وفي اللسان بالفتح، وهو الأصح، بمعنى الصَّدَاق: مَهْر المرأة؛ وهو ما يدفع للزوجة من المال شرعًا، ومادتها من صَدْق وتجمع على صُدُق، انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "صَدْق"، ولبسط القول فيما قالت به لغات العرب منها الحجاز وتميم وغيرهما في مادة " الصداق " وجمعها؛ انظر: الزرقاني، محمد بن عبد الباقي، شرح الزرقاني على الموطأ وبهامشه سنن أبي داود، (د.ط)، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٩٨٩م، ٥/٣.

[٤] المبرد، الكامل، ١٣٦٢/٣. وقد قيلت الخطبة في العصر الجاهلي.

[٥] انظر ما ترجم عنه: ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ٣/ ١١٤٤- ١١٦٠، وأبو زُرعة، تاريخ أبي زرعة الدمشقي، ٣٤-٣٩.

[٦] انظر ترجمة عن حياة أبي بكر الصديق، وعن ولايته وحروب الردة: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ)، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك (أو تاريخ الأمم والملوك)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢م، ٣/٢٢٣-٣٤٢، وأبو زرعة، تاريخ أبي زرعة الدمشقي، ٣١-٣٣.

فَتَخطفَنِي الطيرُ أحَبُّ إليَّ من أن يكون هذا رأيي! ثم صَعِدَ المِنبرَ، فحمد الله، وكَبَّرَهُ، وصلّى على نبيه ﷺ، ثم أقبل على الناس فقال: أيُّها الناس، مَن كان يَعبُدُ محمدًا فإنّ محمدًا قد مات، ومَن كان يعبُدُ الله فإنّ الله حيٌّ لا يموتُ، أيُّها الناس أَأَنْ كَثُرَ أعداؤُكم، وقَلَّ عَدَدَكُم رَكِبَ الشّيطانُ منكم هذا المَرْكَبَ؟! والله ليُظهِرَنَّ اللهُ هذا الدينَ على الأديان كُلِّها ولو كَرِهَ المشركونَ، قولُهُ الحقُّ، وَوعدُهُ الصِّدقُ، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾[١]، و﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[٢]، واللهِ أيُّها الناسُ لو أُفْرِدْتُ من جميعكم لجاهدتُهم في الله حقَّ جهاده حتَّى أُبْلِيَ بنفسي عُذرًا أو أُقْتَلَ قَتْلا، والله أيها الناس لو مَنَعوني عِقالًا لجاهَدْتُهُمْ عليه[٣]، واسْتَعَنْتُ عليهمُ الله وهو خيرُ مُعينٍ"[٤].

٤: خطبة لعمر بن عبد العزيز

" وحُدِّثْتُ في بعض الأسانيدِ أنَّ عمرَ بنَ عبد العزيز[٥] قال في خطبة له: أيُّها الناسُ، إنَّما الدنيا أَمَلٌ مُخْتَرَمٌ[٦]، وَأَجَلٌ مُنْتَقَصٌ، وبَلاغٌ إلى دارٍ غيرِها، وسَيْرٌ إلى الموتِ ليس فيه تَعْرِيجٌ[٧]،

---

[١] الآية (الأنبياء،١٨)

[٢] الآية (البقرة، ٢٤٩)

[٣] قالها أبو بكر للتشديد على أهمية الصدقة: "والله أيها الناس لو منعوني عقالا لجاهدتم عليه"، ويقصد بالعِقال إما القَلُوص (وهي الإبل الفتية من حين وضعها إلى التاسعة من عمرها، ثم هي ناقة، وقيل هي ولد النعام)، وإما عقال الدابة: (الحبل الذي تشد به، ويوضع في وسط ذراعها) وأرجح هذا المعنى على المعنى السابق له، وقد وردت في خطبة أبي بكر تأكيدا منه على أهمية الصدقة؛ لأن الذي يعطي البعير زكاة، يلزمه أن يعطي معه عقاله، فلو أعطوه البعير ومنعوه ما يعقل به لجاهدهم حتى يحصل عليه. انظر: الزرقاني، شرح الزرقاني على الموطأ، باب "ما جاء في أخذ الصدقات والتشديد فيها"، ١٨٥/٢، وابن منظور، اللسان، مادة "قلص"، ومادة "عُقُل".

[٤] المبرد، الكامل، ٥٠٦/٢-٥٠٧. وقد قيلت الخطبة في العصر الإسلامي.

[٥] انظر ترجمة عنه: مرزوق الزهراني، عش مع الخلفاء والملوك: سيرة مختصرة، ط١، مكتبة الملك فهد الوطنية، مكة المكرمة، ٢٠١٦م، ٣١-٣٥.

[٦] جاء في لسان العرب من معنى لها، انخرام الشيء ذهابُه وانقضاؤه، واقتطاعه، واستئصاله، وموته. انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "خرم".

[٧] التعريج هو مَيَلان الشيء يَمنة ويَسرة، وانعطافه، وتعني أيضًا الإقامة في المكان، والمُقام والمجلِس. انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "عرج".

فَرَحِمَ الله امْرَأً فَكَّرَ في أمرِه، ونَصَحَ لنفسِه، وراقَبَ ربَّه، واسْتقالَ ذَنْبَه[١]. أيّها الناسُ، قد علمتم أنَّ أبَاكُم أُخْرِجَ من الجنة بذنب واحدٍ، وأنَّ ربَّكم وَعَدَ على التوبة، فَلْيَكُنْ أَحدُكم مِنْ ذنبِهِ على وَجَلٍ[٢]، ومن ربِّهِ على أمَلٍ"[٣].

٥: خطبة أعرابي بالبادية

" قال الأصمعيُّ فيما بلغني: خَطَبَنا أعرابيٌّ[٤] بالبادية؛ فَحَمِدَ الله واستَغْفَرَه ووَحَّدَهُ، وصلَّى على نبيِّه، فَبَلَغَ في إيجازٍ، ثم قال: أيُّها الناسُ، إنَّ الدنيا دارُ بلاغٍ، والآخرةَ دارُ قَرارٍ، فخُذُوا لِمَقَرِّكم من مَمَرِّكم، ولا تَهتكوا أستارَكم عندَ مَنْ لا تَخْفَى عليه أسرارُكم، في الدنيا كُنتُم، ولغَيرِها خُلِقْتُم، أقولُ قولي هذا، وأستغفرُ الله، والمُصلَّى عليه رسولُ الله، والمَدعُوُّ له الخليفةُ، والأميرُ جعفرُ بن سُلَيْمانَ"[٥].

---

[١] أقالَ واستقالَ وتقايل بمعنى ترك الأمر، وفسخُ الشيء، والإعراض عنه. لمزيد بسط القول في مادة "قيل" انظر ما جاء فيها: ابن منظور، اللسان.

[٢] وَجَل وجَلا أي الخوف والفزع؛ انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "وجل".

[٣] المبرد، الكامل، ١٤٨٠/٣. وقد قيلت الخطبة في العصر الأموي.

[٤] قيل إنه الرِّياشي، وهو أبو الفضل، العباس بن الفرج، شيخ الأدب، بصري نحوي، مولى محمد بن سليمان العباسي الأمير، وكان كثير الرواية عن الأصمعي، وكان يفضله ويقدمه أبو العباس ثعلب وغيره لقوة حفظه وسعة علمه، قتل سنة ٢٥٧هـ بالبصره على يد الزنج. انظر في ترجمة عنه: قاضي المارَسْتَان، محمد بن عبد الباقي الأنصاري (٥٣٥هـ)، أحاديث الشيوخ الثقات (المَشيَخَة الكُبرى)، دراسة وتحقيق الشريف حاتم العَوني، ط١، دار علم الفوائد، مكة المكرمة، ٢٠٠١م، ١٦٣٧/١، وابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق محمد عطا ومصطفى عطا، راجعه وصحّحه نعيم زَرزور، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م، ١٣٢/١٢، والذهبي، شمس الدين محمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب، ٣٧٣/١٢-٣٧٦.

[٥] المبرد، الكامل، ١٤٧٩/٣-١٤٨٠. وقد قيلت الخطبة في العصر العباسي الأول. وهناك رواية أخرى ذكرت في كتاب المشيخة الكبرى، وهي: "أخبرنا أبو علي بن وِشَاح، قال: أخبرنا القاضي المعافى بن زكرياء،... قال: حدثنا: حدثنا الزبير بن بكار، قال: أخبرنا العُتبي، قال: حَجَجْنا سنة، فنزلنا ضَرِيّة في يوم جمعة. فسألنا عن الوالي، فقيل: هو أعرابي، عما قليل يخرج إليكم. فما زالتِ الشمسُ حتى خرج علينا، وعلى رأسه عمامة كأنها رَحى متنكبًا قوسًا عربية، فصعِدَ على كثيب من رَمْل، ثم استقبلنا بوجهه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن الدنيا دار ممر، والآخرةَ دارُ مقر، فخذوا لمقركم من مَمَرِّكم؛ ولا تهتكوا أستاركم، عند من لا تخفى عليه أسرارُكم؛ أَخْرِجُوا من الدنيا قُلُوبَكم، قبل أن تخرجَ منها أبدانُكم، ففي الدنيا حَييتُم، وللآخرة

المبحث الأول: التصنيف الثلاثي للأفعال الكلامية الإنجازية

ستقوم الباحثة في هذه الخطب بتوضيح تقسيم سيرل للأفعال الكلامية، دون أن تسلط الضوء على الفعل التأثيري لأنه، في رأي سيرل، لا أهمية له؛ "لأنه ليس من الضروري عنده أن يكون لكل فعل تأثير في السامع يدفعه إلى إنجاز فعل ما"[١]، وقد أنجز الناطق بالخطبة ثلاثة أنواع من الأفعال الكلامية، حسب تصنيف سيرل، وهي[٢]: الفعل النطقي، والفعل القضوي، والفعل الإنجازي، ونبدأ بخطبة أبي طالب للإبانة عن تلكم الأفعال، ولكن قبل التحدث عنها يتقدم الحديث عن السياق الخارجي للنص تمهيدا للدخول إلى النسق اللغوي، وكشف ملابسات النص والعوامل المؤثرة به.

خطبة أبي طالب بن عبد المطلب

* السياق: كان متماسكا بين الجمل، فالجمل التالية لها كل الصلة بالجمل السابقة، حيث شكلت عنوانا عريضا وهو زواج الرسول من خديجة، وبدأت الأفكار كلها تخرج من لدن العنوان، في حيزه المتاح له، فبدأها أولا بالنسب والشرف بعدّ ذلك تهيئةً للدخول في الموضوع، ثم انتقل إلى الحديث عن صفات الخطيب، ثم صرح برغبة الخطيب والخطيبة في الزواج؛ لنستنتج أن الفعل الإنجازي في الخِطبة مرتبط ارتباطا وثيقا بعناصر الخطاب وسياق الكلام، المتعلق بفكر المخاطب والواقع.

ولا ننسى أن نشير إلى الترابط بين عناصر الخطاب في السياق النصي، حيث هناك صلة قرابة تجمع بين أبي طالب والرسول، وهناك علاقة تجمع بين المخاطب والمتلقي من ناحية

خُلقتُم؛ وإنما الدنيا بمنزلةِ السُّمِّ الناقع، يأكله من لا يعرفه؛ أقول قولي هذا، وأستغفر الله؛ والمدعوُّ له الخليفةُ، ثم الأميرُ جعفرُ؛ قوموا لصلاتكم، بارك الله فيكم"؛ قاضي المارستان، المشيخة الكبرى، ٥٨٩/١-٥٩٠ ، والضرية: قرية بالقصيم في المملكة العربية السعودية. والأمير جعفر بن سليمان هو أبو القاسم، جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس، من بني هاشم، وابن عم أبي جعفر المنصور، عرف بخلقه الرفيع وأفعاله الشريفة، وولي إمرة المدينة ثم مكة، وتوفي هذا الأمير سنة(١٧٤هـ)، وقيل (١٧٥هـ). انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب، ٢٣٩/٨-٢٤٠.

[١] علي محمود الصرّاف، في البراجماتية، ٥٥.

[٢] لمزيد بسط القول حول هذا التصنيف، انظر: علي محمود الصرّاف، في البراجماتية، ٥٤-٥٥، ٢٠٣ وما بعدها.

الشرف والوجاهة، فخديجة تكون بنت خويلد بن أسد، وهو من سادات قريش وأثريائها، وقد زوجها له عمها عمرو بن أسد[1]، وهو كذلك أيضا ذو شرف وحسب ونسب ووجاهة، وقال في حق الرسول ﷺ: "ولما خطبها رسول الله ﷺ قال عمها:" محمد بن عبد الله بن عبد المطلب يخطب خديجة بنت خويلد، هذا الفحل لا يقدع أنفه"[2].

- **التصنيف الثلاثي للأفعال الكلامية**

١- الفعل النطقي: تمثل في صورة الأصوات اللغوية المنتظمة على نسق نحوي ومعجمي سليم.

٢- الفعل القضوي: تمثل في أ- المرجع (وهي التي تشكل محور الحديث/المتحدث عنه): الرسول وخديجة. ب- الخبر(المتحدث به): طلب يد خديجة. ج- الإحالة + الخبر= القضية (المحتوى المشترك بين المرجع والخبر أو ما يسمى بإسناد الخبر إلى المرجع)؛ وهي تزويج الرسول من خديجة.

٣- الفعل الإنجازي: هو الإخبار، وله جزءان، أولها: الغرض من إلقائه الفخر والمدح، فخر أبي طالب بنسبه وشرفه، ومدحه الرسول محمد ﷺ باستخدامه التوكيد بإن، ليزيل التردد عند المخاطب في مضمون ما خبر عن الرسول، فيزيل الشك باليقين، فجاء الخبر مؤكدا بتوكيد واحد، فقال: "ثم إنَّ محمدَ بنَ عبدِ الله ابنَ أخي مَنْ لا يُوازَنُ به فتًى من قريشٍ إلا رَجَحَ ..."، وهذا يندرج تحت الخبر الطلبي، الذي يطلب فيه المخاطب تأكيد ما عرف عن محمد من خلق ونبل.. وهلم جرا، وثانيها: رغبة كل منهما في الآخر؛ أعني خديجة وابن أخيه.

- خطبة عمر بن الخطاب

* السياق: أحكمت متوالية الجمل ربط النص بعضه مع بعض، فخرج متماسك الأطراف والبنيان، لا يشعر القارئ بتفكك روابطه التي تضمنت الأفعال الإنجازية، أو حملها على معان لا علاقة لها بموضوع الخطبة الذي دار حول عدم القول بالأفضلية بين أبي بكر وعمر، ولتبقى الأفضلية كما في زمن الرسول محمد ﷺ لأبي بكر الصديق، وكيف لابن الخطاب ألا يصرح بموقفه عن الصديق، وهو من نزلت به الآيات الشريفات إما مادحة فيه أو مصدقة إياه، أو مخبرة عن أمر من شأنه، وفيه يقول الحق: ﴿ **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ**

---

[1] انظر: الزّبَير، جَمهرة نَسب قُريش وأخبارها، ٢/٢١٣-٢١٤.

[2] الزبير، جمهرة نسب قريش وأخبارها، ٢/٢١٤.

هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾[1] وغيرها من آي الذكر الحكيم[2].

* التصنيف الثلاثي للأفعال الكلامية

١- الفعل النطقي: مراعاة ابن الخطاب الجانب الصوتي والنحوي والمعجمي أثناء نطقه للأفعال الإنجازية على الوجه الصحيح.

٢- الفعل القضوي: برز من خلال أ-المرجع: أبو بكر الصديق. ب-الخبر: ارتداد العرب. ج- القضية: موقف أبي بكر من المرتدين.

٣- الفعل الإنجازي: يتضمن الإخبار والاستفهام والأمر والقسم والنهي.

- خطبة أبي بكر الصديق

* السياق: متماسك الأوصال في مضمونه، قالها لما توفي النبي ﷺ، وتولى الخلافة من بعده، فارتدت العرب، وكان على رأسهم مسيلمة وطُليحة، فاشتد فسادهم، وبدأت القبائل متتالية تتبعهم في الردة، ما عدا قريشًا وثَقيفًا، ويدعون إلى إقامة الصلاة دون إيتاء الزكاة، حتى أقيمت الحرب بينهم، ووافق عليها جميع الصحابة بعد مخالفتهم إياه فيها، أعني أبا بكر، وغُلبَ أهل الردّة، وانتصر فيها المسلمون[3]، فما كان هذا إلا الدليل الدامغ على قوة جأش الصديق، والكل يشهد له في ذاك[4].

---

[1] الآية (التوبة، ٤٠)

[2] لمزيد بسط القول في الآيات المنزلات بحق أبي بكر، انظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ)، تاريخ الخلفاء، ط٢، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، ٢٠١٣م، ١٢٥-١٢٧، وانظر ما جاء في صحيح البخاري عن فضل أبي بكر: صحيح البخاري، كتاب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب فضل أبي بكر بعد النبي صلى عليه وسلم، رقم ٣٦٥٥، ص ٨٩٩، وباب قول النبي صلى الله علسه وسلم: "لو كنتُ متخذًا خليلا" قاله أبو سعيد، رقم ٣٦٥٦، ص ٨٩٩.

[3] انظر: مَسْكَوَيْهِ، أبو علي أحمد بن يعقوب(٤٢١هـ)، تَجارِبُ الأمم وتَعاقُبُ الهِمم، تحقيق سيّد كسروي حسن، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م، ١/١٨٠-١٨٢، ولبسط القول في الصدقة وأسباب الترغيب فيها وأهميتها للمسلم، انظر: الزرقاني، شرح الزرقاني على الموطأ، باب "الترغيب في الصدقة"، ٤/٢٥١-٢٥٧.

[4] انظر شرح الحديث (٤٢٧٥) وفيه موقف أبي بكر الصديق من المرتدين وخروجه بكل شجاعة وصبر ليخطب فيهم خطبته القائل فيها: "من كان منكم يعبد محمدا..."؛ ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل شهاب

*** التصنيف الثلاثي للأفعال الكلامية**

١- الفعل النطقي: تمثل في صورة الصوت كما تظهر لنا مع أخذ الناطق بعين الاعتبار عدم مخالفة النظام النحوي والمعجمي الصحيحين.

٢- الفعل القضوي: يظهر من خلال أ- المرجع: المتلقي (الرعية/الناس). ب-الخبر: موقفه من المرتدين ج-القضية: القرار بقتال المرتدين لا حياد عنه حتى الرجوع إلى ما جاء في الكتاب والسنة، فأعلن الجهاد في سبيل الله.

٣- الفعل الإنجازي: اشتمل على الإخبار والقسم والنداء.

- خطبة عمر بن عبد العزيز

* السياق: تحدثت الخطبة عن الآخرة ونسيانها؛ إذ رأى ابن عبد العزيز حاجة رعيته لها تذكرا وتذكيرا وادكارا علّهم يتنبهون قبل فوات الأوان، وينزعون الغل والشجع والطمع من قلوبهم.

*** التصنيف الثلاثي للأفعال الكلامية**

١- الفعل النطقي: نطق ابن عبد العزيز للأصوات اللغوية كان متناسقا مع نظام النحو والمعجم.

٢- الفعل القضوي: يتجلى من خلال: أ- المرجع: الرعية. ب- الخبر: الدنيا ومتاعها الزائل. ج-القضية: التقوى وخشية الله، وعدم التمسك بشيء فان، وتحقيق العدالة بين الأغنياء والفقراء، فلا يتعدى كل منهما على الآخر.

٣- الفعل الإنجازي: احتوى على الإخبار والنداء والأمر.

- خطبة الأعرابي

* السياق: وقعت الخطبة أثناء فتن وثورات على الحكم، فأراد منها الخطيب تشتيت انتباه الرعية بالتحكم في مشاعرهم وأحاسيسهم، فيقوم بتحركيها وافتعالها حتى يهدأ الوضع، ويقوموا بالولاء للأمير جعفر بن سليمان، فتناولت الخطبة الآخرة والتنبه لها، فهي دار القرار، وعدم التمسك بالدنيا، فما هي إلا حبل وصول إلى الآخرة، وختمت بالدعاء، وخصت به الأمير

الدين أحمد بن علي (٨٥٢هـ)، فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد البخاري، تحقيق عبد القادر الحمد، باب "مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته وقول الله عز وجل: (إنك ميت وإنهم ميتون)"، ط١، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض،٢٠٠١، رقم ٤٢٧٥، ٧٥٣/٧.

جعفر بن سليمان مفصحة عن اسمه، وبذلك تكون الخطبة تسلسلت في تنظيمها فكرة ومعنى وغاية مقصد.

*** التصنيف الثلاثي للأفعال الكلامية**

١- الفعل النطقي: نطق الأعرابي كان حسن التركيب بمقتضى النظام الصوتي والنحوي والمعجمي.

٢- الفعل القضوي: يستنتج من موضع: أ- المرجع: المتلقي(الناس). ب-الخبر: العمل لدار القرار. ج-القضية: نسيان الفتن والثورة على الحكم حتى يثبت حكم جعفر بن سليمان أميرا على رعيته.

٣- الفعل الإنجازي: أفاد الإخبار والأمر والنهي.

المبحث الثاني: أنواع الأفعال الكلامية الإنجازية ومستوياتها

لم يقف سيرل على التصنيف الرباعي للأفعال الكلامية الإنجازية وإظهارها في النصوص، بل قام بتخصيصها أكثر عندما قسمها إلى نوعين، أحدهما يدعى بالفعل المباشر، والآخر سمي بغير المباشر، والخطب التي بين أيدينا وقعت ضمن الأفعال الإنجازية غير المباشرة، وهذا تفصيل بيان عن كل خطبة من الخطب يتجلى من خلال مستويات الأفعال الإنجازية غير المباشرة، نتناولها من خلال صنفين: التداولية الصغرى، والتداولية الكبرى على هذا النحو:

أ- <u>التداولية الصغرى</u>[١]

وهي تحوي على صور المستويات التي تتأتى من خلالها الأفعال الإنجازية غير المباشرة[٢]:

---

[١] أخذت الباحثة التسمية هذه، أي التداولية الصغرى والتداولية الكبرى، من كتاب فان دايك: النص والسياق، ٣٠٩.

[٢] انظر: علي محمود الصرّاف، في البراجماتية، ١٠٨، و١٤٠ وما بعدها.

أولا: الوحدات المعجمية[1] وشبه المعجمية

وهي التي " تشمل الحروف، والأدوات، والألفاظ التي تؤدي إلى إنجاز فعل غير مباشر من خلال سياق معين"[2]، ومن الأمثلة التي تتجلّى فيها الوحدة المعجمية وشبه المعجمية في استخدام أسلوب القصر على هذا النحو:

- إنَّ محمدَ بنَ عبدِ الله ابنَ أخي مَنْ لا يُوازَنُ به فتًى من قريشٍ إلا رَجَحَ به بِرًّا وَفَضْلا وَكَرَمًا وعقلا ومَجْدًا ونُبْلا
- وإنْ كانَ في المالِ قُلٌّ فإنّما المالُ ظِلٌّ زائلٌ وَعاريةٌ مُسْتَرْجَعَةٌ.
- إنَّما الدنيا أَمَلٌ مُخْتَرَمٌ، وَأَجَلٌ مُنْتَقَصٌ، وبَلاغٌ إلى دارٍ غيرِها، وسَيْرٌ إلى الموتِ ليس فيه تَعْرِيج.

يقصد بالقصر "تخصيص الموصوف عند السامع بوصف دون ثان"[3]، وأنواعه المشتمل عليها هي قصر الإفراد، والقلب، وله أربعة طرق متبعة، أحدها طريق العطف، وثانيها النفي، وثالثها استعمال إنما، ورابعها التقديم[4]، ولو نظرنا إلى الأمثلة الثلاثة في الأعلى لوجدناها تتضمن القصر في معناه، فالمراد في المثال الأول أن محمدًا ابن أخيه مقصور على صفات جبلت فيه لا يتجاوزها فتى في قريش، فقصر الموصوف على الصفة باستعمال النفي والاستثناء، وقد قالها عمه في مقام استدعى منه إثبات النفي، بإدخاله على الوصف المسلم ثبوته في الموصوف؛ ليزيل أي شك عندهم في كون محمد يماثل أقرانه بما يتمثله من صفات،

---

[1] استعمل مصطلح lexeme للتعبير عن الوحدة المعجمية، وقد أطلقت عليه تسميات كالوحدة المعجمية أو المأصل أو المفردة المجردة أو اللكسيم، ويسمى في عرف بعض اللغويين الوحدة الدالة أو السيمانتيم(مثل قولنا المطر انهمر: ال التعريف مورفيم، ومطر وانهمار المشتقة من انهمر يعدان سيمانتيم)، وللوحدة المعجمية أنواع، أولاها الكلمة المفردة، وثانيها الكلمة المركبة تركيبا مزجيا أو المركبة بالإضافة كشبه الجزيرة، أو منحوتة كبرمائي، وثالثها التجمعات التركيبية مثل ومن دواعي سروري، وشب عن الطوق ، وغيرها. انظر: لواء عطية، المصاحبة المعجمية: المفهوم، والأنماط، والوظائف بين الموروث العربي والمُنجَز اللساني، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٨م، ٢١-٢١، وغازي طليمات، في علم اللغة، ط٢، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ٢٠٠٠م، ١٦٦-١٦٨.

[2] علي محمود الصرّاف، في البراجماتية، ١٤١.

[3] السكاكي، مفتاح العلوم، ٢٨٨.

[4] انظر لمزيد بسط القول: السكاكي، مفتاح العلوم، ٢٨٨-٢٩٢.

فالخبر بالنفي والإثبات يكون "لأمر ينكره المخاطب ويشك فيه"[١]، ويبدو أن عمه أبا طالب أراد أن يزيل غمامة الشك هذه، ويلمح للمتلقي إلى أمانة ابن أخيه محمد وصدقه ﷺ، وهو ما كانت تبحث عنه السيدة خديجة _رضي الله عنها_ فذُكر عنها أنها قالت لما خطبها: "إني قد رغبتُ فيك لحُسن خلقك، وصدق حديثك"[٢].

وجرى التخصيص في المثالين الأخيرين بين المبتدأ والخبر باستعمال إنما، إحدى أدوات قصر الموصوف على الصفة، والتي تتضمن معنى: ما وإلّا، أي النفي والاستثناء، ولذلك يؤولان بقولنا: ما المال إلا ظل زائل..، وقولنا: ما الدنيا إلا أمل مخترم..، وهذا النوع من القصر يدعى قصر الإفراد، ومعناه في المثال الأول أن المالَ وإن كثر أو قلّ مقصورٌ على الاتصاف "بظل زائل وعارية مسترجعة" وفيه ترغيب من أبي طالب لخديجة بنت خويلد للموافقة على الرسول، وهي التي رفضت كثيرا ممن تقدم لخطبتها، فهو تلميح لها ولأهلها[٣]، أنكم لو نظرتم إلى المال فما هو إلا ظل زائل وعاريّة مسترجعة، وخاصة أن السيدة خديجة كانت "امرأة شريفة جلدة كثيرة المال"[٤]، وفي المثال الثاني فمعناه أن الدنيا مقصورة على صفة الأمل المنقطع، والأجل المنتقص، وطريق الوصول إلى الآخرة، وكذلك إلى الموت، ولم يرد عمر بن عبد العزيز أن يعلم المخاطب أن الدنيا كذا وكذا، ولكنه أراد أن يذكره بالخبر الذي لا يجهله استدعاء ما يوجبه كونه بمثابة الحاكم[٥]، ولو رجعنا إلى خطبة عمر الأولى لمّا ولي الخلافة، لوجدناها كلها ورعًا وطهارة، تذكر السامع بالموت وهادم اللذات، والاستعداد له[٦]، فهو ينظر إلى التذكير هذا أنه واجب عليه، ومن أعظم مسؤولياته، وكأنه أراد من خلال القصر أن يلمح للسامعين ألا ينسوا الآخرة حتى يقيموا حدود الله كما يجب، فيرقق القلوب وتقضى حاجته، وهذا ما كان يبحث عنه في رعيته عامة، وعماله خاصة، حيث كتب لهم: "إن إقامة الحدود

---

[١] الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ٣٣٢.

[٢] ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ١٠٢/٨.

[٣] ذكر أن من زوجها من أهلها هو عمها عمرو؛ إذ إن أباها مات في الجاهلية، انظر: ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ١٠١/٨.

[٤] ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ١٠١/٨.

[٥] لمزيد بسط القول انظر البيت الشعري الذي ضربه الجرجاني مثالا على "إنما" مجليا عن معناها: الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ٣٣٠.

[٦] انظر: عبد الستار الشيخ، عمر بن عبد العزيز: خامس الخلفاء الراشدين، ط٢، دار القلم، دمشق، ١٩٩٦م، ١٨٧-١٨٨.

عندي كإقامة الصلاة والزكاة"[1]، وكيف ستقام الحدود دون خشية الله، والتذكير بالآخرة بين كل فترة لترق القلوب، فتسجد لباريها طائعة عاملة بأحكامه، آخذة بما جاء به الرسول الأكرم ﷺ من تعاليم وشرائع إسلامية! وأيضا هي إشارة خفية يريد بثها عمر في قلوب الناس؛ إذ ورد عنه أنه حدث ابنه عبد الملك كيف يستدرج الناس إلى الخير، فقال:" يا بني! إنما أروّض الناس رياضة الصعب، إني لأريد أن أحيي الأمور من العدل؛ فأؤخر ذلك حتى أخرج معه طمعا من طمع الدنيا، فينفروا لهذه، ويسكنوا لهذه"[2]، وكل ذاك لن يتحقق لعمر إن لم يرسم للناس طريق الذل والانكسار إلى الله.

أما الأسلوب الآخر فهو أسلوب الشرط، ونجده قد تمركز في خطبة أبي بكر الصديق في قوله:

- **واللهِ أيُّها الناسُ لو أُفْرِدْتُ من جميعكم لجاهدتُهم في الله حقَّ جهاده حتَّى أُبْلِيَ بنفسي عُذرًا أو أُقْتَلَ قَتْلا.**
- **والله أيها الناس لو مَنَعوني عِقالًا لجاهَدْتُهُمْ عليه، واسْتَعَنْتُ عليهمُ الله وهو خيرُ مُعينٍ.**

والظّاهرُ أنّ في استخدامه لو الشرطية ملامح قد غدت مجلية لإشارات غير مباشرة أشار بها إلى شيئين: أولها لم يفرد أبو بكر من الناس، أعني لم يعزل عنهم، فهو بينهم قائم وهم كذلك، وثانيها لم يجاهد وحده المرتدين، فهو يعلم في قرارة نفسه أنهم لن يتركوا خليفة رسول الله أن يجاهد وحده، وترجمة لتلكم الإشارات فهو باستعماله حرف الشرط "لو" ربط بين جملة فعل الشرط وجوابه، وهو يقصد أن يجحد الهمم في الجهاد، وينزع التقاعس والخذلان نزعا من قلوب المسلمين، فلا يعودوا يروا إلا الحق، مدافعين عنه بأرواحهم حتى يعلو كما أراد له الله أن يكون.

وفي قوله الثاني تجلية عن خطاب واحد، يربط بين جملة الشرط (لو منعوني عقالا) وجملة الجواب (لجاهدتهم عليه)، فهو يعي أن جهاده وحده في إيقاف المرتدين ليس كافيا،

---

[1] ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد (٢٣٠هـ)، كتاب الطبقات الكبير، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩٠م، ٢٩٤/٥.

[2] ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (٥٩٧هـ)، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز: الخليفة الزاهد، ضبط وشرح وتعليق نعيم زرزور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤م، ٨٨.

ولكنه يريد أن يلمح لهم لو حدث ذلك لأقف في وجههم مجاهدا، وهذه رسالة خفية من أبي بكر أن لا تفكروا أني سأتراجع عن الذي عزمت على فعله، وهو قتال المرتدين، وإشارة منهم أنكم لا بد وأنكم واقفون مع خليفة رسول الله! فأوصل الرسالة بطريقة غير مباشرة، حتى وقفوا معه رجالا متمثلين لأمره في حربه مع المرتدين.

ثانيا: العبارات والجمل والأساليب

وقد تجلى هذا المعنى في معنى أوسع من ذي سابقه، فشمل الوحدات المعجمية وشبه المعجمية تحت أجنحته، وعد هذا القسم الوحدة الصغرى في البنى الكبرى، الذي يتشكل من متتالياتها[1]، ونضرب أمثلة تجليه وتبين المقصد منه:

أ- الأساليب الخبرية

ونأخذ أمثلة من الخطب السابقة الذكر، على النحو الآتي:

- "إنَّ محمدَ بنَ عبدِ الله بنَ أخي مَنْ لا يُوازَنُ به فتًى من قريشٍ إلا رَجَحَ به بِرًّا وَفَضْلا وَكَرَمًا وعقلا ومَجْدًا ونُبْلا"
- " المالُ ظِلٌّ زائلٌ وَعاريةٌ مُسْتَرْجَعَةٌ".
- "مَن كان يَعبُدُ محمدًا فإنّ محمدًا قد مات، ومَن كان يعبُدُ الله فإنّ الله حيٌّ لا يموتُ"
- "إنَّما الدنيا أَمَلٌ مُخْتَرَمٌ، وَأَجَلٌ مُنْتَقَصٌ، وبَلاغٌ إلى دارٍ غيرِها، وسَيْرٌ إلى الموتِ ليس فيه تَعْرِيجٌ"
- "إنَّ الدنيا دارُ بلاغٍ، والآخرةَ دارُ قَرارٍ... أقولُ قولي هذا وأستغفرُ الله، والمُصلَّى عليه رسولُ الله، والمَدعُوُّ له الخليفةُ، والأميرُ جعفرُ بن سُليْمانَ "

في المثال الأول الذي ذكره أبو طالب في خطبته لم يرد فيه الإخبار عن الرسول ﷺ أو مدحه، فهو معروف بأمانته وصدق حديثه بين السامعين، حتى خديجة تعلم ذلك، فمما روي عنها:" كانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه، وكانت قريش تجارا، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ صدق الحديث، وعظم الأمانة، وكرم الأخلاق، أرسلت إليه ليخرج في مالها إلى الشام تاجرا وتعطيه أفضل ما كانت

---

[1] انظر: علي محمود الصراف، في البراجماتية، ١٤٢.

تعطي غيره مع غلامها ميسرة"[1]، فمقصده المراد الموافقة على ابن أخيه أن يكون زوجا لخديجة.

أما المثال الثاني في جملته التي قالها أبو طالب في خطبته فهو يعلم في قرارة نفسه أهمية المال، وأنه وسيلة للثراء لا غنى عنها، ولكن أراد أن يميل نظر الحاضرين عن هذه الأهمية، وأن ينظروا له من زاوية أخرى، فلا ينسوا أنه كالعارية المسترجعة، عملية أخذ وعطاء، وعملية تدوم يوما وتزول أخرى، وهكذا دواليك.

أما المثال الثالث المذكور في خطبة أبي بكر الصديق فلم يقصد منه أبو بكر إخبار الناس بموت الرسول، فهم يعرفون هذا، وبكوا عليه أيما بكاء، ولكنه يريد أن يحثهم على القتال، ويذكرهم أن قتالهم لم يكن لمحمد بل لرب محمد، وما كلامه لهم إلا تناص ديني من القرآن الكريم، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾[2]، ومفهوم الآية "أن الرسل ليست بباقية في قومها أبدا، وأنه يجب التمسك بما أتت به الرسل؛ وإن فُقِد الرسول بموتٍ أو قتلٍ"[3]، ولنلْقِ نظرة على عجالة في سبب نزولها، فقد روي أنها نزلت في المنهزمين يوم أحد عتابا في حقهم، وإنكارا لما قالوه حينما سمعوا بقتل الرسول، ومن أقوالهم لو كان نبيا لما قتل، وأراد بعضهم أن يرتد عن إيمانه، وما نلحظه أن الذي حصل يوم أحد حصل وقت إعلان وفاة النبي، فأهل الردة ظهروا من جديد، ولكن هذه المرة تحقق ما كانوا يزعمونه في الأولى، والرسول قد مات حقا، وعلى أبي بكر أن يتسلم زمام الأمر، ويقف لهم رجلا بألف رجل، فما كان منه إلا أن خطب بهم بشجاعة وجرأة متحملا المصاب الجلل

---

[1] ابن الأثير الجزري، أبو الحسن عز الدين (٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، ط١، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٩م، ٢٢/٢.

[2] الآية (آل عمران،١٤٤).

[3] القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد(٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي ومحمد عرقسوسي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٦م، ٥/ ٣٤١.

بفقده للحبيب المصطفى ﷺ، تاليا الآية السابقة، مؤكدا من خلالها أن الدين لا يزول بموت الأنبياء، فإلام الردة هذه إلام؟![1]

أما المثال الرابع فما هو إلا رسالة من عمر بن عبد العزيز الذي عرف عنه الزهد وكثرة البكاء خشية لله، وخوفا من ظلمه الناس، وحاشاه غير ذلك وهو صاحب البطانة الصالحة، التي وضعها من مستشارين يذكرونه بالموت والآخرة، حتى خاف على المسلمين أن ينسوا الآخرة ويبطروا الحق ولا يقبلوه، ولا يشكروا الله على نعمه، وتضيع حقوق العباد وهم يجرون وراء الدنيا، فالغني يأكل الفقير ولا يهمه أمره، والفقير لا يسأل أحد فيه، فكان لا بد من أن يلمح لهم تذكيرا واذكارا واستحضارا في أذهانهم، تأتيهم كلما رأوا من أنفسهم ما يسوؤها من قول أو فعل.

أما المثال الخامس والأخير فلنرجعِ النظرَ في عُجالةٍ إلى السياق الخارجي الخاص به، الذي حتّم على الرياشي أن تكون خطبته للمتلقي تذكيرا بالآخرة، وتأكيدًا أن الدنيا دار بلاغ ليس غير ذلك، ويلقيها وهو في وسط فتنة تقع في المدينة! إذ سنجد في بطون كتب التاريخ السبب في ذاك، وخاصة أنه ختمها بقوله:" أقولُ قولي هذا وأستغفرُ الله، والمُصلَّى عليه رسولُ الله، والمَدعُوُّ له الخليفةُ، والأميرُ جعفرُ بن سُليْمانَ"، إذ إن زمن الخطبة زمن فتن وثورات، فقد ولي جعفر بن سليمان المدينة سنة ١٤٦هـ، وأبو جعفر المنصور[2] الخليفة العباسي عليها، وهو ابن عمه ومن بعثه ليسكّن الفتن حينها، "ويجدد بيعة أهلها فقدمها، وهو يتوقد نارا على أهل الخلاف لهم، فأظهر الغلظة والشدّة، وسطا بكل من ألحد في سلطانهم، وأشار إلى المنازعة لهم، وأخذ الناس بالبيعة"[3]، فأراد جعفر أن يهدئ النفوس، ويشغلهم عن المطالبة بالحكم، فلا يسمع مخالفة ولا استكراها لإمارته عليهم، وهو الخائف ألا يحصل على ما أبرم عليه من بيعة أهل المدينة، فقاتل كل من وقف بجانبه، حتى مالك بن أنس أمر بضربه بالسوط، حينما أفتى

---

[1] انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٣٤٠/٥-٣٤٧، وابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، التحرير والتنوير، (د.ط)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤، ١٠٩/٤-١١٣.

[2] أبو جعفر المنصور: فحل بني العباس، ولد سنة خمس وتسعين، عرف بعلمه ودهائه وجبروته، تولى الخلافة العباسية في عام ١٣٦هـ حتى عام ١٥٨هـ، وعدّ المؤسس الحقيقي للدولة العباسيّة، وتوفي سنة ثمان وخمسين ومئة؛ انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب، ٨٣/٧-٨٨.

[3] ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم(٢٧٦هـ)، الإمامة والسياسة (تاريخ الخلفاء)، تحقيق علي شيري، ط١، دار الأضواء، بيروت، ١٩٩٠م، ١٩٩/٢.

في البيعة بأنها لا تحلّ، لأن جعفر يستكرههم عليها، ويبدو أن الخطب بقيت تدعو لإمارة جعفر بن سليمان، حتى يسكن الهيج بالمدينة، وتتم البيعة له، ويبدو أنها دعوة منه للخطباء للترغيب فيه بذكر اسمه فيها، فالزمن زمن ثورات وخروج على الحاكم، والخليفة يريد الأمير جعفر، وجعفر يريد أن يثبت للخليفة فرضه السيطرة على المدينة، فما كان منه إلا أن يشغلهم عن المطالبة بالحكم بترقيق القلوب والآخرة، وأن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وعلى هذا المنوال[١]، ويبدو أن جعفر بن سليمان اختار من يحرك الأفئدة، فلم يجد أمامه إلا من اشتهر في وقته في اللغة والنحو، العالم فيها والمتفنن في قولها، الرياشي[٢].

وقبل أن ننطلق إلى جزئية أخرى في هذا المضمار، لنُعدِ النظر في الأمثلة السابقة، نجد أن هناك مسوغات استدعت من المتكلم استعمال الأفعال غير المباشرة[٣]، ففي المثال الأول والثاني والرابع بمكنتنا وضعه تحت مظلة مسوغ التأدب في الخطاب، مع مراعاة الأبعاد التي يتحكم فيها السياق، ففي المثال الأول والثاني مراعاة لما يقتضيه البعد الاجتماعي بضرورة احترام رغبة المتلقي، وعدم طرح ما يخالفها أو الإتيان بعكس مطالبهم الشرعية، والقاعدة لهذا التأدب التي جعلت المتكلم يسلك مسالكها هي "جعل المتلقي في وضع مريح وودي"[٤]، وجاء المثال الرابع مراعاة لمقتضى البعد الديني، فمهما علا الإنسان في الأرض فلا ينسى حق الله عليه، ويجب أن تبقى مخافة الله وتقواه بين عينيه يطبقها وهو في خضم عمله، يحملها معه جيئةً وذهابًا، والقاعدة الرئيسة التي رسا عليها عمر بن عبد العزيز هي التذكير، مع عدم إلزام المتلقي بما يسمع، ولكنّ رجاءه أن القلب يستجيب، وأن العقل يتفكر[٥].

أما المثال الثالث؛ أعني خطبة أبي بكر الصديق، فهو يخالف في مسوغه ما جاءت به الأمثلة السابقة، فالذي دفع به هو" الاستغناء عن إنتاج عدد من الخطابات والاكتفاء بإنتاج خطاب واحد ليؤدي معنيين هما المعنى الحرفي والمعنى غير المباشر في الآن نفسه"[٦]، فلو أراد أبو بكر أن يفصلها معنى لفعل، ولكنه أراد لها الإيجاز، فاستخدم المعنى الحرفي في

---

[١] انظر: ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ١٩٩/٢-٢٠٣.

[٢] انظر: السيرافي، أخبار النحويين، ٦٨-٧٠، والخطيب البغدادي، تأريخ مدينة السلام، ٢٢/١٤-٢٣.

[٣] انظر: علي محمود الصراف، في البراجماتية، ١٣٤- ١٣٧.

[٤] علي محمود الصراف، في البراجماتية، ١٣٤.

[٥] انظر: علي محمود الصراف، في البراجماتية، ١٣٤.

[٦] علي محمود الصراف، في البراجماتية، ١٣٦.

الإخبار والتنبيه في آن، إخبارهم بوفاة الرسول، وتنبيههم ألا ينسوا أن الله حي لا يموت، وفيه معنى من التوبيخ موجها لهم، وفي خطابه استدلال آخر على المعنى غير المباشر، وهو عدم الحَيدة عن تعاليم الدين الإسلامي وما جاء به الرسول الأكرم، وإلا كان عقابهم عسيرا، وفي باطن كلامه معنى من التهديد والتحذير.

أما المثال الخامس؛ أعني خطبة الأعرابي، فقد انفتحت دلالته لوقوع معنيين تحتها، يتشكل في البنية العميقة تشكلا محتملا، يخالف المسوغات السابقة الذكر، ومسوغه استجابة المتكلم لمن هو أعلى منه مقاما، لئلا يجد عقابا يلحقه، فنستطيع القول إنه جاء "استجابة للخوف"[1]، وتمثلا لأوامر الأمير المذكور اسمه، وهذا استدعى قيام الرياشي بخطبته هذه، وربما قال قوله لغاية في نفس يعقوب! وهو الحصول على ولاء الأمير، ونيله مكانة مرموقة في كنف رعايته وحمايته، والتأويلان لا يتدافعان، بل كل منهما يفضي إلى الآخر.

وزبدة القول فيما قيل سابقا في الأمثلة المقتبسة من نصوص الخطب أن ظاهر لفظها خالف معناها في جوف الناطق بها، فمقصده دلت عليه قرائن عدة، اختلف المراد فيها من جهة توبيخ أو تهديد أو تأديب وغير هذا، وقد أسهم السياق في تباينها وفهمها على وجهها المراد، وما كان ذلك كذلك لولا الرجوع إليه، وأخذه بعين الاعتبار.

ب-<u>الأساليب الإنشائية</u>

وهذه الأفعال الإنجازية غير المباشرة قد تأتي على صورة الأساليب الإنشائية، ونبدأ بالقسم الأول من الإنشاء، وهو الطلبي، وأهم أنواعه: النهي، والاستفهام، والتمني، والنداء[2]، وستتناول الباحثة منها:

---

[1] علي محمود الصراف، في البراجماتية، ١٣٦.

[2] انظر: عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ط١، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٩م، ٧٠-٧١، والإنشاء الطلبي هو ما يستلزم مطلوبا ما حصل وقت الطلب، وله أنواع أخر غير المذكورة، وهي: الأمر، والترجي، وغيرها، ويقابله الإنشاء غير الطلبي وهو ما لا يستلزم مطلوبا لم يحصل وقت الطلب، وهو في الأصل أخبار أخذت معنى الإنشاء، ومنه أفعال التعجب والمقاربة، والمدح والذم، والقسم، ورُبَّ، وصيغ العقود، وكم الخبرية وغيرها؛ انظر: عبد السلام هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي،١٣-١٤.

١- **النهي:** وهو "طلب الكف عن الفعل، أو الامتناع عنه، على وجه الاستعلاء والإلزام"[١]، ويخص بحرف واحد لا غير، وهو لا الجازم[٢]، نحو قول الرياشي:

- **"فخُذُوا لِمَقَرّكم من مَمَرّكم، ولا تَهتكوا أستارَكم[٣] عندَ مَنْ لا تَخْفَى عليه أسرارُكم".**

إن قوله قد تضمن نهيا حقيقيا، خاطبهم من خلاله على وجه الاستعلاء والإلزام؛ لأن الله لا تخفى عليه ذرة من أعمالهم الظاهرة والباطنة، وكيف لا وهو أقرب إليهم من حبل الوريد! وجاء الرياشي بالنهي مسبوقا بالأمر، وكلاهما يشكل قوة للخطاب يعطيها المتكلم لنصه ليؤكد أهمية المنهي عنه، وهذا ظاهر الأمر، ولو أمعنا في التأويل لوجدنا معناه الظاهر أنه يريد الخير لهم، والحقيقة هو استخدام النصح والإرشاد في مقر الوصول إلى غاية ما يريد استهدافها من خطابه، والوصول إليها من خلالهم.

٢- **الاستفهام:** يختص الاستفهام بطلب حصول التصور أو التصديق، أو حصول تصور في كل منهما على حدة[٤]، وأدواته هي: " الهمزة، وأم، وهل، وما، ومن، وأي، وكم، وكيف، وأين، وأنّى، ومتى، وأيان"[٥]، " ويتحقق الاستفهام المباشر بعدم خروجه عن معناه الأصلي الذي وضع له[٦]، ومن أمثلته:

- **فقال أبو بكرٍ: أوَكُلّكُمْ رَأيُهُ على هذا؟ فقلنا نعم! فقال: والله لَأنْ أَخِرَّ من السماء فَتَخطفَنِي الطيرُ أحَبُّ إليَّ من أن يكون هذا رأيي!".**

هذا السياق مأخوذ من حوار جرى بين الصحابة وأبي بكر كما تقدم في نص خطبة عمر بن الخطاب، وهو يستفتيهم ليعرف رأيهم طلبا للنصيحة والاستشارة في اقتراح قيام الحرب على المرتدين؛ فكان سؤال أبي بكر لهم إن كانوا موافقين جميعهم عليه؟ فكان ردهم "نعم"، وهذا سؤال حقيقي مباشر، وإجابته أيضا مباشرة، فأدرك المتكلم حقيقة ما يستفهم عليه من المتلقي،

---

[١] عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ٨٣.

[٢] انظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ٣٢٠.

[٣] لا تهتكوا أستاركم؛ أي لا تفضحوا أنفسكم، فيطلع الله على مساوئكم، وهو الأعلم بما تسرون وتعلنون، انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "هَتَكَ".

[٤] انظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ٣٠٨، وحصول التصور في كل منهما على حدة أقصد بها تصديق أمر ما فقط، أو تصور أمر ما فقط.

[٥] السكاكي، مفتاح العلوم، ٣٠٨.

[٦] انظر: علي محمود الصرّاف، في البراجماتية، ١١٣.

وتأكد من إجابتهم عليه، وقد فهم قصدهم ومرادهم، وبهذا الاستفهام الذي جرى بين عنصري الخطاب تتحقق القصدية في معناها بفهم منشئ الخطاب الاستفهامي مراد المتلقي[١]، ولكن لو تمعنا في السياق الذي جاء فيه السؤال لوجدنا نوعا من التقريع والتعجيب يوجهه لهم أبو بكر الصديق على تركهم محاربة المرتدين، واختيارهم أن يقفوا موقف الشاهد المتطلع لأفعال المرتدين دون أدنى حراك أو ردة فعل، فهو متعجب من حالهم قبل إجابتهم، والشاهد على ذلك بداية خطبته وإعطاؤه درسا لهم بقوله: " من كان يعبد محمدا فإن محمد قد مات"، وهو المعروف عنه بالصادق الأمين لرسول الله، والذي ما فارقه، وكان عونا وناصرا له، فهل يعقل أن يتحمل موته، وينطق بما قاله عنه؟! إن الاستفهام بعد تلكم التجلية لا يوضع إلا موضع الأفعال الإنجازية غير المباشرة.

٣- **الأمر**: للأمر حرف يقترن بالفعل المضارع المجزوم وهو لام الجازم، والأظهر أنه يأتي على سبيل الاستعلاء، للإتيان بالمطلوب على وجهه، فالفعل واجب العمل به من المأمور، فيفيد الوجوب، وإلا فقد جيء به من باب الطلب لا غير، وبحسب المقام تولد قرائن الأحوال لتدلل على استعمالاتها من التماس أو دعاء أو إباحة أو تهديد[٢]، ولننظر معًا في هذه الأمثلة:

- **"إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يقاتلُ العربَ بالوحْيِ والملائكةِ يُمِدُّهُ الله بهم، وقد انقطع ذلك اليومَ، فالزَمْ بيتَك ومسجدَك".**
- **"فَلْيَكُنْ أَحدُكم مِنْ ذنبِهِ على وَجَلٍ، ومن ربّهِ على أمَلٍ".**

في المثال الأول أفادت صيغة الأمر "الزم" معنى الأمر الحقيقي بأن يلزم بيته ومسجده دعاء لهم بالهداية، أو لتجنب قتالهم، وقد انتقلت إلى دلالة أخرى لإنجاز فعل غير مباشر، يدل على النصح والإرشاد الموجه من الصحابة إلى الخليفة أثناء مشاورته إياهم في قتال المرتدين عن دفع الزكاة، ويقصدون بالأمر أن يمتنع عن قتالهم، ومجاراتهم، فمدد الرسول محمد ﷺ قد نفد، ولم يكن المقصد منه التقيد بمكان معين، وعدم مجاوزة حدوده.

وأما المثال الثاني الذي قاله عمر بن عبد العزيز، حمل فيه الأمر معنى الاستعلاء، ولكن الحقيقة ما جاء الأمر منه على هذا الوجه، وما نلبث أن نجد له وجها آخر، التحول من

---

[١] راجع الفصل الأول مبحث التداولية وما قيل في مفهوم القصدية عند التداوليين وعلماء العرب القدماء.

[٢] انظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ٣١٨-٣١٩.

غرض الاستعلاء أو النصح والإرشاد إلى دلالة الخوف[1]، "إن حدوث الاختلال والخَرق في شروط فعل الأمر بصورته المباشرة يؤدي إلى إنجاز فعل آخر بصورة غير مباشرة"[2]، وكأنه يأمر نفسه من خلالهم، ويبدو أن كلام صاحبه أثر فيه، حتى أعاده تذكرة له، فهنا يأمر المتكلم المتلقي ليجد طلبه، وكأن الأمر خاص بذات المتكلم، يأمرها أمرا، وهذا أسمى معاني الجهاد الأكبر، ألا وهو مخالفة النفس، وتذكيرها بالآخرة، فقال: "أيّها الناسُ، قد علمتم أنَّ أبَاكُم أُخْرِجَ من الجنة بذنب واحدٍ، وأنَّ ربَّكم وَعَدَ على التوبة، فَلْيَكُنْ أَحدُكم مِنْ ذنبِهِ على وَجَلٍ، ومن ربِّهِ على أمَلٍ"، ونستشهد على ما وصلنا إليه بحديث جرى بينه وبين صاحب له:

"قال: حدثنا النضر بن زرارة، عن الثقة، قال: كان لعمر بن عبد العزيز أخ، وأخوه في الله سبحانه عبد مملوك يقال له سالم، فلما استخلف، دعاه ذات يوم فأتاه، فقال له: يا سالم إني أخاف ألا أنجو. قال: إن كنت تخاف فنعما، لكني أخاف عليك ألا تخاف، قال سالم: إن الله أسكن عبدا دارا، فأذنب فيها ذنبا واحدًا، فأخرجه من تلك الدار، فنحن أصحاب ذنوب كثيرة نريد أن نسكن تلك الدار؟"[3]

والمثالان مثلا صورة الأفعال الإنجازية المباشرة عند إلقاء النظرة الأولى عليهما، حتى ما برحت أن كشفت عن معناها الحقيقي المختبئ في أعماق بنيتها المكونة لها، ظاهرة بهيئة الأفعال الإنجازية غير المباشرة، وقد أرشدنا إلى ذلك السّياق، فعليه المعول، وعليه مدار الكلام كله.

ب- التداولية الكبرى

إن التداولية الكبرى تكمن أهميتها في دراسة فعل الإنجاز الشامل لجميع الأفعال الإنجازية الصغرى، إذ يقوم بشملها تحت جناحيه ليخرج بعنوان رئيس، صلته وعلاقته الكبرى تكون مع بنية الخطاب الصغرى، فهو يتعامل معها لينتج عنوانا شاملا كليا للفعل التواصلي الإنجازي ليجد البنية الكلية الكبرى للفعل المشترك الإنجازي (التواصلي)[4]، وهو "ينجز بواسطة متوالية

---

[1] انظر لمزيد بسط القول في تحول دلالات الأمر من معناها المتعاهد عليه إلى معان أخر تنجز من خلال الأفعال الإنجازية غير المباشرة: علي محمود الصراف، في البراجماتية، ١٧١-١٨٠.

[2] علي محمود الصراف، في البراجماتية، ١٧٩.

[3] ابن الجوزي، المناقب، ١٦٥.

[4] انظر: فان دايك، النص والسياق، ٣٠٩-٣١٠.

من الأفعال الكلامية يجوز أن نطلق عليه الفعل الكلامي الشامل، أو الفعل الكلامي الكلي"[١]، الذي يمكن استنتاجه من أفعال إنجازية مباشرة نتوصل من خلالها إلى الأفعال غير المباشرة، وتتكون الخطبة الأولى من إيماءات بنية عنوان النص الخارجية وأخرى إيماءات داخلية[٢]، وهذه التقسيمة للبنى الكبرى للنص قد تسهم في إظهار العنوان العام الذي يشمل تلكم التقسيمات في أفعاله الإنجازية، وهذا الكلام يحتاج إلى فضل بيان، يوضحه المخطط هذا:

الجملة مفردة	الفعل الكلامي في تقسيمة البنى الكبرى
الحمدُ لله الذي جعلَنا من ذرية إبراهيم وَزَرْعِ إسماعيلَ	**أفعال تمهيدية**
وجعلَ لنا بلدًا حرامًا وبيتًا محجوبًا	
وجعلنا الحُكّامَ على الناس	
إنَّ محمدَ بنَ عبدِ الله بنَ أخي مَنْ لا يُوازَنُ به فتًى من قريشٍ إلا رَجَحَ به بِرًّا وَفَضْلا وَكَرَمًا وعقلا ومَجْدًا ونُبْلا	**أفعال صلب الموضوع**
وإنْ كانَ في المالِ قُلٌّ فإنّما المالُ ظِلٌّ زائلٌ وَعاريةٌ مُسْتَرْجَعَةٌ	
وله في خُوَيلدٍ رغبةٌ، ولها فيه مثلُ ذلك	
وما أَحْبَبتُم مِنَ الصَّداقِ فَعَلَيَّ	

[١] فان دايك، النص والسياق، ٣١٦.

[٢] سماها فان دايك بالأفعال التمهيدية (الفعل التمهيدي أو المساعد)، والأفعال ضرورية الوجوب أو راجحة الاختيار أو أفعال مكونة، انظر: فان دايك، النص والسياق، ٣١١-٣١٤. والباحثة اعتمدت تسميته للأولى، وجنحت إلى تسمية الثانية أفعال صلب الموضوع، وهي التي تومئ بمقصد المتكلم من الخطاب.

يتكون هذا الخطاب من بداية تمهيدية رسمت على البنية السطحية، ومن موضوع أساس اتضح وتبيّن في تعاريج البنية العميقة، وعند تلاقي البنيتين نجد رابطا بينهما يومئ ببنية عنوان النص الشامل لهما، لنستشف عنوانًا عريضا، في قعره تنكمش البنيتان لتشكّل البنى الكبرى للنص الخطابي، ويعرف العنصر الجوهري في النص كله، مما أنتجته الأفعال الكلامية التداولية، وفي هذه الخِطبة تنوعت أفعال الكلام كإظهار الحمد، والإثبات، والتأكيد والإخبار، إلا أن هذه الوظائف كلها من متواليات أفعال الكلام المذكورة في الخطاب الفردي الذي قام به عم الرسول، ترد إلى طلب يد خديجة، وخطبتها للرسول، وبذلك قد وصلنا إلى عنوان لخُطبة عم الرسول وهو "الخِطبَةُ"، ولو شاء المرء أن يتوصل للعنوان على عجالة، أو ما يطلق عليه بالبنى الكبرى المنتجة لفعل كلامي كلي، فباستطاعته اختزال أفعال الكلام، بدءا بالأفعال التمهيدية بأكملها، ومرورا بالأفعال التي تصب في الموضوع، كالصفات التي يتمتع بها الرسول الأكرم محمد ﷺ، حتى يصل إلى القضية الجوهرية من غاية المتكلم من إنشاء كل هذا الخطاب، وهي: "وله في خُوَيلدٍ رغبةٌ، ولها فيه مثلُ ذلك"، وباستطاعة المرء أن يسمي ما قام باختزاله من أفعال كلامية حتى يتوصل إلى مقصد المتكلم بالأفعال "ذات الصبغة او اللياقة التحسينية"[١] وهي التي تجعل تقديم الطلب وتحديد القضية يجريان على خطوات سرعان ما تتشكل حسب الموقف الخطابي وحسب الظروف[٢].

والذي ساعدنا في تحليل البنى بنوعيها فضلا عن الوصول إلى البنى الكبرى، أن الخطب كانت متماسكة مترابطة من ناحية متواليات الجمل، وكذلك متواليات أفعال الكلام، ولا يخفى على القارئ أن أصحاب الخطب أصحاب لسان عربي مبين، لسان قرشي ناطق بالعربية، عالم بخفايا اللغة باطنها وظاهرها، وما تحويه من أسرار، غير أن لكلامهم تأثيرًا خفيًّا على المتلقي، فلا عجب إذن من تماسك النص، وعدم وجود فجوات تنتج عن تعارض أفكار المتكلم، وظهور خلل مفاجئ لا يحْسُنُ سماعه.

وملخص ما ذكر آنفا أن الاهتداء إلى عنوان ينجز من خلاله مقصد المتكلم، ما هو إلا أفعال جزئية عززت القيام بإنجاز الفعل الرئيس الذي من أجله ألقي الخطاب على السامعين، وهو "الخِطبة" من خلال بنى كبرى أنجزت بطرق غير مباشرة باشتمالها على وحدات من

---

[١] فان دايك، النص والسياق، ٣١٩.

[٢] انظر: فان دايك، النص والسياق، ٣١٩.

الأفعال المتتالية[1]، وهذا ينطبق على بقية الخطب أثناء التحليل حتى نصل إلى بنيتها الكبرى التي تتمحور حولها، وتدور في مدارها، فالخطبة الثانية المشتملة على خطبتين تتشكلان في نهاية المطاف من أفعال إنجازية غير مباشرة من البنى الكبرى غرضها التوبيخ والتعجيب، وتقديم نقد لاذع للمتلقي، أما الخطبة الثالثة فتتعلق بذم سلوكيات الرعية، وذم حراكهم من أجل دار فانية أنستهم دار القرار، أما الخطبة الرابعة والأخيرة فتتعلق بوضع اجتماعي سياسي معين في زمن الثورات وحصول الفتن، فاختار لها موضوعا يصرفهم فيه عن شؤون الحكم، فالآخرة أولى باهتمامهم من دنياهم، مصداقا لقول الحق: ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾[2].

ولا ننسى في هذه الجزئية أن نضيف أن البنى الكبرى تعتمد على "مجموعة من المقاييس تساعد على تأويله بصورته غير المباشرة"[3] ومنها الصور البيانية التي يسلك مسالكها المتكلم محاولة منه "الانحراف بالمعنى العرفي للكلمة إلى معانٍ أخرى فنية بيانية تسمى المعاني المجازية كالتشبيه والاستعارة والمجاز المرسل"[4]، تتولد منها الأفعال الكلامية غير المباشرة، ونضرب أمثلة عليها:

أ- التشبيه

- فإنّما المالُ ظِلٌّ زائلٌ وَعاريّةٌ مُسْترْجَعَةٌ.
- إنَّما الدنيا أَمَلٌ مُخْتَرَمٌ، وَأَجَلٌ مُنْتَقَصٌ، وبَلاغٌ إلى دارٍ غيرِها، وسَيْرٌ إلى الموتِ ليس فيه تَعْرِيجٌ.

ب- الاستعارة

- إنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقاتلُ العربَ بالوحْيِ والملائكةِ يُمِدُّهُ الله بهم، وقد انقطع ذلك اليومَ.

---

[1] انظر: علي محمود الصرّاف، في البراجماتية، ١١٩، ١٤٣.

[2] الآية (غافر،٣٩).

[3] علي محمود الصراف، في البراجماتية، ١٤٤.

[4] تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ٣٢٠.

- فَرَحِمَ الله امْرَأً فَكَّرَ في أمرِه، ونَصَحَ لنفسِه، وراقَبَ ربَّه، واسْتقالَ ذَنْبَه.

ج- الكناية

- الحمدُ لله الذي جعلَنا من ذرية إبراهيم وَزَرْعِ إسماعيلَ، وجعلَ لنا بلدًا حرامًا وبيتًا محجوبًا، وجعلنا الحُكّامَ على الناس.

إنّ الأمثلة السابقة في أنواعها الثلاثة تقدم أفعالا إنجازية غير مباشرة بعلاقة متواشجة بينهما، تظهر على هيئة وسيلة يعبّر من خلالها عن المديح والفخر والنسب الراقي والنصح والإرشاد والفناء والانتهاء، فقول عمر بن عبد العزيز "استقال ذنبه" ليس المقصد منها المعنى الظاهر، وهو الابتعاد عن الذنب، بل المقصد أبعد من ذلك، وهو التعلق بالآخرة ونسيان الدنيا تماما، وهو أشبه بمن قدم استقالة لمديره، فما عاد قائما على رأس عمله، فتجده يبحث عن وظيفة غيرها، والإنسان في حال تركه لذنبه والتوبة عن الرجوع إليه، يتعلق قلبه بأنوار الآخرة، فما عاد يرى غيرها، وهذا ما ورد عن السكاكي[1] في قوله: " كلما كانت الكلمة استعارة كانت مفتقرة إلى نصب دلالة، وكلما كانت الكلمة مستعملة لغير معناها، رومًا للمبالغة في التشبيه، كانت استعارة، فيحصل: قد تكون إذا كانت الكلمة مفتقرة إلى نصب دلالة أن تكون مستعملة لغير معناها"[2].

المبحث الثالث: مجالات الأفعال الكلامية الإنجازية

تناول سيرل مجالات خاصة بالفعل الكلامي الإنجازي[3] يمكننا من خلالها معرفة المجال الذي ينتمي له الفعل، وملاحظة أبعاده المحيطة به، فيكون سيرل بهذا التصنيف قد خصص

---

[1] هو يوسف بن أبي بكر أبو يعقوب (٦٢٦هـ)، لقب بالسكاكي نسبة إلى مهنة الحدادة التي كان أهله يحترفونها، وهو من أهل بلدة خوارزم، إمام في العربية وعلومها، متحدث بليغ، فقيه في علوم شتى، وله تصنيف عظيم سماه " مفتاح العلوم"، انظر: الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (٦٢٦هـ)، معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق إحسان عباس، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م، ٢٨٤٦/٦.

[2] السكاكي، مفتاح العلوم، ٤٩٧.

[3] لمزيد بسط القول في تلكم الأبعاد شرحا تفصيليا وأمثلة توضيحية، انظر: علي محمود الصرّاف، في البراجماتية، ٥٦-٦٠.

أنواع الأفعال الإنجازية إلى تخصيص أكثر دقة يوضح من خلاله المجال الذي ينتمي له الفعل الكلامي الإنجازي، وقد صنفها تصنيفات خمسة: الإخباريات، والإعلانيات، والالتزاميات، والتعبيريات، والتوجيهيات، وتقوم هذه التصنيفات على مقومات، وهي: الغرض الإنجازي، واتجاه المطابقة بين القول والعالم، وشرط الإخلاص، وقوة الغرض الإنجازي، والعنصر المهم في إظهار كل ما سبق ألا وهو السياق، لأن الأفعال الإنجازية غير المباشرة تعتمد اعتمادًا أساسيّا على السياق، "لذلك فإن الأدائيات غير الصريحة تعتمد اعتمادا أساسيا على السياق، إذ به تكون إنجازية أو لا تكون، وينطبق هذا على الصريح والأولي[١]، مع التقرير بأن إدراك الأدائيات الصريحة أيسر؛ لأنها تعلن عن نفسها في كل سياق تقال فيه"[٢]، وستقوم الباحثة بإبانتها وكشف اللثام عن كل خطبة على النحو الآتي:

---

[١] هذه التجزئة تعود لأوستن، أطلقها حينما صنف الأفعال الكلامية إلى صنفين: الصيغة الأصلية (ومن مسمياتها الأولية أو الابتدائية)، ويقابها الصيغة الصريحة؛ ونمثل عليهما بقولنا " سأتواجد عندك "، و"أعدك أني سأتواجد عندك"، فالعبارة الأولى ابتدائية أولية لأن الإنشاء فيها يحتمل التأويل، فليس معروفا عندنا ما المقصد من عبارتها، وإن كان وعدا بالتواجد أم لا، وهلم جرا من التأويلات، أما العبارة الثانية فالصيغة الإنشائية فيها صريحة بلفظها "أعدك"، ويضعف فيها الاحتمالات والتأويلات، والغاية من هذا التصنيف التمييز بين الفعل الإنجازي وغيره؛ وأعني بقولي" وغيره " كأن أوجه سؤالا لزميلتي: متى تبدأ حفلة رانيا؟ وأنا لست مدعوة إليها، وتجيب: تبدأ الساعة الواحدة، وسأكون هناك تمام الرابعة عصرا، فجوابها لا يعني لي شيئا، لأنه لن يفيدني متى تكون هناك، فانا لست من المدعوات والمتواجدات فيها، والسياق دل على ذاك. وقد يسأل سائل أيهما يفضل أوستن من الصنفين في أداء الفعل الإنجازي؟ والإجابة تكون: أنه فضل الصريحة على الأصلية لوضوحها للمتلقي وتعبيرها بشكل مباشر عن الفعل الإنجازي فيها، وضعف التأويل فيها، وقد قدم نقدا لتصنيفه يوحي بعدم رضائه وقَبوله وقناعته في اكتمال الصورة عنده لهذا التصنيف، ومن بين الانتقادات التي قدمها أنه يصعب أحيانا معرفة نوع الجملة لأي صنف تنتمي، فالظروف الاجتماعية تحتكم السياق والعرف الاجتماعي، وكذلك عناصر الخطاب والمحيط بها، ولغة الجسد، وظروف الزمان والمكان وصيغة الخطاب وغيرها توجب الرجوع إليها للاقتراب من صحة أخذنا القرار في نوعية الصنف الذي ينتمي له الفعل الإنجازي. انظر: أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة: كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١م، ٨٦-٩٠، ومحمود نحلة، آفاق جديدة،٦٧، ولمزيد بسط القول انظر: صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي، ١٦٢-١٦٧.

[٢] محمود نحلة، آفاق جديدة، ٦٧.

الخطبة الأولى

١- الغرض الإنجازي[١]: نوعه إخباريات، حيث تضمنت البنية العميقة للخطاب، وأَدْلَتْ بمعناها على إنجاز الإخبار، وفي غرضها الإنجازي يريد المتكلم تقديم معلومات للمتلقي، وهذا ما قام به أبو طالب لتأكيد المعلومات الموجودة عند المتلقي عن الرسول، وإزالة الشك عنه، لقبول الرسول ﷺ زوجا لخديجة.

٢- اتجاه المطابقة بين القول والعالم: يتحقق نجاح إنجاز الفعل الكلامي حينما يتطابق المحتوى القضوي مع الواقع وما يحدث فيه من وقائع وأحداث، وهنا يخبرنا أبو طالب صفاتٍ يتحلى بها من جهة النسب، وصفاتٍ يتحلى بها الرسول ﷺ، فاتجاهه على هذه الحالة من القول إلى العالم.

٣- شرط الإخلاص: وهو شرط مهم لتحقيق النجاح للفعل الإنجازي، ومرتبط بالحالة النفسية المعبّر عنها خلال النطق بذاك الفعل، وأبو طالب تكفل بالرسول وتعهد بصدق ما يقوله عنه، وتعبيره عن الاعتقاد الذي يحمله في نفسه لابن أخيه محمدٍ رسول الله، بفخر به وفيه، وكان مدحا له وعليه.

٤- القوة الإنجازية: الفعل الإنجازي يختلف في قوته، وهو يقوم بتحقيق الغرض الإنجازي، فالطريقة التي عُبر عنها بالغرض لم تأتِ دفعة واحدة، بل جاءت على شكل تمهيد ثم تدليل ثم إعلام برغبة الرسول وخديجة في الزواج، فقوة الغرض اختلفت في الأفعال الإنجازية، حيث تصاعدت حتى وصلت إلى التصريح بالمراد، فجاء بلفظة "رغبة" ليمثل قوة للفعل المنجز، ويمكن الاستدلال على ذلك عن طريق المعنى المعجمي الذي يحيطها، وهو إرادة الزواج المبنية على موافقة الطرفين: ابن أخيه وخديجة[٢]، فاستخدامه إياها تفوق القوة الإنجازية لِلَفظةٍ أخرى، فطالما حدثت الإرادة على وعي وإدراك فلا بد أن يقتنع أهل الطرفين بعقد الزواج.

الخطبة الثانية

١- الغرض الإنجازي: مجاله إخباريات؛ حيث وصف ابن الخطاب ما حصل في الواقع كما جاء على وجهه.

---

[١] الغرض الإنجازي يؤدي وظيفة تمتاز بدرجة قوتها، فالقوة الإنجازية تلعب دورا كبيرا في إعطاء الغرض الإنجازي درجة عالية أو منخفضة للفعل الإنجازي المنطوق، وعليه يكون الغرض الإنجازي جزءا من القوة الإنجازية، التي تتأتى للقارئ من خلال فهمه المعنى الدلالي والوظيفي للمنطوق، وكذلك فهم السياق؛ انظر: علي محمود الصراف، في البراجماتية، ٢٦٧-٢٦٨.

[٢] انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "رَغِبَ".

٢- اتجاه المطابقة بين القول والعالم: من القول إلى العالم؛ حيث تطابق ما قاله ابن الخطاب مع ما جرى في الواقع مع الصديق.

٣- شرط الإخلاص: تحقق الصدق وكذلك الأمانة في النقل، فخطبة عمر تتطابق مع خطبة أبي بكر كما قالها في حينها[١].

٤- القوة الإنجازية: إن سلطة المتكلم؛ أعني ابن الخطاب والمنفعة العائدة عليه بابتعاد الناس عن القول بالأفضلية بينه وبين أبي بكر، وإتيانه بالدليل والشاهد على ما يقوله، كل ذلك يؤيد المضمون والمحتوى القضوي، وهو ما ورد عن أبي بكر الصديق، وأيضا إن مجال إخباره هذا أكد للمتلقي موقفه من الصديق، فأكد الخبر ووصفه من خلال كلامه، والخبر يحمل قوة إنجازية لأنه مرتبط بدليل واقعي دعم ما جاء فيه.

الخطبة الثالثة

١- الغرض الإنجازي: دار في فلك مجالين اثنين: أولهما المجال التعبيري، وثانيها المجال الالتزاميّ، أما الأول فقد قسمه سيرل قسمين: التعبيريات الاجتماعية، والتعبيريات النفسية، وما ينطبق على هذه الخطبة هي التعبيريات الاجتماعية التي تتعلق بوجدان المتكلم، وتضم مشاعره وأحاسيسه، وتشرك عادة المتلقي في الخطاب بخلاف التعبيريات النفسية التي تعبر عن الحالة النفسية للمتكلم وليس من شروطها مشاركة المتلقي في الخطاب[٢]؛ إذ عبر الصدّيق عن موقفه بنبرة حادة تحتوي على الغضب بحَمِيَّة للدين الإسلامي، أما ثانيها المشتمل على المجال الالتزاميّ فارتأيناه لأن الصديق ألزم نفسه بفعل شيء ما، وصمم على القيام به، باستخدام القسم (والله) فأشار القسم أولا إلى صدق المتكلم، وثانيا أعطى المتلقي ثقة في المتكلم، لا سيما والقسم ارتبط بذات الله تعالى، وهذا المجال الأخير هو مَن أعطى قوة للتعبيريات، التي لا تخرج عن كونها مجرد تعبير عن شعور، ولا يترتب عليها التزامات على المتكلم أو المتلقي أن يقوما بها بخلاف الالتزاميات القائمة هنا على الوعد؛ إذ تحتل "المرتبة الوسطى بين المجالات في قوته الإنجازية؛ حيث يترتب على إنجاز أفعال هذا المجال التزام الإنسان بأمور معينة تجاه الآخرين"[٣].

---

[١] انظر خطبة أبي بكر الصديق في المرتدين: المبرد، الكامل، ٥٠٧/٢.

[٢] انظر: علي محمود الصراف، في البراجماتية، ٢١٤.

[٣] علي محمود الصراف، في البراجماتية، ٢٧٢.

٢- اتجاه المطابقة بين القول والعالم: اتجاه المطابقة في مجال التعبيريات فارغ، إذ يقع القول مع افتراض حصول المطابقة مسبقا، أما الالتزاميات فاتجاه المطابقة فيها من العالم إلى القول؛ ولنجاحها يجب أن يتحقق تغير ملموس بالعالم ليطابق المحتوى القضوي المتضمن في القول، وهذا ما ينطبق على نص خطبة أبي بكر الصديق.

٣- شرط الإخلاص: عنصر مهم في التعبيريات أن يكون المخاطب مخلصا في التعبير عن حالته النفسية تجاه الواقع، وكذلك الالتزاميات شرطها اتصاف القول بالصدق، لتتحقق الرغبة الصادقة بالالتزام به.

٤- القوة الإنجازية: عبّر أبو بكر عن موقفه من موت الرسول ﷺ ومن المرتدين بكل قوة في خطاب وِجاهي، مع أن الموقف يستدعي الانهيار منه على فقده الرسول ﷺ، وقد أعطى موقفه قوة إنجازية بعهد ألزمه على نفسه باستخدامه القسم بلفظ الجلالة، فالقسم هنا "ليس مجرد وعد بالمحافظة على الشيء أو فعله، بل هو عهد التزامي له رباط مقدّس في الدين الإسلامي مع الله، فالحنث بالقسم يترتب عليه إثم يعاقب عليه الإنسان"[١]، فكيف إن خرج من في أطهر خلق الله، وأحب أحباب رسول الله، ذاك الصادق الأمين، قوله الحق، وفعله الحق، ووعده الحق!

الخطبة الرابعة

١- الغرض الإنجازي: مجاله مجالان، أحدهما الإخباريات، والآخر التوجيهيات، أما الإخباريات فلأنها تتطلب النظر من المتلقي للدنيا بعين فكرٍ، واستحضاره الآخرة في كل حين، وأما التوجيهيات فلأن استخدام عمر بن عبد العزيز الأمر تضمن معنى النصح والإرشاد في قوله: فليكن أحدهم على ذنبه في وجل...

٢- اتجاه المطابقة بين القول والعالم: في الإخباريات كان اتجاهها من القول إلى العالم، لأنه يتحقق في تطابق المحتوى القضوي المتضمن في القول مع العالم، وفي التوجيهيات تطابقها من العالم إلى القول، ويتحقق بتغير العالم ليطابق المحتوى القضوي للقول.

٣- شرط الإخلاص: كلا المجالين: التعبيريات والتوجيهيات يشترك في شرطه الذي ينص على اتصاف القول بالصدق والنقل بأمانة كما هو، دون أن يحصل أي تغيير عليه.

٤- القوة الإنجازية: استخدام ابن عبد العزيز الأمر المؤدي غرض النصح والإرشاد، وزاده قوةً إنجازيةً التكرارُ، فقد كرر لفظة "الذنب" ليؤكدها، وأنها السبب الرئيس في نسيان الآخرة، وما لجأ إليه

---

[١] علي محمود الصراف، في البراجماتية، ٢٧١.

سدى إلا لأنه يعرف في قرارة نفسه أن "الشيء إذا تكرّر تقرّر"[1]، فعزز من زيادة قوة المنطوق في التعبير عن المقصد.

الخطبة الخامسة

١- الغرض الإنجازي: مجاله الإخباريات، وأيضا التوجيهيات، فالأول أخبر فيه الرياشي بما أملته عليه سلطة الأمير جعفر بن سليمان أن يؤديه قولا في خطبته، وفيها معنى التحكم بضبط حركة الشعب للسيطرة عليه من خلال غض البصر عما يجري في الحكم، والمجال الثاني احتوى على توجيهيات لإفادة قوله الأخير معنى الدعاء " أستغفر الله ... "، فهو يدعو له وللمتلقي وللخليفة وللأمير.

٢- اتجاه المطابقة بين القول والعالم: في الإخباريات كانت من القول إلى العالم، وتتحقق في تطابق المحتوى القضوي المتضمن في القول مع العالم، أما التوجيهيات فمن العالم إلى القول، وتتحقق بتغير العالم ليطابق المحتوى القضوي للقول.

٣- شرط الإخلاص: كلاهما يحتاج للإخلاص في القول، واتصافه بالصدق والأمانة في نقله كما هو في الواقع.

٤- القوة الإنجازية: خروج فعل الأمر "خذوا" من دلالته المعهودة على الأمر إلى دلالة النصح والإرشاد، وجاء بعده النهي " ولا تهتكوا .." أعطى قوة للمنطوق فاقت دلالة الأمر بنصح وإرشاد، وتجاوزتها إلى معنى أعلى في شدة قوته الإنجازية بنهي عن القيام بفعل ما.

---

[1] علي محمود الصراف، في البراجماتية، ٢٧٧.

الاستلزام الحواري

- تقديم
- مظاهر خرق قواعد مبدأ التعاون في خطبة:

- **عمر بن الخطاب**
- **زياد بن أبيه ورد مرداس عليها**
- **عبد الله بن الزبير**
- **المهلب بن أبي صفرة**
- **داود بن علي**

الاستلزام الحواري

تقديمٌ

اعتمد جرايس في وصف ظاهرة الاستلزام الحواري على مبدأ حواري، أسماه "مبدأ التعاون" مضماره التعاون بين طرفي الخطاب لإنجاح عملية الاتصال والتواصل، يقوم على قواعد أربع: مبدأ الكم، والكيف، والمناسبة، والطريقة، ترمي إلى ضبط مسار الحوار حتى بلوغ المقصد منه.

والذي يخص هذه الجزئية من المباحثة العدول عن إحدى تلكم القواعد المتفرعة من مبدأ التعاون، التي تفضي إلى نقل المعنى الظاهر للخطاب إلى معنى خفي يوضع تحت مسمى "الاستلزام الحواري"، يعطي المتكلم قدرة على الإخبار بمقصده بأكثر مما يقوله من كلام متوافر في نصه الخطابي[1]، وبما أن الاستلزام عموده الحوار بين المتكلم والمخاطب بقصد إيصال رسالة ما، فيتوجب الفيء إلى المعاني المحيطة بالسياق داخله وخارجه طلبا لتقديم علّة العلة، ومعنى المعنى في الوصول إلى أقرب دلالة يقصدها المتكلم.

وقد شرعت الباحثة في تلمس البواعث التي أفضت إلى خرق القواعد الأربع، والخروج عن مقتضاها في خمس خطب وقع عليها الاختيار من كتاب الكامل، لما يجمع عقدها من تباين في الموضوعات، وانتسابٍ إلى مضمار الاستلزام الحواري الذي سيجرى عليه التطبيق في هذا المقام، وهي:

- خطبة عمر بن الخطاب
- خطبة زياد بن أبيه ورد مرداس عليها
- خطبة عبد الله بن الزبير
- خطبة المهلب بن أبي صفرة
- خطبة داود بن علي

---

[1] انظر الفصل الأول مبحث التداولية، والعياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ١٧-١٩، ٩٧-١٠٤.

مظاهر خرق قواعد مبدأ التعاون

١- خطبة عمر بن الخطاب

" ومما يُؤْثَرُ من هذه الآداب ويُقَدَّمُ قولُ عمرَ بنِ الخطابِ _رحمه الله تعالى_ في أول خُطبة خَطَبها، حدَّثناهُ العُتْبيُّ قال: لم أرَ أقلَّ منها في اللفظ، ولا أكثرَ في المعنى، حمِد الله وهو أهلُه، وصلَّى على نبيِّه مُحَمّدٍ صلى الله عليه وسلّم ثُمَّ قال:

" أيّها الناس، إنّهُ واللهِ ما فيكُمْ أحَدٌ أقوَى عندي من الضَّعيفِ حتَّى آخُذَ الحقَّ لهُ، وَلا أضْعَفُ عندي مِنَ القَوِيِّ حتّى آخُذَ الحَقَّ مِنْهُ"[١].

١- خرق قاعدة الكم: وكمية الإضافة في المعلومة استخدام أداة التوكيد بإن ولفظ الجلالة القسم: (إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف ...)، وكان بمكنته أن يستغني عنهما لموقعه الاجتماعي بين الرعية، وفي خرقه حصل استلزام حواري غايته تأكيد كلامه، وقطع الشك عند السامع.

٢- خرق قاعدة الطريقة: هناك التباس في قول ابن الخطاب في تحديد القوي والضعيف، ولا يوجد قرائن كافية تظهر المعنى المقصود من كلامه، وأي فئة من الناس المقصودة، ولعل مرد ذلك في عدم تقديمه تفصيلات وافية عن القوي وعن الضعيف، وإيجازه كثيرا في الكلام، واستخدامه التعميم مع الكلمات المحلاة بأل بشكل غير صريح، لعل مرد ذلك إلى كون مقصده من كلامه أن يوجه لأي شخص يفكر بأكل الضعيف واستغلال تلك الصفة لصالحه، فيتجبر ويتسلط عليه، ويتعامل معه كالعبد، وهذا ينافي مبدأ الخطاب في التعامل مع الرعية، فرأى أن يقوّم الاعوجاج الذي يتوقعه أن يحدث.

---

[١] المبرد، الكامل، ١٨/١.

٢- خطبة زياد بن أبيه، ورد مرداس عليها[١]

"والله لآخُذَنَّ المُحْسنَ منكم بالمسيء، والحاضرَ بالغائبِ، والصّحيحَ بالسَّقيمِ، والمطيع بالعاصي؛ فقام إليه مرداسٌ فقال: قد سَمِعْنا ما قلتَ أيُّها الإنسانُ، وما هكذا ذَكر الله عزّ وجلّ عن نبيه إبراهيم _عليه السلام_، إذ يقولُ: (وإبراهيم الذي وفَّى. ألا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى. وأن ليسَ للإنسانِ إلا ما سَعَى. وأنَّ سَعيَهُ سوفَ يُرَى. ثم يُجْزَاهُ الجزاءَ الأوفى) وأنت تزعمُ أنَّك تَأخُذُ المُطِيعَ بالعاصي. ثم خرجَ في عَقِبِ هذا اليومِ"[٢]

وحدث الخرق في نص هذه الخطبة على النحو الآتي:

١- خرق قاعدة الكم: بدأ هذا الخرقُ بمخالفة الخطيب القولَ المتعارفَ عليه في بداية الخطبة، وهو حمد الله، والثناء عليه، حتى سمّيت خطبته البتراء[٣]؛ لمخالفته ما ران عليه الإلف الخطابي، وهذا يعطي إشارة للسامع على أهمية الخطبة وحدتها، مما جعل الخطيب يسقط الحمد، فلا يذكره، وثمة خرق آخر بالقاعدة عندما استخدم القسم، فبمكنته وهو يحتل منصبا رفيعا أن يكتفي بالقول: سيؤخذ المحسن بالمسيء، دون استخدامه لتوكيدين متتاليين في جملة واحدة، حيث قال: "والله لآخذن المحسن منكم بالمسيء..." فحدث الاستلزام الحواري، والهدف منه القطع الجازم في القول، فلا تأتي

---

[١] زياد قائد عسكري، عالم بالسياسة، أموي من دهاة العرب، تولى إمارة بلاد كِرْمان وفارس سنة ٣٩ هجري بأمر من علي بن أبي طالب، وولاه معاوية بن أبي سفيان البصرة سنة ٤٥هـ، فخطب فيهم خطبته البتراء، دون أن يحمد الله فيها، ونص الخطبة التي بين أيدينا جزء يسير من الخطبة البتراء، وفيها تحدث عن وجوب الطاعة للوالي وعن السياسة الأموية معهم، ووجه قوله للمتلقي بكل حدية وشدة، وأظهر جهوزيته لضرب الأعناق وسفك الدماء وإن كان المسفوك بريئا؛ انظر: ابن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ، ٢٤٩/٣، ٣٠٤-٣٠٦، ومرداس هو أبو بلال مرداس بن حدير الحنظلي، ويقال ابن أذية، من الخوارج، قال قوله هذا موجها لزياد بن أبيه بعد أن خطب خطبته البتراء، وحمل من لا ذنب له ذنب غيره، فيُقتل عند زياد البريءُ بذنب العاصي أو الخارج عن طاعته، فقال له أبو بلال إن الله أنبأ في كتابه غير ما جئت به من القول، وقرأ عليه آية النجم (٣٩)، وأظهر له كيف أنه خالف كلام الله؛ انظر: ابن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ، دار الفكر، ٣٠٦/٣.

[٢] المبرد، الكامل، ٣/ ١١٣٦.

[٣] انظر: حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٦م، ٣٦٢.

نسمة خاطر في فكر السامع أنه لن يفعل ذلك، وفي هذا دبّ للرعب في النفوس، وتخويف وترهيب للرعية.

٢- خرق قاعدة الكيف: قام الخطيب بخرقها بعدم إعطاء الدليل الدامغ على كلامه، فكيف يأخذ الصالح بالطالح؟ ولا بد وأنه يعلم في قرارة نفسه أن الذي ذهب إليه مخالف للحقيقة وما جاء في القرآن والسنة، وهذا الاستلزام الواقع ما هو إلا بطش وسفك للدماء، وسلطية عليا فيها الأنا العظمى حاضرة بقوة، لأن غايته أن يكون السامع له عبدا ومطيعا، ولا يخرج عن حكمه، وعن سيطرته على جميع الرعية دون استثناء أي فئة منهم، ولأنه يعلم أن الخوارج لا يستجيبون لأوامره قال قوله هذا للفتك بهم، فلا قوة منه عليهم، وستبقى مجموعة من الخوارج لا يستطيع النيل منهم، والقضاء عليهم.

٣- خرق قاعدة المناسبة: نجدها في جواب مرداس لزياد بن أبيه: (قد سمعنا ما قلت أيها الإنسان) لا يناسب المقام، أيعقل أن يقال لوال إنسان، أو مناداته باسمه، ومحادثته كمحادثة صديقه، وعدم مراعاة منصب المخاطب؟ لا يعقل أن يخاطبه على هذه الشاكلة إلا لغاية في نفسه، أميل في تأويلها على التحقير لأن معناها في اللغة؛ أعني الإنسان، يشير إلى صفة التفكر والتفكير التي يمتاز بها عن غيره من الكائنات الحية[١]، فقد يقصد من خلالها المرداس أن زيادًا يقول قوله هذا دون تفكر وتفكير في حيثيات الحُكم، فلا يمتلك مسوغات ولا أسبابًا تدعو إلى ما يقوله تناسب المقام الذي هو فيه، والذي يفترض أن تتوفر صفة الحكمة وعدم غلبة القرارات التعسفية على قراراته في هذا المكان الذي يتبوؤه.

ومرة أخرى تخرق القاعدة برد مرداس على زياد: (وأنت تزعم أنك تأخذ المطيع بالعاصي...)، فلفظة "تزعم" تتضمن معنى القول الباطل والكاذب[٢]، وهذا لا يناسب المقام في حضرة والٍ، ويترتب على هذا الاستلزام الواقع في تلك اللفظة أن يكسر مرداس من شوكة زياد بن أبيه، وأن يقدم له إهانة أمام السامعين، وإن ربطنا ما سبق ذكره آنفًا وما ذكر الآن، نجد أن اللفظتين لا بد أن تركتا أثرا في المخاطب، فأن يوجه له اللفظة الأولى دون اسم أو كنية أو لقب أو غيرها لم يكن ذلك من فراغ، وكذلك اللفظة الثانية "تزعم"؛ فمرداس يعلم في قرارة نفسه كراهية زياد للخوارج؛ إذ قبل ولايته البصرة كان واليا على الكوفة وطاردهم وهم فيها، وقتل منهم

---

[١] انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "أنس".

[٢] انظر: ابن منظور، اللسان، مادة "زعم".

الكثير، وخطب مرة على منبر البصرة، فقال: "يا أهل البصرة والله لتكفنني هؤلاء، أو لأبدأنّ بكم، والله لئن أفلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطياتكم درهمًا، فثار الناس بهم فقتلوهم"[1].

٤- خرق قاعدة الطريقة: تجلت في عدم التزام الخطيب الوضوح في كلامه، وإحاطته بالغموض والالتباس، فليس مفهوما للمتلقي أي محجة يتبعها الخطيب، ولماذا يريد أن يحاسب المحسن بعمل المسيء، والحاضر بالغائب، والصحيح بالسقيم؟ وفي هذا رغبة منه في إحكام سيطرته على زمام الحكم ومقاليد السلطة بأكملها، ويضم ذلك: الصالح والطالح، والحي والميت، والسليم والمريض، فلا تحدث حادثة في البلاد إلا ويعرف فيها، ويصله خبرها.

٣- خطبة عبد الله بن الزبير

"ويُروى أنه لما أتى عَبْدَ الله بنَ الزبيرِ[2] خَبرُ قتْلِ مُصعبِ بنِ الزّبير، خَطَبَ الناسَ، فَحَمِدَ الله، وأثنى عليه، ثم قال: إنّه أتانا خبرُ قتْلِ المصعبِ[3]، فسُرِرنا به، واكْتَأَبنا له، فأما السُّرورُ فلِما قُدِّرَ له من الشّهادةِ، وحيزَ له من الثوابِ، وأما الكآبةُ فلوعةٌ يجدُها الحميمُ عند

---

[1] ابن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ، دار الفكر، ٣/٣١٨-٣١٩.

[2] هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد القرشي، أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، وهو أحد العبادلة والشجعان من الصحابة، تولى الخلافة على بلاد الحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر بلاد الشام بعد موت يزيد بن معاوية، قتل سنة ثلاث وسبعين في جمادى الآخرة على يد الحجاج بن يوسف الثقفي؛ انظر: ابن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، ١٢٦/٤، وابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ٧٨/٤-٧٩، ٨٢، وخير الدين الزِّرِكْلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ٨٧/٤.

[3] هو مصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن كلاب، أبو عبد الله القرشي، قتل في وقعة دَيْر الجَاثَلِيق سنة إحدى وسبعين في جمادى الأولى في العراق، وقيل سنة اثنتين وسبعين، وقدم رأسه لعبد الملك بن مروان الذي كان خليله قبل الخلافة، وبعدها أراد عبد الملك أن يأخذ منه العراق فأنساه المُلك صداقته إياه، ولقد كان مصعب فارسا شجاعا وسيما، سفاكا للدماء، جوادا كريما حتى نعت بآنية النحل، انظر: ابن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، ١٠٤/٤، والذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق حسان، ٣٨٥٨-٣٨٥٩، وابن كثير، أبو الفداء محمد بن إسماعيل (٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، (د.ط)، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩٢م، ٣١٧/٨، ٣٢١، وابن العماد، أبو الفلاح شهاب الدين عبد الحي بن أحمد (١٠٨٩هـ)، شَذَرات الذّهب في أخبار مَن ذَهب، حققه عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، ط١، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٩٨٦م، ٣٠٤/١-٣٠٥.

فِراقِ حميمِهِ، وإنا والله ما نموتُ حَبَجًا كَمِيتةِ آل أبي العاص[١]، إنَّما نموتُ والله قتلا بالرِّماحِ، وقَعْصًا تحتَ ظِلالِ السُّيوف، فإنْ يَهْلِكِ المُصْعَبُ فإنّ في آل الزّبير منه خَلَفًا"[٢].

وحدث الخرق في الخطبة على النحو الآتي:

١- خرق قاعدة الكم: خرج الخطيب عن القاعدة، فدخل في باب الاستلزام الحواري، بإضافة أدوات توكيدية في ثني الكلام، فأداة التوكيد إن: (إنه أتانا خبر قتل المصعب...) يستطيع إبداله بالقول: أتانا خبر قتل المصعب، وأداة التوكيد إن ولفظ الجلالة الله: (وإنا والله ما نموت حبجا كميتة آل أبي العاص) بمكنته أن يقول: لا نموت حبجا كميتة آل أبي العاص، وأما التوكيد الأخير إنّ: (فإنّ في آل الزبير منه خلفا) بمقدرته أن يتداركه بالقول: ففي آل الزبير منه خلفا، ولكن الخطيب لم يذهب إلى ما كان باستطاعته ومكنته ومقدرته أن يذهب في القول إليه، لأنه يقصد من الأولى أن يخبر السامع خبرا يقينيا أن أخاه المصعب قد مات، وعلينا التحرك للأخذ بثأره، فلو أنه لم يستخدم التوكيد لما كان له أن يحقق رغبته في تحريك همة السامع للقتال والنيل من القاتلين، وأما الثانية فكانت كرسالة يريد لها أن تصل للمتخاذلين والمتقاعسين عن القتال، أو أنه قد أراد منها أن يوجه رسالة للقاتلين على لسان المنافقين وناقلي الأخبار أن ثأره لأخيه سيكون، ولن يرضى موتة كميتة آل أبي العاص، وأما الثالثة فسهمتها

---

[١] يذكر ابن الأثير سبب ذكر آل أبي العاص في كتابه النهاية في غريب الحديث عندما ذكر معنى حبج: "في حديث ابن الزبير _رضي الله عنهما_ "إنّا لا نموت حَبَجًا على مضاجعنا كما يموت بنو مروان" الحبجُ بفتحتين: أن يأكل البعير لحاء العَرْفَج ويَسْمَن عليه، وربما بَشِم منه فقتله. عَرّض بهم لكثرة أكلِهم وإسرافهم في مَلاذّ الدنيا وأنهم يموتون بالتّخمة": ابن الأثير الجزري، أبو السعادات مجد الدين (٦٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، (د.ط)، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩م، ٨٧٠/١. وهناك رواية أخرى جاءت فيها الخطبة على هذا الوجه: "ألا وإن أهل العراق أهل الغدر والنفاق أسلموه وباعوه بأقل الثمن، فإن يقتل فإنا والله ما نموت على مضاجعنا كما تموت بنو أبي العاص، والله ما قتل منهم رجل في زحف في الجاهلية ولا في الإسلام": ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ٣٢٣/٨.

[٢] المبرد، الكامل، ٣٩١/١. ويقصد بلفظة "حبجا" انتفاخ البطن، ولفظة "قعصا" تعني قتلا تحت ظلال السيوف، وأما لفظة "اللوعة" فمعناها الحُرقة التي تأتي على القلب؛ انظر: المبرد، الكامل،٣٩١/١، وللاطلاع على الخطبة كاملة انظر: الطبري، تاريخ الطبري، ١٦٦/٦.

في تتمة الرسالة السابقة التأكيد أن المصعب لم يمت لأن في آل الزبير من أمثاله الكثير!

٢- خرق قاعدة الكيف: ما صرح به عبد الله بن الزبير نقيض ما يقصده من قول ظاهر: (وإنا والله ما نموت حبجا ... فإن في آل الزبير منه خلفا)، فمعلوم ضمنا أن ابن الزبير لا يريد إخبار الذي قتلوا المصعب من هو، بل يريد توجيه رسالة بطريقة غير مباشرة، الغرض منه التهديد والترهيب، وبذلك قوله يخالف تفكيره، الذي نستطيع إجماله بقولنا: سنأخذ بثأر المصعب عاجلا غير آجل!

أما استخدامه الكناية: (كميتة آل أبي العاص) فهي تخالف معناها الحقيقي الذي وضعت له، فلفظة "حبجا" لم يعن بها في هذا السياق معناها اللغوي الذي ترمي إليه، وهو انتفاخ البطن، بل قصد منها التقاعس والنوم عن القتال، وعدم أخذ ثأر أخيه، وأما لفظة "القعص" فلم يستخدمها في معناها، بل بخلاف ما وضعت له، حيث كنى فيها عن الموت السريع دلالة على أنهم شديدو القوة والقتال.

٣- خرق قاعدة المناسبة: إن سرور عبد الله بن الزبير بقتل أخيه لا يتناسب والمقام وهو خبر قتل أخيه: (إنه أتانا خبر قتل المصعب فسررنا به)، لا يعقل من أخ يقتل أخوه أن يفكر بإيجابية في مقام يستدعي منه حمية الشباب والأخذ بالثأر من القاتل، ولكن ما استدعى منه قول ما قال أنه لا يريد أن يشعر القاتلين والمستمعين أنه قد ضعف أو أصابه الوهن، فيضعف جيشه وتخرّ عزائمه، ويشمت القاتل فيلحقه ما لحق أخاه.

٤- خرق قاعدة الطريقة: الألفاظ التي استخدمها الخطيب فيها غموض للسامع، لفظة (حبجا)، ولفظة (قعصًا)، ولعله اختارها لما فيها من قوة في اللفظ والصوت والشدة.

وثمّ خرق في مفتتح الخطبة: (إنه أتانا خبر قتل المصعب)؛ إذ لم يعط عبد الله بن الزبير معلومات كافية عن خبر قتل المصعب: من الذي قتله، وما السبب من وراء قتله؟ واكتفى بالقول الموجز مع أن ذلك يعوّق السامع أن يتنبأ بالقاتل، والسبب الكامن في خلفية القتل، وقد يكون ذلك لأنه يريد بدل رأسه الذي قدم لعبد الملك بن مروان رؤوسا توضع أمامه، فلا يجادله السامع في أن القاتل يؤخذ برأسه وحده وكفى، فتركها دون تفصيل، ولعله لا يريد التصريح حتى يتأكد من كيفية قتل أخيه، ويخطط لخطة يوقع فيها أكبر عدد من القتلى.

وهناك ثمة خرق في ذكره آل أبي العاص، فلم يفصل بمعلومات عنهم، وأوجز بالقول عنهم، وفي ذلك رغبة منه في تجنب التصريح بإعطاء المعلومة الكافية واللازمة عنهم، فبمكنته أن يتمها ويقول: وهم أهل التخمة الذين يأكلون وينامون ويموتون بانتفاخ البطن، وغير ذلك، وأجنح في القول في التعليل لعدم ذهابه هذا المذهب أنهم ليسوا محور الحديث، ولكن لتذكير السامع بمن يكون.

٤- خطبة المهلب بن أبي صفرة

"وكانَ المهلَّبُ[١] يَبُثُّ الأحراسَ في الأمْنِ، كما يَبُثُّهم في الخوفِ، ويُذكِي العُيونَ في الأمصار، كما يُذْكِيها في الصَّحارِي، ويأمُر أصحابَه بالتَّحَرُّزِ، ويُخوِّفهم البَيَاتَ، وإن بَعُدَ منهم العدوُّ، ويقولُ: احذروا أن تُكادُوا كما تَكيدون، ولا تقولوا هَزَمْنا وغَلَبْنا، فإنَّ القومَ خائفون وَجِلُونَ، والضرورةُ تَفْتَحُ بابَ الحِيلة، ثم قامَ فيهم خطيبًا فقال:

أيّها الناس، إنكم قد عَرَفتُم مذهبَ هؤلاء الخوارج، وأنَّهم إنْ قَدَرُوا عليكم فَتَنوكُمْ في دينكم، وسَفَكوا دماءَكم، فقاتلوهم على ما قاتَلَ عليه أولَهم عليُّ بنُ أبي طالبٍ صلوات الله عليه، فقد لَقِيَهُمْ قبلَكم الصّابرُ المحتسبُ مُسلِمُ بن عُبيسٍ[٢]، والعَجِلُ المُفَرِّطُ عثمانُ بنُ عُبيدِ الله، والمَعْصِيُّ المخالَفُ حارثةُ بن بَدْرٍ[٣]، فقُتلوا جميعًا وقَتَلُوا، فالْقَوْهُمْ بِحَدٍّ وَجِدٍّ، فإنّما هُم

---

[١] المُهلَّب بن أبي صُفرة العَتَكيّ: يكنى أبا سعيد، وأبوه أبو صفرة اسمه ظالم بن سراق، ولد عام الفتح، وتوفي سنة ثلاث وثمانين بمرو الروذ وقيل سنة اثنتين وثمانين، اتصف بالشجاعة والدهاء، حَمَى البصرة من الخوارج بعد جلاء أهلها عنها فسميت بَصْرة المُهلَّب؛ انظر: ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد(٢٣٠هـ)، كتاب الطبقات الكبير، تحقيق علي عمر، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠١م، ١٢٩/٩، وابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ٢٤٣/٦، وابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، ٣٠٣/٦-٣٠٥، وابن العماد، شَذَرات الذّهب في أخبار مَن ذَهب، ٣٣٥/١.

[٢] مسلم بن عبيس بن كُرَيز بن عبد شمس، قتلته الخوارج سنة خمس وستين؛ انظر: الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل (٣٣٠هـ)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٠م، ١٥٧/١، وابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ٩٥/٦.

[٣] عثمان بن عبيد الله بن معمر هو الذي خاض قتالا وجيش من أهل البصرة لقتل ابن ماحوز -رئيس الخوارج الأزارقة-، وقد تمكن ابن برز مولى عبد القيس من قتل عثمان سنة خمس وستين، وقاتلهم بعده الحارثة بن بدر عند نهر تيرى، ومات غرقا، وتولى بعده المهلب فقاتلهم وقتل منهم الكثير؛ انظر: البلاذري، جُمل من أنساب الأشراف، ١٥٥/٧-١٧٢.

مهنَتُكُمْ وعبيدُكم، وعارٌ عليكم ونقصٌ في أحسابِكم وأديانِكم أنْ يغلبَكم هؤلاءِ على فَيْئِكُم، وَيَطَؤُوا حَرِيمَكُم"[1].

والخرق في هذه الخطبة وقع في القواعد الآتية:

١- خرق قاعدة الكم: حدث الخرق بعدم التزام الخطيب بالقدر المطلوب عند المخاطبة بما يفيد الحاجة، فكانت الزيادة باستخدام أدوات التوكيد، ومنها: (إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج) وبما أنهم يعرفون المحجة التي يمشون عليها الخوارج كان بمكنته عدم استخدام التوكيد، فالمعرفة حاصلة، ولكنه استخدمها ليؤكد لهم أن الخوارج ما زالوا كما هم، ومذهبهم كما هو.

٢- خرق قاعدة الكيف: بقوله عن الخوارج إنهم عبيدهم، فهذا لا يتطابق مع الواقع، فهم كانوا شوكة في حلق المسلمين منذ زمن الرسول ﷺ وهم يقاتلونهم وما زالوا على قتالهم حتى يومنا هذا، ولم يقدم الأدلة الكافية عن سبب نعتهم بالعبيد؛ ولكنه يبدو أنه أراد التأكيد للسامع أنهم عبيد لهم، ومنزلتهم أدنى منهم، فهم الذي خرجوا عن أشرف خلق الله خليفة رسول الله محمد ﷺ، الخليفة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

٣- خرق قاعدة الطريقة: هناك التباس في قول المهلب "هم مهنتكم" عن الخوارج، فهل يقصد أن جيشه نذر نفسه لقتال الخوارج، أم أنه قصد أن صفوف جيشه هم خبراء في قتال الخوارج، لعل الحاجة التي استدعته أن يقول هذا القول العمل على زيادة الثقة في صفوف المقاتلين، وكي يزرع في عقولهم أنهم هم لا غيرهم القادرون على القضاء على الخوارج.

وخرقت القاعدة بإعطاء معلومات مفصلة، إذ بعد أن قال لهم إنهم يعرفون مذهب الخوارج، قام بالحديث عنهم: أنهم يسفكون الدماء، ويقاتلون ما قاتلوا عليه علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه ورضي عنه، وكان بمكنته القول بدلا من ذكر الأسماء: ما قاتل عليه الخلفاء والصالحون، وهذه الإطالة بالتفصيل كي تبقى تلكم الأسماء لامعة في عقل السامع، وتحركه على قتال الخوارج، والأخذ بالثأر لعلي وصحابته.

---

[1] المبرد، الكامل، ٣/١٢٤٥.

٥- خطبة داود بن علي

"وذكرَ العُتْبِيُّ أو غيرُه أنَّ داودَ بن عليٍّ بنِ عبدِ الله بنِ العباس[١] خطبَ الناسَ في أول موسمٍ مَلَكَهُ بنو العباس[٢] بمكة، فقال: شكرًا شكرًا، إنّا واللهِ ما خرجنا لِنحْفِرَ فيكم نهرًا، ولا لِنبنِيَ فيكم قصْرًا، أَظَنَّ عدوُّ اللهِ أنْ لن يُقْدَرَ عليه إن رُوخِيَ له من خِطامِهِ، حتى عثَر في فضْلِ زِمامِهِ؟ فالآنَ حيثُ أخذ القوسَ باريها، وعادتِ النَّبْلُ إلى النَّزَعَةِ، ورجَعَ المُلْكُ في نِصابِه في أهل بيت النُّبوة والرحمةِ، واللهِ لقد كنّا نتوجَّعُ لكم ونحن في فُرُشِنا، أَمِنَ الأسْوَدُ والأحمرُ، لكم ذِمَّةُ اللهِ، ولكم ذمةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكم ذِمَّةُ العباسِ، لا وَرَبِّ هذه البِنْيَة، وأومأَ بيده إلى الكعبة، لا نهيجُ منكم أحدًا"[٣].

وقد حدث الخرق في هذه الخطبة في هذه القواعد

---

[١] يكنى أبا سليمان، وكان خطيبا فصيحًا، عم السفاح أبي العباس، والمتكلم يوم استخلفه أبو العباس، الذي ولاه إمارة الكوفة، ثم مكة والمدينة، وفي السنة التي خطب بها، سنة ١٣٢هـ ولاه أبو العباس إمارة الحاج، واتصف بجبروته وهيبته وسطوته، توفي عام ثلاثة وثلاثين ومئة؛ انظر: البَلاذري، جُمل من أنساب الأشراف، ١٥٣١/٤-١٥٣٣، وابن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، ٦٨/٥، والذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق حسان،١٦٤٩.

[٢] كانت بداية الدولة العباسية وبيعة أبي العباس عبد الله بن محمد بن عباس في سنة ١٣٢هـ، بعد القضاء على الدولة الأموية؛ انظر: ابن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، ٦٣/٥-٦٦.

[٣] المبرد، الكامل، ١٤٨٢/٣-١٤٨٣، وذكر ابن الأثير في كتابه الكامل رواية للخطبة على هذه الوجهة: " أيها الناس إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا ولا نحفر نهرا ولا نبني قصرا وإنما أخرجتنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبني عمنا وما كرهنا من أموركم، فلقد كانت أموركم ترفضنا ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم واستنزالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم، لكم ذمة الله تبارك وتعالى. وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم، وذمة العباس رحمه الله علينا أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تبا تبا لبني حرب بن أمية، وبني مروان آثروا في مدتهم العاجلة على الآجلة والدار الفانية على الدار الباقية فركبوا الآثام وظلموا الأنام وانتهكوا المحارم وغشوا بالجرائم وجاروا في سيرتهم في العباد وسنتهم في البلاد... وأدالنا الله من مروان وقد غره بالله الغرور أرسل لعدو الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه وظن عدو الله أن لن نقدر عليه فنادى حزبه وجمع مكايده ورمى بكتائبه فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ومحا ضلاله وجعل دائرة السوء به وأحيا شرفنا وعزنا ورد إلينا حقنا وإرثنا"؛ ابن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، ٦٧/٥.

١- خرق قاعدة الكم

وقع الخرق في استخدام الخطيب التوكيد والقسم معًا في قوله: (إنا والله ما خرجنا لنحفر فيكم نهرا...)، والمقام لا يستدعيهما لكونه واليا عليهم، ولكون السلطة بيد بني العباس، فعلى المتلقي السمع والطاعة سواء صدق الخطيب أم لم يصدق في كلامه، فترتب على ذلك استلزام حواري، الغاية منه التأكيد على السامع أن الخلافة عادت لأصحابها الأصليين، وتوجيههم لهذا الأمر، وبما أنها عادت فهذا من الطبيعي أن يترتب عليها بناء قصور وجمال أنهر وازدهار حضارة، فلهذا السبب لم يعط أهمية لما سيترتب على ما بعد الخلافة وأخذ زمام الحكم، فاكتفى بتسليط الضوء على ما يحبب السامع أن يسمعه بعد عنائه مع بني أمية في هذا المقام.

ألقى داود على مسامع الحاضرين توكيدا آخر باستعماله حرف التحقيق "قد" مسبوقا بالقسم في قوله: (والله لقد كنا نتوجع لكم ونحن في فرشنا...)، وهو عن كلا التوكيدين غني للأسباب التي ذكرت آنفا، ولكنه أتى بهما ليغيب أي شك عند السامع، ويثبت له أن توجعه وأهله على ما أصبحوا عليه كان واقعا ومتحققا، وليس فيه أدنى شك، وفي ذلك يكسب ولاية المتلقي، ويزيد من ولائه له، ويقلل من احترام بني أمية في قلوبهم وعقولهم.

والخرق الآخر الواقع ههنا هو تكرار "لكم ذمة" في قوله: (لكم ذمة الله، ولكم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكم ذمة العباس)، تجاوز باستخدامه الحد المطلوب لغاية نشر الأمان في نفوس السامعين، فهم في رعاية الله _جل علاه_ وكنف الرسول محمد ﷺ، وجوار بني العباس.

٢- خرق قاعدة الكيف: عدل الخطيب عن القاعدة بقوله: (عاد النبل إلى النزعة)؛ إذ ليس لها واقع يتحقق في العالم الخارجي، خالف فيها ما ران عليه إلفنا من أن السهام إن خرجت لا تعود لراميها بل لمتلقيها، فكيف عاد إلى النزعة؟ يبدو أن قوله كناية عن عودة الأمر إلى أهله، أي عودة الخلافة لبني العباس، ورجوع الحق لأهل الأناة ليقوموا بإصلاحه[١]، ويكون قد استخدم الكناية ليقرب الصورة للسامعين بأداة تستعمل في حروبهم، تساعدهم على استدعائها كلما لمسوا السهام وخرجت من الكنائن قبل الرِّماء.

---

[١] انظر ما جاء في جمهرة خطب العرب من تفسير القول: (وعادت النبل إلى النزعة): أحمد صفوت، جمهرة خطب العرب، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ٤/٣.

خرق آخر موجود في الجملة اللاحقة للجملة السابقة، حيث لم يعط فيها الخطيب أي دليل يؤكد توجعه عليهم في قوله: (لقد كنا نتوجع لكم ونحن في فرشنا)، فقد لا يكون متوجعا عليهم أشخاصًا ورعية، فكما نفهم من كلامه السابق لذاك القول أن السبب الرئيس للألم والحزن على حالهم أن الخلافة كانت في بني أمية، وهم يرون أنفسهم أحق بها، فخالف قوله الحقيقة.

٣- خرق قاعدة الطريقة: كان ذلك باستعمال الخطيب الإيجاز والإطناب، فأما الإيجاز المخل بالقول الموجود في مستهل خطبته: (شكرا شكرا)، فما هو إلا إيجاز بالحذف، ما قام بتفصيله وتجليته، واكتفى بتكرار اللفظة دون تتمة لها، فهل هي شكر لله، أم شكر لأهله بني العباس لأنهم أعادوا الخلافة لأصحابها الشرعيين، وفي دوامة تلكم التأويلات يكون الخطيب قد اخترق القاعدة لقصور في المعلومات، بحاجة لتفصيل بيان من مظانّ الكتب، تكشف عن سبب قوله اللفظة التي أدت إلى هذا الشكر، ولعل السبب في ذلك هو فرحة عارمة أدت إلى هذا التعبير، يشكر فيها خالقه، ويحمده أنه أهلك بني أمية، عدوهم وعدو الإسلام لما جاء من بعض خلفائهم من لهو ومجاهرة بالمعاصي، وحدوث اضطرابات وفتن وعدم طاعة من الرعية في وقت ولايتهم، حتى تمكّن العباسيون منهم، وأطاحوهم جانبا عن الحكم، وقد ذكر ابن الأثير خطبة داود على هذه الشاكلة، وفيها توضيح لسبب بدايته الخطبة بلفظة "شكرا": " وقام عمه داود على مراقي المنبر فقال: الحمد لله شكرا الذي أهلك عدونا وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، أيها الناس الآن أَقْشَعَت حنادسُ الدنيا، وانكشف غطاؤها، وأشرقت أرضها وسماؤها، وطلعت الشمس من مطلعها، وبزغ القمر من مبزغه، وأخذ القوس باريها، وعاد السهم إلى منزعه، ورجع الحق إلى نصابه في أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة والعطف عليكم..."[١]

[١] ابن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، ٦٦/٥-٦٧

الخاتمة

مُنْتَهَى القولِ

وبعدُ،

فهذا درسٌ لساني يهتم بالخطاب وما يحيط به من عناصر تسهم في تجليته، والإبانة عن مقصد صاحبه، وتكشف عما تخفيه البنية السطحية في النص وراءها، فالمحلل النصاني أو التداولي للخطاب يعتني بالمسكوت عنه؛ فالمسكوت عنه أولى من المنطوق به، لسبر أغواره الجوانية والبرانية.

ومضمار الدرس كما ارتضته له الباحثة جمع بين دراستين، أولاهما الدراسة النصية، وثانيتهما الدراسة التداولية، وقد أقيم على ثلاثة فصول رئيسة تسبقها مقدمة وسمت باسم (مُبْتَدَأُ القولِ)، وتعقبها خاتمة وسمت باسم (مُنْتَهَى القولِ) هي خاتمة الدراسة هذه، وهذا أوان الشروع بقفلةٍ جامعة مشتملة على مقولات ست:

- أولاها: ارتداد
- ثانيتها: تأصيل
- ثالثتها: تخلُّق
- رابعتها: تفاوت
- خامستها: مطابقة
- سادستها: تَطْواف

المقولة الأولى

ارتداد

أما هذا العنوان (ارتداد) فالمقصد منه ارتداد الفكر والبصر إلى ما تقدم من كلام جاءَ قبلا في عنوانات الفصول والمباحث، ومُقَوِّمات وعناصر أساسية تسهم في قيام الدراسة ووجودها على هذه الشَّارة، وقد ائتلفت من تمهيد تعريفي بسيرة المبرد، وإعطاء نبذة عن كتاب الكامل ومنهجه، والتعريج على الخطب، والخطابة التي هي من القول ومحركات القلوب، بل هي عماد الدراسة التطبيقية.

أما الفصل الأول فهو مفتتح القول، وفيه حديث عن تحليل الخطاب لغة واصطلاحًا ونشأة وفروعا، ويعرّج على شيء مما قاله العرب والغرب، ويفصح عن تاريخها وكيفية ظهورها ووصولها للغويين والباحثين اليوم، ويأتلف من خمسة مباحث، أولها الخطاب، وثانيها تحليل الخطاب، وثالثها النص والنصية، ورابعها نحو النص، وخامسها التداولية وأبعادها المتكونة من الإشاريات، والافتراض المسبق، والاستلزام الحواري، ونظرية أفعال الكلام.

أما الفصل الثاني فقد كان "آليات التماسك النصي في خطب الكامل: دراسة تطبيقية نصية، وقد تجلى في خطبتين، إحداها للرسول الأكرم محمد ﷺ والأخرى للحجاج، وظهر في مبحثين: أولها وسائل الاتساق بنوعيه النحوي والمعجمي، واختلفت الخطبتان في عناصر الاتساق النحوي واتفقتا في عناصر الاتساق المعجمي، المكون من التكرار والمصاحبة المعجمية، وثانيها وسائل الانسجام، وقد توزعت بواعثه في ستة ملاحظ: أولها السياق وما بدا عليه من خصائص تسهم في الإبانة عنه، وهي التعريف بمنشئ الخطاب ومتلقيه، والتعريف بالزمان والمكان الوارد في عوالم النص الداخلية والخارجية، ثم التعريف بعتبة الخطاب عند دخول النص وعتبته عند الخروج من أبوابه، وثانيها البنية الكلية التي ارتكز عليها موضوع الخطاب، وثالثها البنى النصية الكبرى التي تناولت الأفكار الرئيسة لنص الخطبة، ورابعها ترتيب الخطاب الذي سرى في كل من الخطبتين مسرى العام إلى الخاص، متدرجا بالبنى تدرجا منظما ومتساوقًا مع وحداته اللغوية، وخامسها البنى النصية الصغرى التي خرجت من رحم البنية الكلية وجاورت البنى الكبرى فوجدتها بحاجة إلى تفصيل بيان، يجلي ما خفي علي واسْتَبهم، فأخذت كل بنية وقمت بتجزئتها إلى بنى صغرى توضح ما خفي فيها من دلالات، وما احتاج إلى سبر أغواره، وسادسها العلاقات الدلالية المنظمة للوحدات اللغوية في بنية النص، والمسهمة في تحقيق الانسجام النصي، وبناء ما تقدم على ما سبق، كعلاقة التعميم، وعلاقة التفسير، وعلاقة التقابل، وغير ذلك.

أما الفصل الثالث الموسوم باستشراف الأبعاد التداولية في خطب الكامل: دراسة تطبيقية تداولية، فعرجت فيه على مطلبين: نظرية الأفعال الكلامية أولا، والاستلزام الحواري ثانيا، وقد أتيت على أمثلة من خطب الكامل تجليهما.

المقولة الثانية

تأصيل

وهذه المقومات السابقة الذكر لها أصول متجذّرة في التراث اللغوي العربي عند القدماء، من لغويين ومفسرين، اعتنوا بالخطاب، واهتموا بطرفيه المتكلم والمتلقي، والعلاقة القائمة بينهما على الاتصال والتواصل اللفظي وغير اللفظي، وأفرزوا لنا أشتاتًا من الأنظار الدائرة حول المعنى ومعنى المعنى، وصرفوا وكدهم إلى العناية بالخطاب ومراعاة حال المخاطب لينجح الخطاب، وأهمية أن يتمكن الإنسان من قول الكلام البليغ الذي يليق بكل مقام، ويولي اهتمامه لمقاصد المتكلم، وهو السياق الشريف كما في قوله تعالى: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[1]، وقوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾[2].

وقد أجمع القدماء على أن هناك غاية من كلام الناس إما لترفيه، أو استمتاع، أو تعلم وتعليم، أو لمقصد ما يبتغي المخبِر تحققه على أرض الواقع، أو لتأثير وتأثر في ذهن السامع، وغيرها من المقاصد التي ينتحيها طرفا الخطاب في كلامهم ذوَيْ اللغة الاجتماعية التي من خلالها يفهمون بعضهم بعضا.

ويكفينا نظرية النظم الجرجانية القائمة على الاختيار الدقيق لمعاني النحو حسب الغرض الذي صيغ الكلام من شأنه، وغير ما ذهبوا إليه من مطابقة الكلام للمقام، وتحليته بالمؤكدات، أو تجريدها منها ومن غيرها حسب المقتضى الذي يتطلبه، وهذا ما تقوم عليه التداولية، وهو مراعاة المقاصد والأغراض بكلام منسجم مع المقام والسياق، والنصية لا ترمي إلى غير هذا، فضلا عن عناصر كل منهما؛ أعني النصية والتداولية، فآثارهما في كتب القدماء تظهر عند تقصيها والبحث عنها، كالحذف والتكرار والإحالة وهلم جرا؛ فالحذف مثلا أحد عناصر الاتساق النحوي يرد في الكتب بهذا المسمى أو بمسمى الإضمار، وكما قالوا عنه من شجاعة العربي أن يحذف ويوجز في كلامه، ويبقي دليلا يفهم من السياق على المحذوف أو قرينة دالة عليه، وأمّا ما جاء به الانسجام من خصائص السياق المجلية له بمعرفة المخاطِب والمخاطَب والابتداء والانتهاء وغيرها من العناصر، فقد وقف عليها القدماء وما غاب عنهمُ، وسمّوها

---

[1] الآية (طه،٤٤).

[2] الآية (ص،٢٠).

بالمؤشرات البنائية المهمة التي تسهم في تماسك النسيج النصي، وكلها تُسْلِم إلى تحقيق الوحدة الموضوعية.

المقولة الثالثة

تخلُّق

يظهر من عنوان هذه المقولة أنها ستتحدث عن أسباب تخلق دراستين قام عليهما البحث، هما النصية والتداولية، اللتان تشكلتا فتكونتا حتى استقامتا كعلم قائم، هذا العلم المحتوي على أسباب أوجدته تتبعتها الباحثة حتى رأت أن للغة وظائف تظهر حينما يقوم محلل الخطاب في تتبع آثارهما في النص، منها وظيفتان يقوم بهما، أولها دراسة النصية، وثانيها دراسة التداولية، فأما النصية القائمة على النص الذي يعدّ وسيلة لنقل التجارب والخبرات والأفكار إلى المتلقين من خلال رسالة، سواء أكانت منطوقة أم مكتوبة، ودون تحديد لحجمها، فيقوم المتلقي بفك شفراتها لفهمها وإقامة عملية اتصال وتواصل لغوي أو غير لغوي بينها، في نص يحتوي على معايير النصية السبعة، بخلاف الكلمة والجملة المجردتين من النصية، حيث يضم النص خصائص تفضي إلى الاتساق والانسجام، يتم الكشف عنهما بمراعاة السياق[١].

وهذا الاتساق والانسجام الذي يقع في صلب نحو النص، هو عماد المعايير النصية، وقد نتج إثر تفاعل مجموعة من العلوم اللغوية وغير اللغوية، ومن ثقافات مغايرة[٢] تمازجت فوضعته على بساط نسيج نصي يمثل نظاما لغويا يتكون من مصفوفة من التركيبات النحوية، المؤتلفة من جمل خبرية أو إنشائية، أو الاثنتين معًا، وهو الذي يساعد؛ أعني نحو النص، على تفكيك البنية اللغوية لإنتاج عدد من النصوص من النص ذاته، وما كان ذلك كذلك، لولا خروجه من عباءة نحو الجملة التقليدية إلى نحو الجملة النصية، تلك التي تنظر للنص باعتباره كُلاً واحدًا، وتقوّمه بناء على السياق المذكور فيه.

وأما الوظيفة الثانية للغة أثناء تحليل الخطاب فهي التداولية التي ظهرت نتيجة قيام دراسات كثيرة عن اللغة، ودراستها حال استعمالها في السياق، وممارسة وظائفها القائمة على التواصل والحوار، فالتداولية تتعامل مع اللغة بعدّها ظاهرةً خطابية اجتماعية تقوم على

---

[١] انظر: أحمد عفيفي، نحو النص، ٢٠-٢٥.

[٢] انظر: أحمد عفيفي، نحو النص، ١٠.

الاتصال والتواصل في سياق معين، وتهتم بكيفية إنتاج المتكلم فعلا كلاميا في موقف معين، وهدفها يصب في الوصول الى المعنى المراد الكامن خلف الفعل الكلامي، والكنايات وغيرها.

وعليه تخلقت النصية عندما شعرت أنها بحاجة إلى "الوصف والدراسة اللغوية للأبنية النصية، وتحليل المظاهر المتنوعة لأشكال التواصل النصي"[1]، وكذلك فعلت التداولية حينما شعرت أن النص بحاجة إلى من يسهم في إيضاحه أكثر، ويكشف عن جمالياته الإضافية، فتناولت دراسة اللغة حال استعمالها في السياق التي تجلّت فيه.

المقولة الرابعة

تفاوت

فروق بانت في الخطب أثناء تحليلها أدت إلى افتراق السبل، وتفرقها في تحليل نص الخطب في كلتا الدراستين؛ أعني النصية والتداولية، من ستة أوجه، أولها في النظر إلى موضوع الخطبة، فمنها سياسي، وآخر ديني، وآخر اجتماعي، وكل منها يرمي لتحقيق هدف وغاية، وثانيها في النظر إلى حجمها، فمنها ما امتاز بالطويل، ومنها القصير، ومنها ما بين بينَ، وهذا كان يحدده الموقف والمقام حسب احتياجات المتلقي في نظر المتكلم، فخطبة الرسول ﷺ في الدراسة النصية استدعت منه التقصير، وتكثيف المعلومات؛ فالمقامُ هو للوعظ والإرشاد، ولا يتطلب منه أن يطول فيها بخلاف خطبة الحجاج، فكانت تجلية آليات التماسك النصي فيها أكثر من خطبة الرسول ﷺ لما اتصفت فيه من طول، وثالثها في النظر إلى مقامات أصحابها ومتلقيها، فاختلفت نبرة الخطاب حسب المتكلم وما يشغله من منصب ما، فكلما كان هو المسؤول وليس النائب أو المندوب كان الخطاب أشد تأثيرا في المسامع، ولهجته أقوى، وتصاغ الخطبة مراعية للمتلقي من هو، فيختلف القول باختلاف مقامات المتلقين وفئاتهم وطبقاتهم الاجتماعية، فهل هو من عامة الناس، أم فئة معينة بحاجة إلى حديث خاص يخاطبها لتنجح الرسالة الخطابية في الوصول إليها، ورابعها في استخدام الإشارات والإيماءات، فأحيانا المقام يحتاج إلى لغة جسم إيضاحية تسهم في تشكيل الصورة للمتلقي أو تعزيزها، وفهمها فهما صحيحا يمنع من الوقوع في اللَّبس، وخامسها في النظر إلى عناصر التحليل، فمثلا في الدراسة النصية اختلفت عناصر الاتساق النحوية والعلاقات الدِّلالية في الخطب، واختلفت المعايير النصيّة المقصديّة والمقبوليّة والمقاميّة والإعلاميّة والتناص بتوافرها في

---

[1] أحمد عفيفي، نحو النص، ٣١.

الخطبتين أو الخطب حسب المقام، وفي الدراسة التداولية في بعض الخطب طرأ خرق لقاعدة المناسبة وقاعدة الكيف بخلاف الخطب الأخرى، وسادسها في النظر إلى السياق، فسياق كل خطبة يختلف اختلافًا بيّنًا عما جاورها من الخطب، فالزمن والمكان يختلفان، والمستمعون كذلك، ولغة المخاطب وشخصيته تلعبان دورا في صياغة السياق، وفيه يدخل قوة الخطاب التي يحددها الهدف المسعى له، فأحيانا يكون قويا وأحيانا المقام لا يستدعي كل هذا من الخطيب لإقناع المتلقي والتأثير به، والغرض من الخطبة يلعب دورا في تغيير درجة قوة الخطاب، فغرض النصح والإرشاد يختلف عن غرض اللوم والتنبيه، وقوة الخطاب تستدعي من الخطيب قوة اللفظة معه واستخدام غريب الألفاظ، وأحيانا سهولة الألفاظ وسلاستها، ففي النصية خطبة الحجاج تهديد وتحذير، وأما خطبة الرسول ﷺ فاستمالة للقلوب على ما ضمنته من نصائح وإرشادات للمستمع.

المقولة الخامسة

مطابقة

عنوان هذه المقولة مطابقة، وهو وسم دال على تطابق الدراستين وتلاقيهما في نقطة تشابه تضم جميع الخطب، تمثلت في السياق الذي لعب دورا مهمًّا في إظهار نصية النص وتداوليته، فضلا عن الإبانة عن مقاصد المتكلم، والعلاقة التي تربط المتكلم بالسامع، ومدى تماسك النص، فعليه المعول والاتكال.

والنص يعتمد على السياق الذي يتم من خلاله الاتصال والتواصل الداخلي والخارجي، وباختلاف السياق يختلف تحليل المحلل النصاني من خطبة إلى أخرى حسب توافر العناصر النصية أو التداولية فيها، وتختلف القواعد المخترقة القائم عليها مبدأ التعاون في ظاهرة الاستلزام الحواري، والسياق له كلمة الفصل في إظهار معنى مفردة ما، فقد يرمى للكلمة معنى غير المعنى المألوف لها، ولمعرفة إعراب جملة ما نفيء إلى السياق لفهم معناها أولا، ثم التعريج إلى ما سبقها من جمل سابقة أو لاحقة للوصول إلى الإعراب الدقيق لها، والسياق فضلا عن هذا، يقلل من احتمالية التأويل التي يشطح فيها المحلل، ويتوسع بما لا يلزم من معنى، ومن خلال السياق نتوصل إلى نوع الخطبة، ومناسبة قولها، ومعرفة موضوع النص، ولمن تحيل الأداة، ومعرفة أهمية أدوات الربط التي توزعت على بنية النص كلها، في أماكن مختلفة،

والسياق بفرعيه المقالي والمقامي يكشف عن سبب تكرار مفردة أو جملة دون أخرى، وتخمين الكلمة المحذوفة في السياق النصي.

والسياق هو من يرشد المحلل إلى الأفعال الإنجازية إن كانت مباشرة أو غير مباشرة، ومجالاتها التي صنفت إلى إخباريات، وإعلانيات، والتزاميات، وغير ذلك، التي تصب أهميتها في إثبات المتكلم صدق محتواه القضوي، والتعبير عن حالته النفسية كالشكر والاعتذار والعفو، وحمل المخاطب على أداء الفعل الإنجازي الموكل به إن كان قادرا على الالتزام به، وإنّ هذه الاهتمامات لا يكشف عنها دون الرجوع إلى السياق، فهي كلها من الإشارات التي تساعد محلل الخطاب على التوصل إلى مقصد المتكلم المتخفي بين الكلمات والجمل والفقرات، فتظهر ما خفي في نفسه من مرام ومقاصد وأغراض.

والنص إن كانت عناصره متساوقة مع بعضها، ومنسجمة فيما بينها، فإننا نحتكم إلى السياق في معرفة هذا، وليس ذلك فقط، بل أيضا من خلاله نخمن المكان إن لم يكن مصرحا به، وكذلك الزمان، وإن كانت الخطبة تصلح لكل زمان ومكان مثل خطبة الرسول ﷺ في الدراسة التطبيقية النصية، أو أنها خاصة بفترة زمنية محددة مثل خطبة المهلب في قتال الخوارج آنذاك.

وبالنظر إلى ما سبق من كلام عن السياق بفرعيه المقالي والمقامي فإننا لا نعجب إذًا لاهتمام القدامى به، ليكون محطة يقفون عندها طويلا، ويعطونه من وقتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فدرسوه تحت عنوان مقتضى الحال، والمقام، والموقف، وغيرها.

المقولة السادسة

تطواف

وهو تَطواف في الرسالة بحثًا عن نتائجَ وخلاصة ما أتيت عليها قبلا، بالإضافة إلى اقتباس يعبر عن فحوى الرسالة، وهذا أهم ما وقع البصر عليه:

- الخطب خير معين على إبراز النصية والتداولية، بنصها الداخلي والخارجي الشكلي المسهم في إظهار موضوع الخطبة، وفي تحليل شخصية المتكلم عن طريق الإشارات التي يحملها في داخله.

- أن الجملة النصية تحتوي على سلسلة من الجمل المتوالية، ولكنها لا تدرس مقتطعة من سياقها، بل النظرة لها نظرة كلية لما سبقها من جمل وما لحقها؛ ليكتمل معناها كما رمى إليه المتكلم، ولكي تنجح عملية التواصل مع المتلقي.
- النصية تعتمد على آليات التماسك النصي لتحققها في النص، وهما الاتساق والانسجام، فبدونهما تبقى رسما جامدا، لا روح فيه ولا ريحان.
- ليس بمكنة محلل الخطاب النصاني أن يفصل بين الاتساق والانسجام تطبيقيا، فهما آليتان من آليات التماسك النصي المتداخلة والمتشابكة، ويتشاركان في فهم النص أو جزئية معينة منه، ويدخلان ضمن العلاقة بين البنية السطحية والبنية العميقة، أي العلاقة بين الظواهر اللغوية والمضمون الدلالي المتخفي خلف المعنى اللغوي الظاهر، وأما من الناحية النظرية فبمكنته ذلك لاعتماد كل منهما على تعريف خاص به وعناصر وخصائص تمتاز بها.
- أن معايير النصية القصدية، والإعلامية، والمقامية، والمقبولية، والتناص، تدخل في مفهوم الانسجام الذي يأخذ منها حسب المقام والمقتضى، فخطبة الرسول ﷺ والحجاج في كلتيهما ظهرت هذه المعايير مجتمعة عند تحليل البنى الصغرى للنص.
- يشكل الاتساق والانسجام مع التداولية علاقة قوية في فهم الإحالة، والتي تخفى أحيانا عن المحلل؛ مما يؤدي به إلى العودة إلى فهم السياق، وتكمن العلاقة في فهم العلاقات الداخلية غير المباشرة، مما يؤدي الرجوع إلى السياق عماد التداولية، لفهمها فهما صحيحا.
- ثمة علاقة بين الخطاب وتحليل الخطاب والتداولية، فالأول يقوم على إظهار عملية التواصل بين قطبي الخطاب والثاني يظهر التأثير الذي يحدثه كل منهما في الآخر من خلال الشرح والتفسير، والتداولية تولي عنايتها بالسياق ومقاصد الكلام وأحوال السامع بتتبع آثارهما في إنتاج النص.
- نظرية أفعال الكلام تنظر إلى الأقوال على أنها أفعال، فغاية كلام الخطيب أن يقوم بإنجاز فعل كلامي ما، وأن يؤثر في السامع سلبا أو إيجابا، فمثلا الإخبار رغبة في توصيل معلومة ما، والحمد تعبير عن امتنان، والشكر عن عمل قام به السامع، والطلب رغبة المتكلم بإعطاء مهمة للسامع، وكذلك دواليكَ.

- تؤدي الحروف أفعالا إنجازية، وتخرج من كونها حروفًا للقيام بوظيفة ما، فمثلا خطبة أبي بكر حينما استخدم فيها لفظ الجلالة مقسما به بمشاركة حرف الواو أكثر من مرة؛ يرمي من خلال الواو إلى تأكيد كلامه، ونزع أي شك يقفز في ذهن المتلقي فيه، ويحمل أيضا معنى الوعد، فأبو بكر يَعِدُ السامعين أنه سينجز الفعل المتضمن كلامه، ولن يتراجع عنه، وحرف القسم "الواو" في تأديته لمعناه ليس حرفا فقط، بل يخرج من هذه البوتقة إلى أن يعد فعلا كلاميا يرمي إلى إنجاز أفعال معينة أو الإفصاح عن حالة نفسية أو موقف اجتماعي، يدلنا السياق عليه[1].
- الصور البيانية تتولد منها أفعال كلامية غير مباشرة، تخرج من معناها الحقيقي لتحقيق مقاصد المتكلم عن طريق التلميح وبطرائق غير مباشرة، كالاستعارة والتشبيه والكناية، فتؤدي أفعالا كلامية إنجازية غير مباشرة.
- اختصت الأفعال الكلامية الإنجازية في الخطب، موضع التحليل، باحتوائها على ثلاثة أنواع من أفعال الكلام بدت فيها بنية الفعل الكلامي والغرض من إنجازه: أولها الفعل النطقي، وثانيها الفعل القضوي، وثالثها الفعل الإنجازي.
- برزت أنواع الأفعال الكلامية الإنجازية غير المباشرة ومستوياتها في الخطب المتمثلة بالمراوحة بين دراسة الجملة والنص، أي من خلال التداولية الصغرى والتداولية الكبرى، أما الصغرى فظهرت من خلال تناول أجزاء من النص، كالوحدات المعجمية وشبه المعجمية، وقد أكّدَ ظهورها في النص استخدام الخطيب أسلوب القصر وأسلوب الشرط، فغدا مسفرًا عن إشارات غير مباشرة، وكذلك استخدام الأساليب الخبرية الظاهرة ويراد بها المسكوت عنه من كلام، على خلاف معناها الأصلي، واستخدام الأساليب الإنشائية الطلبية وغير الطلبية على خلاف معناها الأصلي. وأما التداولية الكبرى فتدرس الفعل الكلامي بصورته الكلية، وفيه يتم اختزال الأفعال الكلامية التحسينية للوصول إلى جوهر الخطاب، وللوصول إلى المعنى غير المباشر للموضوع، والذي تم استخلاصه واستنتاجه من الصور الفنية المتوافرة في الخطب، كالتشبيه والاستعارة والكناية، كل هذه المساندات غدت وسائل في إيضاح الأفعال الإنجازية غير المباشرة، ومعينا للباحث في التوصل إليها.

---

[1] انظر: علي محمود الصرّاف، في البراجماتية، ١٠٥.

- الأفعال الكلامية المستخرجة من الخطب المذكورة كانت من نوع الفعل الكلامي غير المباشر؛ لعدم توفر المطابقة بين معنى الفعل الإنجازي ومراد المتكلم.
- التحليل التداولي يكشف عن الدلالة الإنجازية للمنطوق سواء أكان مباشرا أم غير مباشر، وعن القوة الإنجازية للمنطوق، التي تضعف أو تقل درجتها بحسب ارتباطها بوسائل مساندة، مثل: التكرار والأمر والتأكيد وهلم جرا.
- الارتباط الوثيق بين الاستلزام الحواري ونظرية أفعال الكلام تظهر أثناء تحليل الخطاب، حيث يتقاطع الاستلزام الحواري مع الأفعال الكلامية غير المباشرة، ففتحت أبواب التأويل والاجتهاد في نص الخطب بسبب ما احتوته من جمل غامضة، وقع فيها اللّبس، ولم يدرك مغزاها الحقيقي.
- فصل البحث بين اللسانيات النصية واللسانيات التداولية أثناء تحليل الخطب في الفصل التطبيقي، فلكل منهما مجموعة من الخطب تختلف عن الأخرى، لتسليط الضوء على ما يتمتع به كل قسم من خصائص وسمات تفيد الباحث أو القارئ في المقارنة بينهما كي يصل إلى أهمية الاتصال بين الدراستين في التطبيق على الخطبة ذاتها، فدراسة الخطبة نصيا وتداوليا معًا يخرج جماليات غير ظاهرة على بنية النص الشكلية، فالنص واسع، والتعمق فيه من جوانب دراسية مختلفة يعطيه رونقا خاصا، ويكشف عن معلومات أكثر للقارئ والباحث.
- آليات اللسانيات التداولية منهج مُكمِّل ومُتمِّم لآليات اللسانية النصية، ويبقى النص مفتقدًا للوضوح إن اعتمد محلل الخطاب على ما تقوم عليه النصية وأغفل التداولية؛ لأن النصية تدرس اللغة في النص، وتنظر إلى نظامه اللغوي المتشابك بمستوياته اللغوية، والتداولية تدرس الكلام في النص، وتنظر له على أنه خطاب اتصالي تواصلي حاصل بين طرفي الخطاب في سياق مقامي محدد.
- في بعض الدراسات اللغوية والقديمة إشارات وإلماحات إلى آليات النصية أو التداولية، فنجد ومضات هنا وهناك عبر فترات زمنية مختلفة تمهد وتؤصل وتنظّر، وقامت الدراسات الحديثة بمنحه مساحة أكبر في البحث ليشكل علما قائما بحد ذاته.
- يقع التشابه بين اللسانيات النصية واللسانيات التداولية في كونهما تقومان بتحليل الخطاب، وتختلفان بطريقة التحليل لاختلاف جوانب البحث فيها، فالنصية تبحث في

بنية النص الكلية ومستوياته اللغوية، بينما التداولية في الجانب التداولي الاستعمالي للغة، وكيف أدى كلام الخطيب على إحداث فعل كلامي.

- بمكنة الباحث أخذ جزئية واحدة من كل دراسة قمت بها، والتوسع فيها من خلال أمثلة تطبيقية يقتبسها من خطب أو رسائل وما شابه ذلك من كتاب الكامل.
- يضم كتاب الكامل نصوصا فريدة، ومن خيرة ما اقتبسه من التراث اللغوي العربي، مما يفسح المجال للغويين والباحثين والمهتمين بتطبيق النصية والتداولية على نصوص مختلفة، مثلا يستطيع الدارسون دراسة الرسائل الواردة في أبوابه، باختيار مواضيع متشابهة ودراستها دراسة نصية تداولية، أو تطبيقها على دراسة من تينك الدراستين.

- أما الاقتباس الذي أود أن يكون خاتَمة هذه الدراسة لما أرى فيه التوافق مع ما قمت به في الجانب التطبيقي في كلتا الدراستين، وهو: "المعنى الحرفي غير كاف لفهم ما قيل لأنه قاصر عن إبداء الكثير من القرائن الحالية التي تدخل في تكوين المقام، وإن الكثير من نصوص تراثنا العربي قد جاء غامضا؛ لأن الذين رووا هذه النصوص لم يعنوا بإيراد وصف كاف للمقام الذي أحاط بالنص، ومن ثم ينبغي لنا أن نبذل الجهد مضاعفا عند التصدي لشرح هذه النصوص حتى نستطيع إعادة بناء المقام بناء على أساس من التاريخ، ومن علم النفس، والمجتمع العربي القديم، والاقتصاد القديم أيضا، والمزاوجة بين كل أولئك بواسطة الخيال الخصب، والعقل الثاقب النفاذ"[1].

[1] تمام حسان، اللغة معناها ومبناها، ٣٧٣.

ملحق

- **فهرس الخطب**

الرقم	الخطبة	نوع الدراسة	الصفحة
١	الرسول محمد ﷺ	نصية/آليات التماسك النصي	٦٩
٢	الحجاج	نصية/آليات التماسك النصي	١٠٠
٣	أبو طالب في تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم	تداولية/نظرية الأفعال الكلامية	١٦٧
٤	عمر بن الخطاب حين سمع أن قومًا يفضلونه على أبي بكر	تداولية/نظرية الأفعال الكلامية	١٦٨
٥	أبو بكر في حرب الردة	تداولية/نظرية الأفعال الكلامية	١٦٨
٦	عمر بن عبد العزيز	تداولية/نظرية الأفعال الكلامية	١٦٩
٧	أعرابي بالبادية	تداولية/نظرية الأفعال الكلامية	١٧٠
٨	عمر بن الخطاب	تداولية/الاستلزام الحواري	١٩٨
٩	زياد بن أبيه ورد مرداس عليها	تداولية/الاستلزام الحواري	١٩٩
١٠	عبد الله بن الزبير	تداولية/الاستلزام الحواري	٢٠١
١١	المهلب بن أبي صفرة	تداولية/الاستلزام الحواري	٢٠٤
١٢	داود بن علي	تداولية/الاستلزام الحواري	٢٠٦

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم: علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٣.
- إبراهيم الإبياري، الكامل للمبرد، تراث الإنسانية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مج٣، ع١، ١٩٦٥م.
- إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص، ط١، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٧م.
- ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين (٦٣٧هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدمه وعلق عليه أحمد الحوفي وبدوي طبانة، (د.ط)، دار نهضة مَصْر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٥م.
- ابن الأثير الجزري، أبو الحسن عز الدين (٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، مراجعة وتصحيح محمد الدقاق، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.
- ابن الأثير الجزري، أبو الحسن عز الدين (٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، ط١، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٩م.
- ابن الأثير الجزري، أبو السعادات مجد الدين (٦٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، إشراف وتقديم علي عبد الحميد، ط١، دار ابن الجوزي، الدمام، ٢٠٠١م.
- ابن الأثير الجزري، أبو السعادات مجد الدين (٦٠٦هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، (د.ط)، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩م.
- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ط١، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٣م.
- أحمد عطية، الفلسفة التحليلية: ماهيتها، مصادرها، ومفكروها، ط١، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت،٢٠١٩م.
- أحمد عفيفي، نحو النص: اتجاه جديد في الدرس النحوي، ط١، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠١.
- أحمد محمد كامل، الحجاج بن يوسف الثقفي: بين الطاغية ورجل الدولة، ط١، مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٩م.

- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ط٥، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٨م.
- أحمد مداس، لسانيات النص: نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، ط٢، عالم الكتب الحديث، إربد، ٢٠٠٩م.
- أحمد المراغي، علوم البلاغة: البيان والمعاني والبديع، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.
- أرسطو طاليس، الخطابة: الترجمة العربية القديمة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، (د.ط)، دار القلم، بيروت، ١٩٧٩م.
- الأزهر الزناد، نسيج النص: بحث في ما يكون به الملفوظ نصا، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٣.
- الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد (٣٧٠هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق أحمد البردوني، مراجعة علي البجاوي، ط١، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م.
- إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الظاهر بن عاشور، ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، ١٩٩٥م.
- الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل (٣٣٠هـ)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٠م.
- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (٥٠٢هـ)، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان داودي، ط٤، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ٢٠٠٩م.
- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، مراجعة وتقديم وائل أحمد عبد الرحمن، ط٣، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ٢٠١٣م.
- الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيب (٢١٦هـ)، الأصمعيات، تحقيق وشرح أحمد شاكر وعبد السلام هارون، ط٥، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥م.
- ابن الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد (٥٧٧هـ)، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق إبراهيم السامرائي، ط٣، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٩٨٥م.
- أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة: كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١م.

- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (٢٥٦هـ)، التاريخ الكبير، تحقيق هاشم الندوي وآخرين، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ٢٠٠٤م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، ط١، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ٢٠٠٢م.
- البلاذري، أبو بكر أحمد بن يحيى(٢٧٩هـ)، جُمل من أنساب الأشراف، حققه سهيل زكاره ورياض زركلي، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م.
- بهاء الدين مزيد، تبسيط التداولية: من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي، ط١، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٠م.
- تاج الدين اليماني، عبد الباقي بن عبد المجيد (٧٤٣هـ)، إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين، تحقيق عبد المجيد دياب، ط١، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٩٨٦م.
- ابن تَغْرِي، أبو المحاسن جمال الدين (٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق فهيم شلتوت وآخرين، (د.ط)، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م.
- تمَّام حسان، الخُلاصة النحوية، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، (د.ط)، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٩٤م.
- التهانوي، محمد علي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف ومراجعة رفيق العجم، تحقيق علي دحروج، ط١، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٦.
- ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى (٢٩١هـ)، مجالس ثعلب، شرح وتحقيق عبد السلام هارون، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ط٧، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٨م.
- جاسم علي جاسم، أبحاث في علم اللغة النصي وتحليل الخطاب، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٤م.
- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (٤٧١هـ)، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ط٥، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (٤٧١هـ)، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد وفايز الداية، ط١، دار الفكر، القاهرة، ٢٠٠٨م.

- جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان (٣٩٢هـ)، الخصائص، تحقيق عبد الحكيم بن محمد، (د.ط)، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ١٩٩٧م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان (٣٩٢هـ)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩١٣م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (٥٩٧هـ)، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز: الخليفة الزاهد، ضبط وشرح وتعليق نعيم زرزور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (٥٩٧هـ)، كشف النقاب عن الأسماء والألقاب، تحقيق عبد العزيز الصاعدي، ط١، مكتبة دار السلام، القاهرة، ١٩٩٣م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق محمد عطا ومصطفى عطا، راجعه وصحّحه نعيم زَرزور، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.
- ج.ب.براون وج.يول، تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي، ط١، مكتبة الملك فهد الوطنية، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٧م.
- جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع: الفلسفة في العالم الواقعي، ترجمة سعيد الغانمي، ط١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٦م.
- جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس الوهاب، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،١٩٨٧م.
- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (٣٩٣هـ)، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عطار، (د.ط)، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٥٦م.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي (٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق عادل الموجود وعلي معوض، تقديم محمد البري وعبد الفتاح أبو سنة وجمعة النجار، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.

- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي (٨٥٢هـ)، فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد البخاري، تحقيق عبد القادر الحمد، ط١، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض،٢٠٠١.
- حسام فرج، نظرية علم النص: رؤية منهجية في بناء النص النثري، تقديم سليمان العطار ومحمود حجازي، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي: الفضاء–الزمن–الشخصية، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٠م.
- حمادي العبيدي، الشاطبي ومقاصد الشريعة، الفصل الخامس النوايا بين الأحكام والمقاصِد، ط١، دار قتيبة، بيروت، دمشق، ١٩٩٢م.
- الحملاوي، أحمد بن محمد بن أحمد، شذا العَرف في فن الصرف، تقديم محمد بن عبد المعطي، أخرجه أحمد المصري، ط١٢، دار كيان، القاهرة، ١٩٥٧م.
- الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (٦٢٦هـ)، معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق إحسان عباس، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م.
- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٦م.
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (٤٦٣هـ)، تأريخ مدينة السلام، وأخبار مُحَدّثيها وذكر قُطّانِها العلماء من غير أهلِها وَوَارِدِيها، تحقيق وضبط وتعليق بشار معروف، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠١م.
- الخطيب القزويني، أبو المعالي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن (٧٣٩هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت،٢٠٠٣م.
- الخطيب القزويني، أبو المعالي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن (٧٣٩هـ)، التلخيص في علوم البلاغة، ضبط وشرح عبد الرحمن البرقوقي، ط٢، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٣٢م.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢م.

- خليفة بن خياط، أبو عمرو العصفري (٢٤٠هـ)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم العمري، ط٢، دار طيبة، الرياض، ١٩٨٥م.
- خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية: مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط١، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، العلمة، ٢٠٠٩م.
- خير الدين الزِّرِكْلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م.
- دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتن، ط١، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠٠٨م.
- ديان مكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، ترجمة وتقديم عزالدين إسماعيل، ط١، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ٢٠٠١.
- الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين (٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومجموعة، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠١م.
- الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين (٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق حسان عبد المنان، ط١، بيت الأفكار الدولية، عمان، ٢٠٠٤م.
- ذهبية الحجاج، التداولية واستراتيجية التواصل، ط١، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٥م.
- روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمّام حسان، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- روجر فاولر، اللسانيات والرواية، ترجمة أحمد صبرة، ط١، مؤسسة حورس الدولية للنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٩.
- الزَّبيدِي، أبو الفيض محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد الستار فراج، (د.ط)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٦٥م.
- الزّبَير بن بكار، أبو عبد الله القرشي (٢٥٦هـ)، جَمهرة نَسب قُريش وأخبارها، تحقيق عباس الجراخ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠م.
- أبو زُرعة، عبد الرحمن بن عمرو (٢٨١هـ)، تاريخ أبي زرعة الدمشقي، وضع حواشيه خليل المنصور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.

- الزرقاني، محمد بن عبد الباقي، شرح الزرقاني على الموطأ وبهامشه سنن أبي داود، (د.ط)، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٩٨٩م.
- زكي نجيب محمود، موقف من الميتافيزيقا، ط٤، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٣م.
- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (٥٣٨هـ)، أساس البلاغة، تحقيق محمد السُّود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- سارة ميلز، الخطاب، ترجمة عبد الوهاب علوب، ط١، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٦م.
- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد(٢٣٠هـ)، كتاب الطبقات الكبير، تحقيق علي عمر، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠١م.
- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد (٢٣٠هـ)، كتاب الطبقات الكبير، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩٠م.
- سعد المرصفي، الجامع الصحيح للسيرة النبوية، ط١، دار ابن كثير، حولي، ٢٠٠٩م.
- سعيد بحيري، علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، ط١، الشركة المصرية العالمية للنشر–لونجمان، القاهرة، ١٩٩٧م.
- سعيد بيومي، لغة القانون في ضوء علم لغة النص: دراسة في التماسك النصي، تقديم محمد المهدي، ط١، دار الكتب القانونية، القاهرة، ٢٠١٠م.
- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، (الزمن، السرد، التبئير)، ط٣، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٧م.
- السكّاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر (٦٢٦هـ)، مفتاح العلوم، ضبط وتعليق نعيم زرزور، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.
- السُّهَيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (٥٨١هـ)، الرَّوْضُ الأُنُفُ في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، ط١، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٧م.
- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (٥٨١هـ)، نتائج الفكر في النحو، حققه وعلق عليه عادل الموجود وعلي معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان (١٨٠هـ)، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٨م.

- السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله (٣٦٨هـ)، أخبار النحويين البصريين، تحقيق طه الزيني ومحمد خفاجي، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٩٥٥م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ)، بُغيةُ الوُعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٥م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ)، تاريخ الخلفاء، ط٢، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، ٢٠١٣م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ)، زهر الخمائل على الشمائل: أوصاف النبي، تحقيق مصطفى عاشور، (د.ط)، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٨٨م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرح وضبط وتعليق محمد المولى بك ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي، (د.ط)، المكتبة العصرية، بيروت،١٩٨٦م.
- الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى (٧٩٠هـ)، الموافقات، أخرجه أبو عبيدة مشهور آل سلمان، ط١، دار ابن عفان، الرياض، ١٩٩٧م.
- الشعراوي، محمد متولي، تفسير الشعراوي: خواطري حول القرآن الكريم، ط١، دار أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩١م.
- صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: دراسة تطبيقية على السور المكية، ط١، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، ط١، دار التنوير، بيروت، ١٩٩٣م.
- الطاهر أحمد مكي، دراسة في مصادر الأدب، ط٨، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩م.
- طاهر حمودة، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، ط١، الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ١٩٩٨.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ)، تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك (أو تاريخ الأمم والملوك)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢م.

- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، التحرير والتنوير، (د.ط)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤.
- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق ومراجعة محمد الحبيب ابن الخوجة، ط١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، ٢٠٠٤م.
- عباس حسن، النحو الوافي، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٥م.
- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله (٤٦٣هـ)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق محمد البجاوي، ط١، دار الجيل، ١٩٩٢م.
- ابن عبد ربه، الفقيه أحمد بن محمد (٣٢٨هـ)، العِقد الفريد، تحقيق عبد المجيد الترحيني، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.
- عبد الستار الشيخ، عمر بن عبد العزيز: خامس الخلفاء الراشدين، ط٢، دار القلم، دمشق، ١٩٩٦م.
- عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات: عربي فرنسي فرنسي عربي مع مقدمة في علم المصطلح، (د.ط)، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، ١٩٨٤م.
- عبد السلام هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، ط٥، مكتبة الخانجى، القاهرة، ٢٠٠١م.
- عبد العزيز عتيق، علم البديع، ط١، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م.
- عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ط١، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٩م.
- أبو عُبيد البَكري، عبد الله بن عبد العزيز (٤٨٧هـ)، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق إحسان عباس وعبد المجيد عابدين، ط٢، دار الأمانة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧١م.
- عثمان أبو زنيد، نحو النص: إطار نظري ودراسات تطبيقية، ط١، إربد، عالم الكتب الحديث، ٢٠١٠م.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (٣٩٥هـ)، كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، تحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٢م.

- ابن عصفور، أبو الحسن علي بن علي (٦٦٩هـ)، شرح جمل الزجاجي، تقديم فواز الشعار، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- عفت الشرقاوي، بلاغة العطف في القرآن الكريم: دراسة أسلوبية، ط١، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١.
- علي محمود الصراف، في البراجماتية: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، دراسة دلالية ومعجم سياقي، ط١، مكتبة الآداب، جامعة الكويت، ٢٠١٠م.
- ابن العماد، أبو الفلاح شهاب الدين عبد الحي بن أحمد (١٠٨٩هـ)، شَذَرات الذّهب في أخبار مَن ذَهب، حققه عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، ط١، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٩٨٦م.
- العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني: من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، ط١، دار الأمان، الرباط، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١١م.
- غازي طليمات، في علم اللغة، ط٢، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ٢٠٠٠م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس (٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٩م.
- فان دايك، النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة عبد القادر قنيني، (د.ط)، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٠م.
- فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر (٦٠٤هـ)، مفاتيح الغيب، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨١م.
- فرانسوا راستيي، فنون النص وعلومه، ترجمة إدريس الخطاب، ط١، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ٢٠١٠م.
- فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، ط١، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٨٧م.
- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (١٧٠هـ)، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، ط٢، مؤسسة دار الهجرة، الرياض، ١٩٨٩م.

- فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة فالح العجمي، ط١، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٩م.
- الفيروزأبادي، أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب (٨١٧هـ)، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف محمد العرقسوسي، ط٦، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨م.
- قاضي المارَسْتَان، محمد بن عبد الباقي الأنصاري (٥٣٥هـ)، أحاديث الشيوخ الثقات (المَشيَخَة الكُبرى)، دراسة وتحقيق الشريف حاتم العَوني، ط١، دار علم الفوائد، مكة المكرمة، ٢٠٠١م.
- ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم(٢٧٦هـ)، الإمامة والسياسة (تاريخ الخلفاء)، تحقيق علي شيري، ط١، دار الأضواء، بيروت، ١٩٩٠م.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد(٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تحقيق عبد الله التركي ومحمد عرقسوسي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٦م.
- القِفْطِيّ، أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف (٦٤٦هـ)، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٦م.
- القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق (٤٥٦هـ)، العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده، تحقيق محمد عبد الحميد، ط٥، دار الجيل، بيروت، ١٩٨١م.
- ابن قيّم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر (٧٥١هـ)، إعلام الموقِّعين عن رب العالمين، تقديم وتعليق وتخريج مشهور آل سلمان، وشاركه في التخريج أحمد عبد الله أحمد، ط١، دار ابن الجوزي، الدمام، ٢٠٠٢م.
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر (٧٥١هـ)، زادُ المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٩م.
- ابن كثير، أبو الفداء محمد بن إسماعيل (٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، تحقيق وإخراج وتعليق محمد حسان عبيد، مراجعة عبد القادر الأرناؤوط وبشار معروف، ط١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، ٢٠١٥م.

- ابن كثير، أبو الفداء محمد بن إسماعيل (٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، (د.ط)، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٩٢م.
- ابن كثير، أبو الفداء محمد بن إسماعيل (٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، تحقيق حكمت بن بشير بن ياسين، ط١، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الدمام، ٢٠١٠م.
- كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص: مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، ترجمه وعلق عليه ومهد له سعيد بحيري، ط١، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- لواء عطية، المصاحبة المعجمية: المفهوم، والأنماط، والوظائف بين الموروث العربي والمُنجَز اللساني، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٨م.
- ليندة قياس، لسانيات النص: النظرية والتطبيق–مقامات الهمذاني أنموذجا، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٩م.
- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (٤٥٠هـ)، النكت والعيون: تفسير الماوردي، مراجعة وتعليق عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٢م.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (٢٨٦هـ)، الكامل، تحقيق محمد الدّالي، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م.
- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط٤، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- مجيد الماشطة، شظايا لسانية، ط١، دار السياب، لندن، ٢٠٠٨م.
- محمد خطابي، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١م.
- محمد خليل الخطيب، خطب الرسول صلى الله عليه وسلم: ٥٧٤خطبة من كنوز الدرر وجوامع الكلم، ط١، دار الفضيلة، القاهرة، ١٩٨٣م.
- محمد رجب صديق، الخطاب والتداولية: مدخل نظري، حوليات آداب عين شمس، جامعة عين شمس، مج٤٤، ٢٠١٦م.
- محمد أبو زهرة، الخَطَابة: أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العَرب، ط١، مكتبة العلوم، القاهرة، ١٩٣٤م.
- محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية: تأسيس "نحو النص"، ط١، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس ٢٠٠١.

- محمد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (د.ط)، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٤٤م.
- محمد العبد، اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة: بحث في النظرية، ط١، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠.
- محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، ط١، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ٢٠١٤م.
- محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي: مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجا، ط٢، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٢م.
- محمد المبارك، فقه اللغة وخصائص العربية: دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد والتوليد، ط٢، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٦٤م.
- محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، ط٣، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٢م.
- محمد مفتاح، النص: من القراءة إلى التنظير، ط١، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ١٩٩٩م.
- محمد مفتاح، دينامية النص، ط٢، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٠م.
- محمد بن يوسف الشامي (٩٤٢هـ)، سُبُل الهدى والرّشاد في سيرة خَير العباد، تحقيق مصطفى عبد الواحد، (د.ط)، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٧م.
- محمد يونس علي، مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤م.
- محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية): دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١٣م.
- محمود عكاشة، تحليل النص: دراسة الروابط النصية في ضوء علم اللغة النصي، ط١، مكتبة الرشد، القاهرة، ٢٠١٤م.
- محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ط١، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٢م.

- مرزوق الزهراني، عش مع الخلفاء والملوك: سيرة مختصرة، ط١، مكتبة الملك فهد الوطنية، مكة المكرمة، ٢٠١٦م.
- المرصفي، سيد بن علي، رغبة الآمل من كتاب الكامل، (د.ط)، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٠م.
- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، ط١، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٥م.
- مَسْكَوَيْهِ، أبو علي أحمد بن يعقوب(٤٢١هـ)، تَجارِبُ الأمم وتَعاقُبُ الهِمم، تحقيق سيّد كسروي حسن، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م.
- مصطفى حميدة، نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، ط١، الشركة المصرية العالمية للنشر–لونجمان، القاهرة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٧م.
- مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، مراجعة وتنقيح عبد المنعم خفاجة، ط٣٠، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٩٤م.
- ابن معطٍ، أبو الحسين يحيى بن عبد المعطي (٦٢٨هـ)، الفصول الخمسون، تحقيق ودراسة محمود الطناحِي، (د.ط)، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٧٧م.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (٧١١هـ)، لسان العرب، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م.
- مهدي أسعد عرار، ظاهرة اللبس في العربية: جدل التواصل والتفاصل، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ٢٠٠٨م.
- مهدي أسعد عرار، مباحثات لسانية في ظواهر قرآنية، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨.
- ميشيل فوكو، نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا، ط٢، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٧م.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهّاب (٧٣٣هـ)، نهاية الأرَب في فنون الأدب، تحقيق عبد المجيد ترحيني، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك المَعافِريّ (٢١٨هـ)، السيرة النبوية، تحقيق عمر تدمري، ط٣، دار الكتاب العرب، بيروت، ١٩٩٠م.

البحوث والدوريات

- إبراهيم علي أبو عيطة، المبرد، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المدينة، ع٣، ١٩٧٣م.
- حسن هادي نور، الفصل والوصل في خطب نهج البلاغة، مجلة كلية الآداب، جامعة المثنى، العراق، مج٢، ع١٠١، ٢٠١٢.
- حمودي السعيد، الانسجام والاتساق النصي المفهوم والأشكال، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح، الجزائر، ع١٦، ٢٠١٢.
- خالد مزعل، مصطلحا البنية الكبرى والبنية العليا عند فان دايك: مقاربة في المفهوم والمعيار والوظيفة، مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية، جامعة الكوفة، مج١٠، ع١٨، ٢٠١٦م.
- سالم حسن، الإحالة ودورها في تماسك النص: رواية (التبر) للكوني نموذجا، مجلة البحث العلمي في الآداب، جامعة عين شمس، ج٥، ع١٥، سنة ٢٠١٥.
- سعد مصلوح، نحو أجرومية للنص الشعري: دراسة في قصيدة جاهلية، مجلة فصول، المجلد العاشر، العددان الأول والثاني، يوليو–أغسطس، ١٩٩١م.
- عبد السلام السيد حامد، نحو النص عند سعد مصلوح، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، مج٧،ع٢، ٢٠١٦.
- عصام أبو شندي، خطب الحجاج بن يوسف: دراسة بلاغية، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مجلس النشر العلمي، مج٣٣، ع١٣٢، ٢٠١٥م.
- عماد نعامنة، عناصر الانسجام النصي في خطبة البيعة لأبي بكر الصديق: دراسة نصية تحليلية، مجلة المنارة للبحوث والدراسات، جامعة آل البيت، عمادة البحث العلمي، مج٢٢، ع٤، ٢٠١٦م.
- عمر شرف الدين، بين زياد بن أبيه في خطبته "البتراء" والحجاج في خطبته "أنا ابن جلا"، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، أسيوط، ع١٣، ١٩٩٣م.
- عيد بلبع، التداولية: البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، مجلة فصول، مصر، القاهرة، العدد٦٦، ٢٠٠٥.
- مراد عبد الحميد عبد الله، من أنواع التماسك النصي: (التكرار، الضمير، العطف)، مجلة جامعة ذي قار، المجلد٥، العدد خاص، ٢٠١٠.

الرسائل الجامعية

- باقر فرج، السبك والحبك في جزء المجادلة، رسالة ماجستير، جامعة المثنى، العراق، ٢٠١٨م.
- صالح عبد العظيم الشاعر، شعر محمد مهدي الجواهري: دراسة نحوية نصية، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، القاهرة، ٢٠٠٩م.